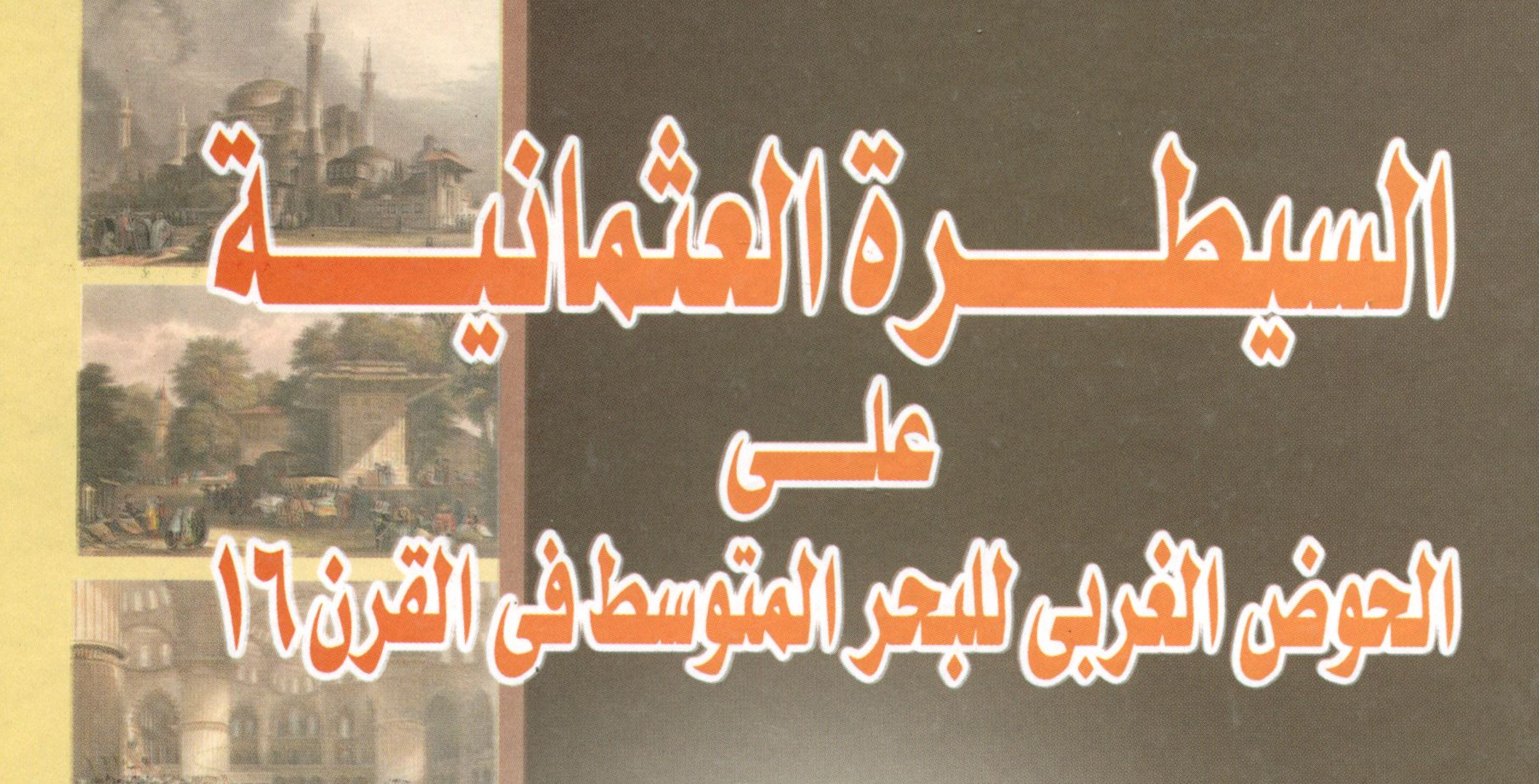
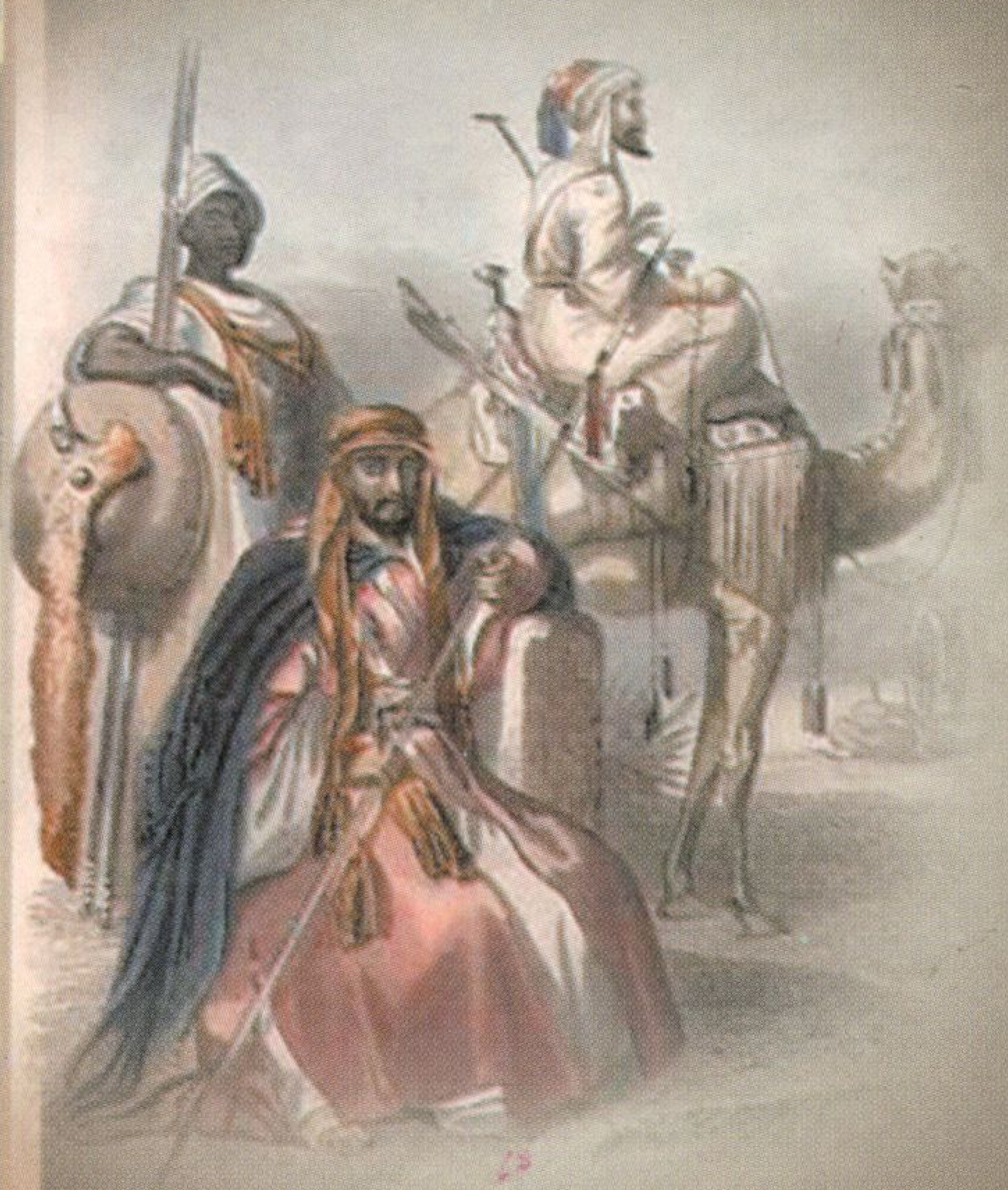


السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن ١٦









الأستاذ

أحمد سالم



مؤسسة شباب الجامعة

40 ش د / مصطفى مشرفة

تليفاكس :4839496 الإسكندرية

Email.shabab_elgamaa@yahoo.com

السيطـرة العثمانيـة
علـــى
الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن ١٦

الأستاذ

أحمد سالم سالم على

٢٠١١

الناشر

مؤسسـة شبـاب الجامعـة

٤٠ شارع الدكتور مصطفى مشرفة

إسكندرية – تليفاكس : ٤٨٣٩٤٩٦

Email:Shabab_Elgamaa@yahoo.com



﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم
لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن
يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت
صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا
ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز * الذين إن
مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا
بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور *﴾

{سورة الحج الآيات : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١}

إهداء

إلى كل مجاهد في سبيل الله، ضحى بنفسه وماله

لتكون كلمة الله هي العليا

إلى المجاهدين الأوائل الذين ضحوا بأنفسهم

الغالية لتصلنا كلمة التوحيد

المؤلف

أحمد سالم سالم على

المقدمــــــة

لم يكن اختياري لموضوع هذا البحث اختيارا عشوائيا ، بل كان متعلقا بأهمية الموضوع ذاته ، وارتباطه ارتباطا وثيقا بتاريخنا المعاصر.

إن موضوع السيطرة العثمانية على المشرق العربي هو موضوع ذو حساسية شديدة لذلك فقد تناوله بالبحث العديد و العديد من المؤرخين والباحثين العرب والأجانب ، وفي نفس الوقت كان لموضوع السيطرة العثمانية على بلدان المغرب العربي نفس تلك الأهمية التي أفرد لها المؤرخون العديد من الأبحاث التي تناولتها بالبحث والتمحيص.

ولكنني وجدت من خلال اطلاعي على هذه الأبحاث أن الموضوعين قد ارتبطا ارتباطا وثيقا لا يمكن فصله ولكن يمكن الاستفادة به لمعرفة العديد من الأسباب والنتائج التي تتعلق بالموضوعين ، فان منطقتي المشرق والمغرب العربيتين كانتا ترتبطان بظروف سياسية واحدة وعلاقات متبادلة فضلا عن تعرضهما لنفس الإخطار الخارجية المتمثلة في أول استعمار أوروبي بالمعنى الحديث على يد اسبانيا والبرتغال.

لذلك رأيت قبل التطرق للأوضاع السياسية في المغرب العربي في القرن السادس عشر وكيفية السيطرة العثمانية على تلك المنطقة ، أنه لابد من أفراد الفصل الأول للحديث عن الدولة العثمانية ومقومات ارتقائها وتوسعها ، ثم أسباب توجهها شطر العالم العربي للسيطرة عليه بعد أن كانت تتبع إستراتيجية التوسع في القارة الأوروبية ، ثم تناولت أثناء حديثي الآراء التى تناولها معظم الباحثين عن سلبيات تلك السيطرة العثمانية ، وما إن كانت تلك الآراء فعلا آراء منصفة أم أنها تحتاج لإعادة نظر من جديد.

لقد استطعت أن أضع من خلال هذا الفصل الأسس والركائز التي من خلالها أستطيع الحديث في الفصول اللاحقة عن دور الدولة العثمانية في تغيير الأوضاع السياسية للمغرب العربي بعد تعرضه للأخطار الخارجية واستعمار أجزاء منه على يد اسبانيا والبرتغال في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

وفي الفصل الثاني تناولت الأوضاع السياسية للمغرب العربي قبيل السيطرة العثمانية في القرن السادس عشر وما تشتمل عليه تلك الأوضاع من الانهيار السياسي لبلدان المغرب العربي في أواخر العصور الوسطى ، حتى كانت فريسة سهلة بعد ذلك للاستعمار الأوروبي في مستهل العصور الحديثة على يد اسبانيا والبرتغال.

وفي الفصل الثالث انتقلت إلي دور الجهاد البحري الذي كان بمثابة ردة الفعل للاستعمار الأوروبي لسواحل المغرب ، ودور هذا الجهاد في تدعيم النفوذ العثماني في غربي البحر المتوسط ، ومن خلال هذا الفصل أتحدث عن دور المجاهدين العظيمين الأخوين خير الدين وعروج بربا روسا اللذين لهما عظيم الفضل في وصول النفوذ العثماني الي تلك المناطق ، بالإضافة إلي دور المجاهدين العظيمين في تقوية الأسطول العثماني والارتقاء به نوعا وكما حتى أصبح من أقوى الاساطيل البحرية في ذلك العصر ، فضلا عن سيطرته الواسعة على البحر المتوسط شرقا وغربا.

والفصل الرابع أفردته للبحث في كيفية إتمام السيطرة العثمانية على بلدان المغرب العربي ، منذ أن وضعت أولى خطواتها في إقليم الجزائر في الربع الأول من القرن السادس عشر وحتى إعادة فتح تونس وانتزاعها من الاسبان نهائيا في النصف الثاني من القرن السادس عشر ،

لهذا تناولت في هذا الفصل كيفية تأسيس نيابة الجزائر ودخولها تحت السيطرة العثمانية ، وكيف أنها كانت ركيزة هامة للجهاد في بلدان المغرب العربي ، ودور ولاتها العظام في تقوية النفوذ العثماني في غربي البحر المتوسط وفي قطع يد المحتل الاسباني عن تلك المناطق ، هذا فضلا عن محاولاتهم المستمرة في إعانة إخوانهم المسلمين المضطهدين في الأندلس ، ثم كيفية مد النفوذ العثماني وإتمام السيطرة على تونس وطرابلس الغرب لتشكل في نهاية القرن السادس عشر ولايات شمال أفريقيا العثمانية بنياباتها الثلاث طرابلس وتونس والجزائر.

أما الفصل الخامس والأخير فبحثت من خلاله العلاقات العثمانية المغربية في القرن السادس عشر ، لما لهذه العلاقات من عظيم الأثر في فجر التاريخ الحديث ، فلقد تشكلت من خلالها العديد من الأسس والركائز سارت عليها السياسة الدولية فى هذه المنطقة لعدة قرون من الزمان ، ولم تتبدل هذه السياسة إلا بعد نهوض الغرب الأوروبي بشكله الحديث وتطلعه إلي إخضاع هذه المنطقة لأهميتها الإستراتيجية والاقتصادية في القرن التاسع عشر.

أرجو من الله تعالى بعد حمده أن أكون قد وفقت في دراستي هذه ، وأن أكون قد أضفت جديدا ولو قليلا على الكثير الذي قدمه من قبل أساتذتي الأفاضل ، وفي النهاية أتقدم بالشكر والتقدير لكل من قدم لي يد النصح والمساعدة والعون على إتمام هذا العمل وفى مقدمتهم أساتذتي الأفاضل :

ا.د محمد محمود السروجي ، ا.د فاروق عثمان أباظة ، ا.د ناهد الدسوقي أساتذة التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة الإسكندرية ، وأبعث بتحية تقدير وعرفان إلي المرحوم العالم الجليل

أستاذنا الدكتور/ السيد عبد العزيز سالم ، الذي أمدنى بالعون الروحى فأدعو الله تعالى أن يتغمده برحمته ، وأخص بالتحية أيضا أستاذي العالم الجليل الأستاذ الدكتور/ أحمد مختار العبادى أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية ، أطال الله عمره ونفعنا بعلمه ، وفى النهاية أرجو من الله تعالى أن ينفع بهذا العمل الإسلام والمسلمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أجمعين.

المؤلف

أحمد سالم سالم

الفصـــل الأول
تنامـــي الـــدور العثمانـــي شرقـــي البحـــر المتوســط

- قيام الدولة العثمانية.
- مقومات التوسع العثماني.
- أسباب التوجه العثماني شطر المشرق العربي.
- آراء في ايجابيات وسلبيات السيطرة العثمانية علـى العالم العربي.
- الأثر الاستراتيجي للسيطرة العثمانية علـى العـالم العربي من الناحية الشرقية.

الفصل الأول

تنامي الدور العثماني شرقي البحر المتوسط

قيام الدولة العثمانية وتطورها :

لم تكن الدولة العثمانية في مهدها سوى إمارة صغيرة تكونت ضمن أمارات تركمانية شتى ، نشأت نتيجة نزوح القبائل من أواسط آسيا تحت ضغط المغول المتجهين غربا نحو مناطق الثغور في آسيا الصغرى في القرن الثالث عشر عندما بدأت موجات الغزو المغولي تجتاح العالم الإسلامي من الشرق إلي الغرب. وقد لعبت هذه القبائل دورا هاما في تكثيف العنصر البشري عامة والتركي خاصة في مناطق الحدود البيزنطية[١].

ولقد كانت منطقة الأناضول في نهاية القرن الثالث عشر في تغير دائم ، فلقد انهارت سلطنة سلاجقة الروم القوية أمام زحف الغزاة من مغول إيران ، وأصبح السلاطين في حقيقة الأمر تابعين لهم . فتعهد السلطان السلجوقي بعد هزيمته على يد المغول عام ١٢٤٣م بدفع جزية سنوية باهظة . وكان قواد جيش الاحتلال المغولي هم الحكام الحقيقيون للبلاد السلجوقية كلها.

وفي نفس الوقت فان توغل الفتوحات المغولية تجاه الشرق دفع إلي تحرك الشعوب الإسلامية – أساسا الأتراك – والمجاهدين ، الذين اتجهوا إلي المناطق الغربية بعيدا عن سيطرة المغول ، وقد ساعد ذلك كما تقدم على زيادة كثافة العنصر التركى الإسلامي في الأناضول ، ودخل بعض هؤلاء في خدمة سلطنة المماليك الدولة القوية التي أوقفت التوسع المغولي في الأراضي الإسلامية[٢] ، واستقر البعض الآخر على التخوم البيزنطية التي كونت الحد الغربي لسلطنة الروم. وقد اختلطت تلك الشعوب بسهولة تامة مع سكان الحدود الذين استقروا هناك قبلهم واكتسبوا

دون أدنى صعوبة الشخصية التقليدية للقاطنين في مناطق الحدود البيزنطية وهي حب الجهاد المقدس ضد جيرانهم البيزنطيين المسيحيين[٣] ومنذ ذلك الوقت بدأت تظهر إمارات عسكرية صغيرة تكونت الواحدة تلو الأخرى من أقاليم صغيرة يسيطر على كل منها أمير يحمل لقب غازي أو قائد الغزاة ، ونجحت تلك الأمارات فيما بعد من توسيع رقعة أراضيها على حساب البيزنطيين وفي نفس الوقت على حساب أراضي سلطنة سلاجقة الروم المضمحلة ، وكان أشهر هذه الإمارات ست عشرة إمارة من بينها إمارة آل عثمان التي قدر لها من بين تلك الدول التركية أن تصبح إمبراطورية مترامية الأطراف ، وأن تحكم شعوبا وملا ونحلا غير متجانسة وأن تكون أطول دول الترك بقاء[٤].

وقد تباينت الأقوال والروايات عن الظروف المحيطة بتأسيس هذه الإمارة الصغيرة في غربي الأناضول ، ومعظم هذه الروايات يشوبها جو أسطوري وطابع روائي لا يمت للحقيقة التاريخية بصلة كبيرة ، ولكن أصح تلك الروايات التي تداولت في كتابات المؤرخين ، أن قبيلة عثمان قد نزحت من أواسط آسيا مع زحف المغول وعبر سيرها داخل الأناضول فوجئت بمشهد معركة تجري أمامها ، فقرر زعيم القبيلة أرطغرل[٥] والد عثمان مساعدة الجيش الأضعف الذي كان على وشك الانكسار ، حيث تبين له بعد ذلك أن قائد ذلك الجيش كان أحد الأمراء المحليين في منطقة جنوب شرقي بحر مرمرة والذي كافأ ارطغرل بالسماح له بالاستقرار هو وقبيلته في الأرض التي جرت فيها المعركة ، ولم يمر وقت طويل حتى توفى أرطغرل وتولى ابنه عثمان[٦] الذي سيطر على أراضي إمارة ذلك الأمير ذاتها بعد ذلك واستخدمها مركزا للتوسع باتجاه أوروبا مدفوعا بالرغبة في ممارسة الجهاد[٧].

وقد اتفق معظم المؤرخين على أن عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م هو عام استقلال إمارة آل عثمان ، ففي هذا العام أرسل السلطان السلجوقي الحاكم في الأناضول علاء الدين الي عثمان بك الطبل والعلم والشرابة كعلامات سلطنة ، وعندما قام المغول بعزل وحبس علاء الدين انتهت الدولة السلجوقية من الناحية الفعلية واجتمع غزاة الثغور و أمراء التخوم وقرروا مبايعة عثمان بك الملقب بالغازي على السلطنة[٨].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ، لماذا حظيت إمارة آل عثمان بهذا التطور فائق السرعة دون باقي إمارات الأناضول لتصبح في أقل من مائة عام إمبراطورية كبرى؟؟

وإذا أردنا الإجابة على هذا السؤال لابد أن نضع في اعتبارنا العامل الجغرافي كأحد العوامل الرئيسة في اكتمال نضوج هذه الدولة من الناحية السياسية والعسكرية ، فقد شغلت هذه الإمارة أول ما شغلت منطقة حدودية مع الدولة البيزنطية في غربي الأناضول وكانت هذه المنطقة من مناطق الثغور التي طالما جاهد فيها المسلمون ضد أعدائهم النصارى التابعين للدولة البيزنطية الذين يعتبرون حجر عثرة أمام المسلمين منذ صدر الإسلام لنشر الدين شرقي أوروبا.

ومن الثابت أن الإمارات التي نشأت على مناطق الحدود في الأناضول تطورت أسرع من إمارت الداخل ، فوضع العثمانيين على الحدود البيزنطية جعلهم يحملون عبء الجهاد والقتال المستمر ، وقد اجتذبت تلك الحروب العديد من المسلمين من أماكن مختلفة لممارسة الجهاد مع إخوانهم وخاصة مسلمي الإمارات التركية الأخرى داخل الأناضول ، وقد أدى هذا التطور السريع للجيش العثماني والذي أدى بدوره إلي انتصار العثمانيين الباهر والسريع على العدو وتحقيق تقدمات

في شتى الميادين ، هكذا ازدادت مع الوقت رقعة الإمارات العثمانية وزادت مواردها ودخولها.

مقومات التوسع العثماني :

من الضروري الإشارة إلي أن التوسع العثماني على حساب الدولة البيزنطية ، لم يكن بغرض النهب أو توسيع رقعة الدولة وإنما كان بهدف الاستيطان ونشر الدين الإسلامي في هذه المناطق الجديدة من العالم.

وقد أشار بعض المؤرخين من أمثال كيس (F.Giese) الي الدور المهم لدعاة الدين الإسلامي والمتصوفين في تأسيس الدولة العثمانية وتوسعها وقد خص بالذكر دور الآخيين – المشتقة من كلمة أخي العربية – وهم جماعة من أهل الحسبة والباعة والتجار اشتهروا بالاستقامة والجود كانوا يراقبون السوق ويمنعون المظالم ، لذا اكتسبوا محبة الناس في هذا المجال مما ساعد على نشر الإسلام في البقاع المفتوحة[٩] كانتشاره في شرق آسيا وغرب أفريقيا عن طريق المعاملات التجارية ، ويقول ب.ويتك (P.Witęk) بأن الدولة العثمانية تحمل خصائص وصفات الدولة الغازية ، وأن العثمانيين استطاعوا بمرانهم وتجربتهم وخلفيتهم في موضوع الثغور وبالمسامحة الكبيرة التي عاملوا بها سكان المناطق التي فتحوها تأمين سرعة امتزاج هؤلاء السكان معهم[١٠].

أما مؤرخو البلقان وفي مقدمتهم أوركا (Iorga) فيرون أن الأسلوب المحافظ والتوحيدي للدولة العثمانية ساق القرويين والجنود في أوروبا الذين ملوا وسأموا جو الفوضى والإرهاب الذي يعيشون فيه إلى الاستسلام جماعات وفرادى إلي الدولة العثمانية دون أي تردد ولاسيما

بعد أن لاحظوا أنهم يستطيعون الاستمرار والبقاء في دينهم وثقافتهم وحضارتهم[١١].

كانت الدولة العثمانية في الطور الأول من نشأتها تحمل صفات الدولة الإسلامية في صدر الإسلام ، حيث حمل المجاهدون الإسلام على كهولهم يضعونه حيث يضعون رحالهم ، وبذلك بدأ الإسلام الانتشار في أوروبا من جديد بعد أن توقف الفتح الإسلامي في غرب أوروبا بعد معركة بلاط الشهداء في أوائل القرن الثاني الهجري.

وقد سهل اندماج المسلمين في شرق أوروبا مع أهالي البلاد الأصليين ودخول الكثير منهم في الإسلام من سهولة السيطرة العثمانية السياسية والعسكرية على تلك البقاع ، وقد زاد من سهولة تلك السيطرة النزاع السياسي القائم بين دويلات شبه جزيرة البلقان بالإضافة إلى الاضطهاد المذهبي الذي عانى منه الكثير من أهالي تلك البلاد ، فلقد كان ملك المجر(لودفج) على سبيل المثال متعصبا أشد التعصب للمذهب الكاثوليكي الذي يدين به ، وبينما كان يفرض مذهبه بالعنف والقتل على البلقانيين الأرثونكس ، كان الفتح العثماني يمارس الحرية الدينية والوجدانية وتسامح في هذا الخصوص إلي أبعد الحدود ، ففضل أهالي تلك البلاد حكم العثمانيين على غيرهم ، فلم يبدوا أي مقاومة ، فساعد ذلك على سهولة اقتحام المدن والقلاع[١٢].

وكانت نفس هذه النقطة ذات صلة قوية بما حققه العثمانيون من نجاحات على المستوى التوسعي والاستيطاني في البلدان غير الإسلامية التي خضعت لسلطانهم فلم تخضع قرية أو مدينة للحكم العثماني إلا وتقبله أهلها بسهولة ويسر لما وجدوا فيه من مميزات ، ودخل كثير منهم في

الإسلام بل والتحق الكثير منهم في الوظائف الحكومية العثمانيــة بــدون أدنى تمييز وتفرقة بين العناصر والقوميات المحلية .

إن الحرية التي سمح بها العثمانيون ليسـت إلا تطبيقـا لقاعـدة شرعية إسلامية ومبدأ إسلامي ، ولقد حصل الذميون الذين اعتنقوا الدين الإسلامي على كل حقوقهم كمسلمين متساويين في الحقوق والامتيـازات مع أي مسلم آخر سواء أن كان تركيا أو غير تركي ، ولا شك أن هـذا الموقف أحدث لدى غير المسلمين تأثيرا ايجابيا والأبطال مـن أصـول مسيحية ليسوا إلا نتيجة من نتائج هذا الموقف(١٣).

ولقد شهد كثير من المؤرخين الغربيين على أن التسامح الـديني والمذهبي الذي تحلت به الدولة العثمانية في مختلف عهودها كان عـاملا مهما من عوامل الاستقرار السياسي الذي حققته للشعوب التي خضـعت لسلطانها ، بل كان سببا مهما من أسباب سهولة خضوع تلك الشـعوب للحكم العثماني.

فيقول روبير منتران : (إن بعض جوانب العالم العثماني في ذلك العصر يقدم استشراقا للدولة الحديثة ذلك أن العاهل مقيد فـي ممارسـة سلطاته ليس فقط بالشريعة وإنمـا أيضـا بالقـانون العرفـي للشـعوب الخاضعة)(١٤).

ولقد استطاعت الدولة العثمانية على مر الزمن جـراء سياسـتها الحكيمة من تثبيت أقدامها في البلقان إلي جانب نشر الإسـلام بسلاسـة وسهولة ، ومن تلك السياسات التي اتبعتها الدولة العثمانية نقل المهاجرين من مناطق الأناضول القريبة وتوطينهم المناطق المفتوحة حديثا بالبلقان ، وقد أسفرت هذه السياسة عن تفريغ تلك المناطق مـن المقاومـة نهائيـا بالإضافة إلي تأمين ظهور العثمانيين. ولما تقدمت الفتوحات العثمانية فيما

بعد من تراقيا إلي مقدونيا وبلغاريا زاد العثمانيون من عمليـــة التـــوطين وأصبحوا ينقلون الهجرات من أماكن مختلفة في الأناضول إلي الروملـــي (البلقان) ،.وفي نفس الوقت ينقلون الأهالي من بعض المناطق التي يـــتم فتحها ويوطنوهم بالأناضول ، وبهذه الطريقة خلال قرن ونصـــف مـــن الزمان أصبحت في البلقان مناطق إسلامية تماما بفضل المؤسسات العلمية والاجتماعية التي انتشرت في المدن والقصبات(١٥).

وهكذا اتضح من تلك السياسات المتبعة من قبل العثمانيين مـــدى وعيهم بطبيعة الشعوب بالإضافة إلي اتخاذهم منهجا ليس عشـــوائيا فـــي فتوحاتهم ، واتضح أيضا أن هؤلاء الفاتحين لم يكونوا عسكريين مجردين من مظاهر الحضارة كما ادعى البعض ، وإنما كانوا مسلحين بالمقومات اللازمة لإنشاء إمبراطورية حضارية استطاعت استيعاب ما سبقها مـــن حضارات وأدارتها في فلكها لعدة قرون من الزمان.

وفي مقارنة سريعة نستطيع بيان الهوة الواسعة بـــين الفتوحـــات العثمانية وما أثمرته وبين الاحتلالات العسكرية التي لـــم تخلـــف ســـوى الدمار والخراب ولم تمكث في عمر الزمن سوى النذر اليسير. فمن الغزاة من اعتنق الإسلام كالعثمانيين ولكنه ظل على جاهليته وبربريته فلم يفرق بين المسلمين وغيرهم في التقتيل والتدمير ، ولنا في تيمورلنك(١٦) خيـــر مثال ، ذلك الحاكم المسلم الذي اجتاح العالم من أواسط آسيا وامتد نفـــوذه من الهند إلي البحر المتوسط ولكن لم تقم دولته يوما من أجل دين أو قيم وإنما قامت على الخراب والدمار وإبادة البشر ، فلم يحتـــل مدينـــة وإلا وخربها وأضرم فيها النيران وأتى على ما بها ، فاحتل دلهى ودمرها عن آخرها فلم يقم لها قائمة إلا بعد قرن ونصف من الزمان ، واحتل بغـــداد ودمرها وأحرق بيوتها وقتل في يوم واحد من أهلها أكثر من مائة ألـــف

إنسان ، ودخل دمشق وأضرم بها النيران ثلاثة أيام حتى أتى عليها ثم استعد لمحاربة الدولة العثمانية فوقعت بينه وبين السلطان بايزيد يلدرم واقعة هائلة تسمى أنقرة عام ٨٠٤هـ/١٤٠٢م هزمه فيها هزيمة ساحقة لضخامة جيشه الذي تألف من ٣٠٠ ألف جندي ، ووقع بايزيد في الأسر ثم مات.

وقد مات تيمورلنك بعد هذه الواقعة بسنوات قليلة ، فما ان مات حتى ذهبت كل الأراضي التي اكتسحها أدراج الرياح ولم تعمر مملكته إلا القليل ولم تذكر في التاريخ إلا مقرونة بالدمار والخراب التي خلفته ، وعلى العكس تماما فبعد الهزيمة الثقيلة التي منيت بها الدولة العثمانية وسقوطها في براثن تيمورلنك تعافت سريعا وعادت أقوى مما كانت عليه في سنوات معدودات ، حتى انه لم يمر نصف قرن على هذه الكارثة إلا وافتتحت القسطنطينية حاضرة البيزنطيين القوية على يد السلطان محمد الفاتح عام ١٤٥٣م.

هكذا ومن هذه المقارنة نجد أن القوة العسكرية المهولة التي تمتع بها تيمورلنك لم تزد في عمر دولته ولم تكن سببا في استمرارها وسيطرتها ، كما كانت دولة جانكيز خان وهولاكو من قبل ، أما الدولة العثمانية التي تحلت بالسمات الحضارية وعوامل الاستمرار فقد مكثت بمقدار ما أفرزته من نتاج حضاري.

ولقد أدى الظرف السياسي الملائم في المنطقة بشكل عام وفي العالم الإسلامي بشكل خاص إلي ظهور الدولة العثمانية كدولة عظمى قوية مسيطرة ، قادرة على القيادة لملئ ذلك الفراغ السياسي الحادث على الساحة الإسلامية والناجم عن سقوط دولة الخلافة العباسية المهيمنة على المشرق ، وكذا دولة سلاجقة الروم – التي تبنت سياسة الجهاد ضد الدولة

البيزنطية – على يد المغول ، ولم تظهر أية دولة قوية في المشرق عدا دولة المماليك التي استطاعت دحر المغول ، ولكنها استمدت قوتها بعد ذلك من إستراتيجية موقعها في مصر والشام حيث مرور طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، ولذلك فان انتقال هذا الطريق إلي رأس الرجاء الصالح على يد البرتغاليين في نهاية القرن الخامس عشر قد أدى إلي إضعاف القوة السياسية والعسكرية لدولة سلاطين المماليك مما أدى إلي عجزها عن حماية أراضيها والأماكن المقدسة الواقعة تحت حمايتها من الاعتداءات الخارجية وخاصة أمام البرتغال ، مما مهد لضرورة شغل دولة إسلامية قوية لهذا الفراغ الناجم عن اضمحلالها ولم تكن تلك الدولة القوية سوى الدولة العثمانية.

أسباب التوجه العثماني شطر المشرق العربي :

يجب علينا استعراض تلك الأسباب والدوافع التي مهدت لسيطرة الدولة العثمانية على المشرق العربي وشغل ذلك الفراغ السياسي المشار إليه. فان الدولة العثمانية في أوج عظمتها بعد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م ، لم تفكر مطلقا في السيطرة على المشرق العربي ، والدليل على ذلك السياسة السلمية والعلاقات الودية القائمة بين الدولة العثمانية ودول المشرق العربي وخاصة دولة سلاطين المماليك والمذكورة في معظم المصادر التي وصلت إلينا.

ففي الوقت الذي تولى فيه السلطان الأشرف اينال مقاليد الحكم في مصر ، كان السلطان العثماني محمد الثاني (الفاتح) مشغولا آنذاك بفتح القسطنطينية[١٧] ، ولما أفاء الله عليه بالفتح والظفر أرسل إلي سلطان مصر يبشره بهذا النصر الذي يعتبر انتصارا للإسلام ، وقد وصل القاصد العثماني إلي مصر يوم ٢٣ شوال سنة٨٢٧ للهجرة لتهنئة اينال بالملك

وإخباره بما منَّ الله عليه من فتح مدينة استانبول ، وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء القسطنطينية وطلع بهما إلي السلطان ، ودقت البشائر وزينت القاهرة بسبب ذلك أياما وزينت الحوانيت والأمكنة وأمعن الناس في الزينة ، وبلغ من تبجيل محمد الثاني لسلطان الجراكسة ، واحترامه وتقديره له أنه بدأ رسالته إليه بقوله (الملكي السلطاني الأشرفي الأبوي الأعطفي ، ضاعف الله تعالى ملكه وسلطانه وأفاض على العالمين بره واحسانه)[١٨].

ويذكر ابن اياس أن السلطان العثماني قد أرسل إلي الخليفة في القاهرة يستعطفه ليرسل إليه تقليدا بالبلاد المفتوحة على يديه ، فأرسل له الخليفة بأن يكون مقام السلطان على بلاد الروم وما سيفتحه الله تعالى على يديه من البلاد الكفرية[١٩].

وقد استمرت هذه السياسة السلمية والعلاقات الودية تجاه المشرق العربي عامة حتى أواخر القرن الخامس عشر ، فما الذي أدى اذن بالدولة العثمانية الاتجاه شطر المشرق العربي بسياستها التوسعية؟؟

لقد اختلف المؤرخون في تفسير هذا التغيير للسياسة العثمانية تجاه المشرق العربي في الربع الأول من القرن السادس عشر.

فالرأي الأول يقول أن الدولة العثمانية كانت قد بلغت مرحلة التشبع في فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر وكان من المتعذر عليها التوغل في أوروبا بعد المدى التي وصلت إليه عندما ارتقى عرشها السلطان سليم الأول[٢٠] ، ولكن هذا السبب غير مقبول من بعض الباحثين على علاته ، لأن السلطان سليمان القانوني[٢١] الذي خلف أباه سليم قد أوغل في فتوحاته في قلب القارة الأوروبية فاستولى على بلجراد[٢٢]

واكتسح سهول المجر وانتزع سبعة أعشار من النمسا ووصل إلي أسوار فيينا ، وقد واصل خلفاؤه سياسة التوسع في الجبهة الأوروبية(٢٣).

وهناك فريق آخر من المؤرخين يربط هذا التحـول العسـكري العثماني نحو الشرق الإسلامي بالأحداث التي كانت تدور وقتـذاك فـي المشرق العربي أو حول أطرافه وتتمثل هذه الأحداث في قيـام الدولـة الصفوية الشيعية في فارس بغزو العراق ومحاولتها نشر المذهب الشيعي في المناطق المجاورة ، مما أرغم العثمانيين على الخروج لحماية آسـيا الصغرى والعالم السني عامة من الزحف الشيعي(٢٤).

وإذا اعتبرنا أن هذا الرأي على جانب كبير من الصـواب فمـن الصعب أن نتخذه السبب الوحيد الذي دفع العثمانيين بكل طـاقتهم الـي المشرق العربي على هذا النحو.

ويرى المؤرخ أرنولد توينبي (Toynbee) الذي يتبنى هذا الرأي أنه حتى نشوب النزاع العثماني الفارسي كانت آسيا الصـغرى وفـارس عالما واحدا تسوده الثقافة الفارسية ، وفي داخل هذا العالم كان المـذهب السني يعيش في سلام جنبا إلي جنب مع المذهب الشيعي ، ولكن حركـة الشاه إسماعيل الصفوي في محاولته لنشر المذهب الشيعي بـين القبائـل التركمانية شرقي الأناضول قد أثارت السنة هناك مما أثار المسئولين في استانبول ، فقام النزاع بين الدولتين الكبيرتين السنية والشيعية.

ويعتقد توينبي أن الصراع بين هاتين الدولتين الكبيرتين يصـعب حصره داخل فارس وحدها أو آسيا الصغرى كذلك ، بل لابد أن يمتد إلي المناطق المجاورة ، وبذلك يعتبر توينبي أن استيلاء العثمانيين على الشام ومصر والعراق بل حتى على اليمن ليس سوى حلقة من حلقات الصراع بين العثمانيين والصفويين(٢٥).

وإذا أخذنا في الاعتبار ذلك الرأي لابد ألا نغفل عن السبب الثالث وهو الأقرب بشكل كبير إلي الصحة ، فيرى الفريق الثالث من المؤرخين أن هذا التحول العسكري للدولة العثمانية في أوائل القرن السادس عشر يرتبط بأحداث عالمية وقعت حول أطراف العالم العربي سواء الشرقية أم الغربية ، ويقصد بهذه الأحداث زحف الاستعمار الأوروبي على جناحي العالم العربي وتصدي العثمانيين لهذا الزحف المتمثل في الدولتين الأقوى حينئذ اسبانيا والبرتغال.

ويرى أصحاب هذا الرأي أن السلطان سليم الأول كان أكثر تفهما للوضع الدولي وأخطاره من الشاه إسماعيل الصفوي(٢٦) الذي ما لبث أن تحالف مع البرتغاليين الذين استطاعوا الوصول للخليج الفارسي والسيطرة على بعض أجزائه ، وحاول عن طريق هذا التحالف تدمير القوة العثمانية ولم يضع في حسبانه كما فعل السلطان سليم وضع الدول الإسلامية الأخرى الواقعة في مرمى البرتغاليين الذين حركهم تعصبهم الصليبي إلي جانب مصالحهم الاقتصادية في القضاء على هذه الدول قضاء مبرما بل واحتلالها وتنصير أهلها.

وهكذا يتضح في النهاية أن العاملين الأخيرين قد تضافرا لينتج عنهما التحول الشديد في الوجهة العسكرية العثمانية مع مطلع القرن السادس عشر والتي أدت لوقوع العالم العربي تحت السيطرة العثمانية.

آراء في ايجابيات وسلبيات السيطرة العثمانية على العالم العربي :

أما عن ملابسات السيطرة العثمانية على العالم العربي ونتائجها ، فقد تطرق لها كثير من المؤرخين والباحثين وكانوا بين مؤيد ومعارض لها ، فتارة يزكيها البعض ويثني عليها ، وتارة أخرى يتحامل عليها البعض ويصفونها بأوصاف شائنة كما فعل الكثير من الأساتذة الكبار من

أمثال الدكتور/ جمال حمدان الذي ساوى بين الفتح العثماني والاستعمار الأوروبي ، لذا يجب أن نفند بعض تلك السلبيات التي تطرق إليها الباحثون ، وعن طريق تفيد تلك الآراء يظهر لنا هل كانت فعلا منصفة للحقائق التاريخية؟ أم هى محض افتراءات؟

ولقد تبنى د.جمال حمدان معظم الآراء السلبية التي وجهت للدولة العثمانية وتحدث عنها في كتاباته ، وهكذا نستطيع عن طريق كتاباته معرفة معظم تلك السلبيات التي وجهها الباحثون والمؤرخون للدولة العثمانية ونتائج السيطرة العثمانية على العالم العربي.

يقول د. جمال حمدان (على أن الاستعمار الدينى المسيحي لم يكد ينحصر عن الساحل الجنوبي حتى ورثه استعمار ديني آخر وان اختلف الدين. فمن الساحل الشمالي مرة أخرى من الأناضول جاءت موجة الاستعمار التركي ، وهو نوع محير من الاستعمار لأنه كاستعمار ديني اتخذ من وحدة الدين كغطاء يخفي به حقيقته كاستعمار سياسي لا شك فيه)(٢٧).

لا نلوم د. جمال حمدان على هذا الكلام كثيرا فقد كتبه في وقت سادت به القوميات وكان لها الأولوية القصوى على أي نزعة أخرى ، ولكننا إذا سلمنا بهذا الكلام واعتبرنا أن الفتح العثماني احتلالا لا يختلف عن الاحتلال المسيحي الذي ورثه إلا في الدين ، إذن فهو احتلالا قوميا في وقت لم تسد فيه أي نزعات قومية أو عرقية بمفهومها الحديث ، أي انه احتلال تركي لبلاد عربية ، فهل لنا أن نطبق هذا الكلام على الفتح العربي الإسلامي للأندلس وبقائه بها ثمانية قرون ، فهل كان احتلال عربي لبلاد ذات عرق لاتيني؟ وإذا سميناه احتلالا ، فهل كان بعد تلك جلاء بعد خروج العرب من الأندلس؟ وإذا كان هذا هو مفهوم الاحتلال

فان خروج العرب من الجزيرة العربية أصلا لا يصح ، ويعتبر إذن غزوا واحتلالا وليس فتحا ونشرا للدين القويم وضمان حرية العبادة والاعتقاد.

يقول د.حمدان (أما من الناحية الحضارية فان الاستعمار التركي نوع شاذ من الاستعمار. فإذا كان الاستعمار السياسي بالمفهوم الحديث هو سيطرة حضارة راقية على حضارة متخلفة ، فقد كان العكس هو الأساس في الاستعمار التركي فقد بدأ كقوة استبسية محاربة بحتة ، قوة فرسان هدامة من الرعاة بلا حضارة ولا جذور تاريخية بل وبلا وطن أم محدد. هذا بينما كانت الإمبراطورية تتألف من شعوب عريقة مستقرة وحضارات زراعية راقية)[٢٨].

وهنا يضع د.حمدان قاعدة لا أساس لها من الصحة ألا وهي أن الاستعمار لابد وأن يكون لدولة متقدمة أو حضارة راقية على حضارة أخرى متخلفة. ولكن إذا نظرنا في التاريخ نجد الكثير والكثير من الحضارات الراقية قد استعمرت بل وانتهت على يد حضارة أخرى ناشئة ليس لها أية أصول تاريخية ، وأفضل مثال على ذلك العرب الذين لم يكونوا قبل الإسلام سوى مجموعات متنقلة من الرعاة داخل الجزيرة العربية وعلى أطرافها ، ولما أعزهم الله بالإسلام خرجوا فاتحين للدنيا ، فلم يمض القرن الأول من الإسلام إلا ودخلت في ظلهم حضارات عريقة وموغلة في القدم من أمثال الفرس والرومان.

وأما وصفه للأتراك بأنهم قوة من الفرسان والرعاة الهدامين ، فهل القوة الهدامة هي التي ينشأ عنها ازدهارا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية واستقرارا سياسيا وتطورا في العمران وغيره ، أم هي قوة

حضارية بناءة تخلف عنها الكثير من الأوجه الحضارية التي نرى بعضها قائما حتى الآن.

ويذكر الدكتور/ حمدان في أثناء استعراضه للحياة الاقتصادية للدولة العثمانية وما أنتجته على الصعيد الدولي خطأ تاريخيا فادحا بقوله : (وقد فرض الأتراك وقد أصبحوا سادة جميع الطرق البرية بين الشرق والغرب سياسة جمركية غبية ولا أخلاقية على أحسن تقدير ، ومن الثابت تاريخيا أن ابتزاز الأتراك لتجارة الأجانب والتجارة العابرة كان أكبر الأسباب التي دفعت الغرب وأوروبا المسيحية دفعا إلي البحث المستميت عن طريق بديل إلي الشرق حتى جاءت بالفعل الضربة القاصمة وهى طريق رأس الرجاء الصالح وكان طبيعيا أن يعنى هذا لا الجمود والتوقف فحسب وإنما التدهور الحضاري كذلك)[٢٩].

وهذا الكلام بالطبع يتنافى مع الحقائق التاريخية الثابتة ، لأن طريق رأس الرجاء الصالح لم يكتشف في وقت سيطرة الأتراك على مصر والشام وإنما اكتشفه البرتغاليون في أواخر القرن الخامس عشر أي في وقت سيطرة المماليك. ثانيا : لم يفرض الأتراك سياسة جمركية غير أخلاقية بعد سيطرتهم على مصر والشام لأنه ببساطة قد تم تفعيل جميع الاتفاقيات التجارية الموقعة بين مصر وبعض الدول الأوروبية مثل جمهورية البندقية في عهد سلطنة المماليك ، وقد تم إبرام الكثير من المعاهدات والاتفاقيات الجديدة بين السلطان العثماني وفرنسا مثلا لتسهيل حركة التبادل التجاري وحرية التجارة بل وتخفيض رسومها ، وقد أدت تلك السياسة من تحقيق الكثير من النفع والانتعاش الاقتصادي الذي كان ركوده سببا في تدهور الحالة الاقتصادية لسلطنة المماليك.

ويقول د.حمدان (لكن القناع الديني الوهمي الذي خدع العالم العربي في البداية لم يلبث بعد قليل أن تمزق فكان رد الفعل القومي عنيفا في النهاية)[٣٠].

ثم يستدرك بقوله (لقد كان الاستعمار التركي يقوم على نوع من التفرقة العنصرية بين التركية أو الطورانية (الجنس السيد) من ناحية والعرب أو الفلاحين كجنس محكوم- ولا نقول حتى كمواطن من الدرجة الثانية – في الناحية الأخرى)[٣١].

ويقول (أما دينيا فقد قامت الإمبراطورية الدينية التركية على سياسة طائفية عاجزة ضيقة الأفق هي سياسة الملة التي تفاقمت خاصة في أخريات الإمبراطورية وقد نشأت سياسة الملة نتيجة لقصر نظر الاستعمار التركي من ناحية وضعفه وعجزه أمام ضغط القوى الأوروبية من ناحية أخرى فرغبة في سياسة فرق تسد حدد الأتراك مسئولية الأقليات الدينية في زعاماتها وقياداتها الطائفية فبدأت من هنا تتبلور شخصياتها داخل جسم الدولة)[٣٢].

وهكذا نرى ذلك التحامل الشديد القائم على غير أسس تاريخية ، وهي أقاويل مفتراة على الدولة العثمانية بشهادة المؤرخين الغربيين ولا نقول المؤرخين المسلمين.

أولا : إن الدولة العثمانية لم تقم أبدا بالتفرقة العنصرية بين أية أجناس داخل الإمبراطورية خاصة الجنس العربي ، وخير دليل على ذلك ما هم به السلطان سليم الأول الذي بلغت عنده القومية الإسلامية مداها حتى انه حاول أن يجعل اللغة العربية هي اللغة الإسلامية واللغة القومية المعتمدة للأتراك أنفسهم[٣٣] أي تعريب الدولة بالكامل

ولم يمنعه من تحقيق هذا المشروع إلا المفتي الذي كان لـه نفـوذ كبير على السلطان العثماني نفسه.

بل إن القول أن الجنس التركي كان الجنس السيد للإمبراطورية فهو من أكبر الأقاويل جحودا وظلما. يقول روبير منتران (قد كتب بوسـبيك الذي أقر أن بوسع ابن صياد سمك أو فلاح أو راع أن يصـبح صـدرا أعظما استنادا إلي قدراته وحدها ، إن من يتمتـع بالشـرف الأول بـين الأتراك بعد السيد الأكبر هو الذي لا يعرف أصله ولا أصل أبيه وأمـه ، كما أردف وهكذا فان كل إنسان يثاب بحسب جدارته والمناصب يشـغلها رجال قادرين على شغلها)(٣٤).

ويدلنا الإحصاء الذي أورده جلزر على أن الصدور العظام الذين تعاقبوا على الحكم خلال ازدهار الإمبراطورية (١٤٥٣-١٦٢٣م) كـانوا ثمانية وأربعين ، خمسة منهم فقط يجري في عروقهم الدم التركـي أمـا الباقون فكانوا : (إحدى عشر ألبانيا ، إحدى عشر صقليا ، ستة يونانيين ، واحد جركسي ، واحد ايطالي ، واحد أرميني ، واحـد مـن جورجيـا ، عشرة من أصول غير معروفة)(٣٥).

أما قول د.حمدان أن الدولة العثمانية قامت على أسس طائفيـة ، ونعت سياسة الملة بأنها ضيقة الأفق ، فهذا أبعد ما يكون عن الصـحة ، ولو حدث هذا لما استطاعت تلك الإمبراطورية التي ضمت بين أرجائهـا الكثير من الأعراق والملل والطوائف أن تجمع بينهم في ظـل اسـتقرار سياسي واجتماعي عدة مئات من السنين ، فان الدولة الأموية التي قامـت في صدر الإسلام مع قوتها العسكرية والسياسية والاقتصـادية الكبيـرة آنذاك لم تستطع أن تعمر كثيرا ، ذلك لأنها قد قامت بتفضـيل العنصـر العربي على باقي عناصر الدولة الإسلامية في الوظائف والقيادات ، وقد

أدى هذا في النهاية لتبني الموالي من الفرس الدعوة العباسية المناهضة للحكم الأموي والتي كانت سببا مباشرا في سقوط هذه الدولة وانهيارها.

ولم تظهر ردود الأفعال القومية داخل الإمبراطورية إلا في أواخر عهدها كرد فعل طبيعي ومباشر لمحاولة جماعة الاتحاد والترقي التي سيطرت على السلطة من فرض الهوية التركية وجعلها متميزة عن باقي الهويات في الإمبراطورية ، وهذا لم يحدث إلا بعد تنحية الدور الديني وتبني الحركة القومية التي سادت حينئذ في أوروبا وتبني مختلف شعاراتها مثل العدالة والحرية والمساواة ، وهي نفس شعارات الثورة الفرنسية التي اندلعت في أواخر القرن الثامن عشر.

ولكن قبل سيطرة جماعة الاتحاد والترقى على السلطة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني(٣٦) حتى عام ١٩٠٨م لم تجنح الإمبراطورية أبدا للتميز القومي أو العرقي بين عناصرها ، بل على العكس فقد تبنى السلطان عبد الحميد الثاني سياسة الجامعة الإسلامية لجمع شتى شعوب الإمبراطورية تحت ظل الإسلام الذي لا يفرق بين عربي وأعجمي. ولقد أثبتت السياسات القومية فشلها في نهاية المطاف بالحروب الفتاكة التي نشبت بين مختلف القوميات في أوروبا في الحربين العظميين وكادت أن تؤدي إلي هلاك البشرية ، لذلك فان وحدة الدين الذى اتخذته الإمبراطورية العثمانية شعارا لها حتى أخريات أيامها كان أساسا ودعامة رئيسية من أسباب طول عمرها وبقائها ، فهي أطول دول الإسلام عمرا.

يقول المؤرخ شارل بروكلمان :

(إذا كانت الدولة العثمانية لا تتدخل ، من حيث المبدأ في قضايا الدين ، فقد انتهت في الواقع إلي أن تصبح ملجأ للحرية الدينية بالنسبة إلي اليهود المطرودين من اسبانيا والبرتغال عند منبلج القرن السادس عشر

فما وافت سنة ١٥٩٠م على وجه التقريب ، حتى بلغ عدد سكان الحي اليهودي في استانبول نحوا من عشرين ألفا)[٣٧].

وهذه الحرية الدينية لم تشهد في وقتها مثيلا ، فأكبر دولتين حينئذ اسبانيا والبرتغال لم يدخرا جهدا في اضطهاد من ليس على ملتهم في داخل أرضهم وفي خارجها ، بل إنهم اضطهدوا من ليسوا على مذهبهم الكاثوليكي وفعلوا بهم الأفاعيل.

يقول أليكس جورافسكي في كتابه الإسلام والمسيحية : (قد ميزت السلطات العثمانية رعاياها المسيحيين في ملل مستقلة مخضعة إياهم ليس لسلطة البطاركة الروحية فحسب ولكن لسلطتهم الزمنية أيضا ، وبهذا الشكل أصبحت (المجالس الملية) وطوائفها كيانات كنسية سياسية ذات سمات وملامح متمايزة ، أي أن السلطة المدنية والشئون الاجتماعية والاقتصادية والثقافية أوكلت كليا إلي ما سمى (بالمؤسسة الدينية) أي هيئة العلماء لدى المسلمين والبطاركة والأساقفة لدى المسيحيين والحاخام الأكبر لدى اليهود وبمرور الوقت تعاظم ضغط مختلف الكنائس القومية والاثنية في الولايات والمناطق المختلفة وتنامى عدد الملل التي تدير شئونها الذاتية بصورة رسمية)[٣٨].

وهكذا فان سياسة الملة التي اتبعتها الدولة العثمانية لم تكن قصيرة النظر ، بل كانت سياسة تسامحيه إلي أبعد مدى مع الطوائف غير المسلمة في الدولة التي تضاعفت بشكل ملحوظ في ظل هذه السياسة حتى أصبحت عبئا على كاهل الدولة في القرن التاسع عشر مع ضعف الهيكل الإداري للدولة.

وأخيرا يتطرق الدكتور/ حمدان إلي أكثر المواضيع أهمية بالنسبة للسيطرة العثمانية على العالم العربي ، وهذا الموضوع ذو أهمية خاصة لدى الكتاب الذين يتبنون الفكر القومي ، وهو أن الهيمنة العثمانية على العالم العربي هي سببا مباشرا لتخلف هذا العالم عن الركب الحضاري وعزله بل والزج به في أحضان المستعمر الأوروبي.

فيقول د.حمدان : (والواقع أن الاستعمار التركي هو الذي مهد الطريق – حضاريا وتكنلوجيا – للاستعمار الأوروبي في العالم العربي فلقد رأينا أن العالم العربي الإسلامي وقف إلي ما قبل قدوم الأتراك إزاء العالم الأوروبي المسيحي موقف الند للند في حالة زهو عسكري. ومنذ الاستعمار التركي فقط بدأ الافتراق بين المستوى الحضاري والفني للغرب والعرب : الغرب إلي أعلى والعرب إلي أسفل . كان الاستعمار التركي نقطة الانعكاس في المنحنى الحضاري وخط المستقيم بين تقدم الغرب وتخلف العرب)[٣٩].

لو أن الهيمنه العثمانية هي سبب تخلف العالم العربي عن ركب الحضارة والتقدم ، فهل كانت الدولة العثمانية تسيطر على باقي أجزاء العالم الإسلامي الذي كان مستنيرا في العصر الوسيط ثم تخلف هو الآخر بدوره عن ركب الحضارة ؟ بل إن المغرب الأقصى لم يقع يوما تحت السيطرة العثمانية ، فهي الدولة العربية الوحيدة التي سلمت من تلك السيطرة بالإضافة إلي أجزاء من دولة عمان وسواحل الخليج العربي ، فلماذا لم تلحق المغرب بركب الحضارة الغربي؟

ولو سلمنا بافتراض أن الدولة العثمانية قد جثمت على روح الشرق ومنعته من التقدم والازدهار ، فلماذا تخلف أولائك عن الركب في الأندلس وخبت دولتهم بعد ذلك الازدهار؟ ولماذا ضعفت دولة المماليك

بعد قوتها حتى كادت أن تقع فريسة للاستعمار الأجنبي لولا تدخل الدولة العثمانية؟ ولماذا انقسم المغرب العربي على نفسه قبل التدخل العثماني منذ القرن الثالث عشر وأصبح فريسة سهلة للمستعمر الأجنبي فوقعت الكثير من أراضيه لقمة سائغة للأسبان والبرتغاليين؟؟؟

فهل كان إذن العالم العربي كما يقول د.حمدان قبل قدوم الأتراك يقف موقف الند للند من العالم المسيحي؟ أم انه كان في حالة من الانهيار لم يسبق لها مثيل؟ إن كل الدلائل تشير إلي أن الحضارة العربية في مجملها كانت آخذة في الانحدار قبل قدوم الأتراك العثمانيين بفترة ليست بالقصيرة.

يقول أندريه ريمون : (إن انحدار المدن العربية كان سابقا للغزو العثماني فالمدن العراقية الكبيرة لم تسترجع قواها إطلاقا بعد الكارثة التي تمثلت في الغزو المغولي ويقول المؤرخ المصري المقريزي في القرن الخامس عشر : بغداد قد تهدمت لم يعد هناك جامع ولا مؤمنون ولا سوق غالبية قنواتها قد جفت ومن الصعب تسميتها مدينة). أما عن دمشق فيقول : (ذكر سوفاجيه أن قوات تيمورلنك قد نهبت المدينة عام ١٤٠٠م ثم عانت المدينة من الأزمة الاقتصادية التي شهدتها الإمبراطورية المملوكية وأضاف بأن السلطان سليم لم يحتل في عام ١٥١٦م سوى مدينة أكثر من نصفها أطلال).

ويقول عن شمال أفريقيا : (أدى تفسخ دول المغرب الأوسط والشرقية إلي تشجيع المغامرات الاستعمارية الاسبانية والبرتغالية).

(وفيما يتعلق بتونس فان القرن الحفصي الأخير كان يمثل مأساة طويلة الأمد وقد لاقى سكان تونس أسوأ معاملة حين احتلها الأسبان عام

١٥٣٥م حيث يقول المؤرخ ابن دينار أنه تم قتل نصف السكان وإخضاع ثلث آخر للعبودية).

ويستدرك بقوله : (ولا شك أن إمبراطورية قوية وموحدة مكان مجموعة دول تلهث من الإرهاق كان مفيدا للمدن التي ظلت تعاني منذ قرون من الزمان من آثار التدهور السياسي وفي الواقع انه من المنطقي أن يكون هذا هو ما حدث)[٤٠].

أما بالنسبة لمصر وعاصمتها القاهرة فقد أصابها التدهور الاقتصادي والاجتماعي على أثر تحول طريق التجارة العالمية عنها الي طريق رأس الرجاء الصالح فى أواخر القرن الخامس عشر ، وهذا ينطبق على بعض مدن الشام والحجاز التي تقع على نفس هذا الطريق ، فقد أدى انقطاع العوائد الجمركية عنها إلي تدهورها بشكل سريع اقتصاديا واجتماعيا فلم تعد القاهرة وموانئ مصر والشام المطلة على البحر المتوسط والبحر الأحمر كما كانت منذ قرن من الزمان.

وهكذا رأينا أن العالم العربي لم يقف أبدا قبل قدوم الأتراك موقف الند للند من العالم المسيحي بل كان على شفا الانهيار والوقوع في براثن الاحتلال الصليبي لولا السيطرة العثمانية التي أدت إلي حمايته من الأخطار الخارجية ، بل وإنقاذه اقتصاديا أيضا.

يقول أندريه ريمون : (أدى الغزو العثماني إلي دمج الدول العربية داخل مجموعة موحدة متسعة للغاية امتدت من حدود المغرب إلي الحدود الإيرانية ومن الحدود الروسية إلي اليمن ، وكانت الإمبراطورية العثمانية بفضل اتساعها ووجودها على ثلاثة أرباع محيط البحر المتوسط هى أكبر بنيان سياسي عرفه الغرب منذ نهاية الإمبراطورية الرومانية وكان يمكن لكل مواطن تابع للسلطان أن يتجول من الدانوب حتى المحيط

الهندي ومن بلاد العرب حتى المغرب وهو خاضع لنفس القوانين ونفس التنظيم الإداري وأن يتحدث بنفس اللغة ويستخدم نفس النقود وهي ظروف مواتية لحركة تبادل داخلية واسعة النطاق ، هذه السهولة في انتقال الأفراد والأموال اقتضت في الواقع تنمية التجارة الداخلية إلي حد كبير بين مجموعة دول متفاوتة للغاية وتمر عبرها منتجات شديدة التنوع وتمثل عنصرا فعالا في التجارة الدولية وفي نطاق هذا النشاط التجاري الواسع ازدادت حيوية العمليات الجارية داخليا إلي حد كبير بفضل ضخامة سوق الإنتاج والاستهلاك داخل الإمبراطورية وظلت هذه العمليات محتفظة بأهميتها الكبيرة في نهاية القرن التاسع عشر)[٤١].

ويقول : (أدى السوق الداخلي الضخم الذي تكون نتيجة لإنشاء الإمبراطورية إلي حدوث نشاط ورفاهية في المراكز التجارية الكبيرة وخاصة في الحواضر العربية وقد أدى هذا النشاط التجاري والرفاهية التي حققها إلي تنمية جهاز اقتصادي يمكن دراسته بالأرقام)[٤٢].

الأثر الاستراتيجي للسيطرة العثمانية على العالم العربي من الناحية الشرقية :

وهكذا بعد تفنيد هذه الآراء استطعنا معرفة أهمية السيطرة العثمانية على العالم العربي ، وأن هذه السيطرة لم تعمل على انحداره وتخلفه بأكثر من العمل على تدعيمه وحمايته هذا إلي جانب الارتقاء به اقتصاديا والعمل على استقراره سياسيا واجتماعيا.

ولنا بعد ذلك أن نلقي نظرة على بعض جهود العثمانيين في حماية العالم العربي من الناحية الشرقية وأثر الدور العثماني على هذه المنطقة ، لما له من علاقات مترابطة وتأثير مباشر على المنطقة الغربية من البحر المتوسط وسياسة الدولة العثمانية في بلدان المغرب العربي.

كان الخطر الشيعي كما ذكرنا آنفا أحد العوامل الرئيسة التي غيرت الوجهة العسكرية للدولة العثمانية وجعلتها تتجه نحو الشرق ، وقد بدا أن هذا الخطر هو الآخر – كقوة ناشئة شرقي العالم الإسلامي – يريد السيطرة والتوسع ومنافسة الدولة العثمانية عسكريا واقتصاديا باعتبار الدولة الصفوية[٤٣] زعيمة العالم الإسلامي الشيعي.

وقد عمل العثمانيون على التصدي للصفويين ومذهبهم الشيعي الذي لم يشكل تهديدا سياسيا فقط للدولة العثمانية ، بل لأن الدعوة الصفوية الشيعية كانت تشكل تحديا أساسيا للمبادئ السنية التي كانت توجه الأسرات الإسلامية الحاكمة الكلاسيكية منذ عهد العباسيين[٤٤].

وقد ازداد الأمر سوءا في خلال شتاء عام (١٥٠٨- ١٥٠٩م) حيث استولى إسماعيل الصفوي على بغداد ومعظم جنوب غربي إيران وأجرى مذابح واسعة النطاق ضد السنة ودمر مزاراتهم ومساجدهم[٤٥].

ولكن رد السلطان بايزيد الثاني[٤٦] سلطان العثمانيين يومئذ لم يكن أكثر من حث إسماعيل على التوقف عن القيام بمثل هذه الإجراءات وطلب المساعدة من مماليك مصر ، فهذه المسالمة والموادعة التي كان يتحلى بها السلطان بايزيد تجاه الشيعة هى المسئولة عن تولي ابنه السلطان سليم العرش ، فقد ناصره الانكشارية وأرغموا والده على التنازل ورشحوا سليم باعتباره منقذا للإمبراطورية من الخطر الشيعي ، وكان هذا من أسباب توقف الفتوحات في أوروبا بعض الوقت ، ولذلك عمل السلطان سليم على تجديد الاتفاقيات المعقودة مع البندقية والمجر بوجه خاص ليؤمن الجبهة الأوروبية ، ويولي وجهه بعد ذلك شطر المشرق لمواجهة الشاه إسماعيل ، وقد وقعت المعركة الفاصلة بين الفريقين في سهول جالديران عام ١٥١٤م والتي انتصر فيها السلطان سليم الأول ، وعلى اثر

هذا الانتصار ضم سليم إلي ملكه الكثير من الأراضي الواقعة شرقي الأناضول لحماية أراضيه من المد الشيعي ، فقد ضم إليه ولايتي ديار بكر وكردستان واحتل تبريز(٤٧) ولكنه قرر إخلائها بعد ذلك.

حقيقة أن السلطان سليم استطاع على أثر موقعة جالديران أن يحتل مناطق واسعة في الشرق إلا انه لم ينجح في القضاء على الصفويين قضاء مبرما ، لذلك فقد كانت سياسته بعد ذلك في تحالفاته وحروبه كانت رامية إلي دحر الصفويين وتقويض نفوذهم والعمل على الحد بقدر الإمكان من تدخلاتهم في البلاد السنية.

وكانت دولة المماليك التي تسيطر على كل من الشام ومصر من العوائق الكبيرة في حربه ضد الشيعة ومنعهم من بسط نفوذهم على الأراضي العربية. وقد ازدادت رغبة السلطان سليم في القضاء على دولة المماليك والسيطرة على مصر والشام لما رآه من ضعف المماليك الاقتصادي مما أدى بدوره إلي ضعفهم العسكري الذي من شأنه أن يسهل سيطرة الصفويين على مصر والشام.

وقد ذكرت المصادر أن الصفويين كانوا يبيتون النية فعلا لغزو مصر ، فيقول ابن اياس في حوادث عام ٩١٦ للهجرة الموافقة لعام ١٥١٠م :

(وفيه جاءت الأخبار من نائب البيرة بأنه قبض على جماعة من عند إسماعيل الصفوي وعلى أيديهم كتب من عند الصفوي إلي بعض ملوك الفرنج بأن يكونوا معه عونه على سلطان مصر ، وأنهم يجيئون إلي مصر من البحر ويجئ هو من البر ، فقبض نائب البيرة عليهم وبعث بهم إلي السلطان)(٤٨).

ويقول أيضا في حوادث عام ٩١٨هـ/١٥١٢م : (وفي يوم الخميس أرسل نائب سيس إلي السلطان عشرة رؤوس وعليهم طراطير حمرا وزعموا أنهم من عسكر الصفوي كانوا يفسدون في البلاد ، فقبض عليهم نائب سيس وجز رؤوسهم في القاهرة ثم علقهم على باب النصر وباب الفتوح ، وقد قويتِ الإشاعات بأن الصفوي متحرك على البلاد ، وأن قاصده واصل إلي السلطان)(٤٩).

ولقد أدى هذا الضعف العسكري الذي آلت اليه سلطنة المماليك بإغراء القوى الصليبية وخاصة البرتغال بمهاجمة القواعد والموانئ الإسلامية في خليج عدن والبحر الأحمر والمحيط الهندي ، وقطع الطرق على السفن الإسلامية التجارية المحملة بالبضائع ومنع التجار من نقل التجارة عبر الطريق البحري القديم.

فقد استطاع (فاسكوداجاما) المستكشف البرتغالي من الوصول إلي الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وبدأ في الإفساد في البحار الشرقية كما تقدم ، فقد قام أثناء رحلته الثانية عام ١٥٠٢م بتكليف أحد قادته بالإقامة على رأس خمس سفن حربية عند مدخل البحر الأحمر لمهاجمة السفن الإسلامية ولمنع السفن المختلفة من المتاجرة أثناء إبحارها في المحيط الهندي إلا بتصريح خاص من قبل البرتغاليين ، ولم يكتف البرتغاليون بذلك بل أنهم هددوا جدة سنة ١٥٠٥م وتمكن بعض جواسيسهم من التسلل إلي مكة نفسها ، وقد تركز نشاط البرتغاليين في تلك الفترة في تثبيت أقدامهم على سواحل المحيط الهندي وفي مهاجمة السفن والمراكز العربية الإسلامية في مياه الخليج العربي والبحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندي بوجه عام(٥٠).

وقد ذكر ابن اياس في حولياته عدة مرات في أحداث سنوات متفاوتة أخبارا عن عبث الفرنج الدائم في البحار الشرقية وإرسال سلاطين المماليك العديد من الحملات لإنقاذ هذه المناطق وإنقاذ طريق التجارة التقليدي ، ولكنهم فشلوا في ذلك مع ضعف إمكاناتهم الاقتصادية وقوة الأسطول البرتغالي الناشئ.

فيقول ابن اياس في حوادث عام ٩١١هـ/١٥٠٥م : (وفيه حضر مبشر الحاج وأخبر أن الفرنج كثر عبثهم ببحر الهند ، وأن حسين باشا العسكر المتوجه إلي هناك يشرع في بناء أبراج على ساحل جدة وصور ، وقد جهز المراكب للخروج إلي عدن ، لكن تزايد الضرر من الفرنج فيما بعد وترادفت مراكب الفرنج ببحر الحجاز ، فقد بلغوا فوق عشرين مركبا وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند ، ويقطعون عليهم الطريق في الأماكن المخيفة ويأخذون ما معهم من البضائع ، حتى عز وجود الشاشات ، والأرز من مصر وغيرها من البلاد)(٥١).

ولقد قامت الدولة العثمانية بالعديد من المرات بإرسال المساعدات الحربية لمؤازرة المماليك في حربهم ضد البرتغاليين وصدهم عن المناطق الإسلامية ، فيقول ابن اياس في حوادث عام ٩١٦/١٥١٠م : (وفيه حضر يونس العادل وكان السلطان أرسله إلي بلاد ابن عثمان ليشتري له خشبا وحديدا وبارودا ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد المال الذي كان مع يونس العادلي وقال له أنا أجهز من عندي زردخاناه للسلطان)(٥٢).

وهكذا فان الدوافع التي دفعت الدولة العثمانية للولوج إلي منطقة الشرق الأوسط وخاصة مصر والشام والسيطرة على هذه المنطقة لم تكن

بالدوافع الهينة ، فقد كانت مسألة مصيرية بالنسبة للإسلام والمسلمين ، فكانت بحق أعظم خدمة أسدتها الدولة العثمانية للإسلام أنها وقفت في وجه الزحف الصليبي البرتغالي على البحر الأحمر والأماكن المقدسة الإسلامية ، وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية قد أخفقت في طرد الاستعمار البرتغالي تماما من مراكزه في المحيط الهندي ومنطقة الخليج العربي إلا أنها نجحت في منع تغلغله في الحجاز حيث كان البرتغاليون يعتزمون تنفيذ مخطط صليبي مسرف في وحشيته وهو دخول البحر الأحمر واجتياح إقليم الحجاز باحتلال ميناء جدة ثم الزحف على مكة المكرمة واقتحام المسجد الحرام وهدم الكعبة المشرفة ثم موالاة الزحف على المدينة المنورة لنبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم استئناف الزحف إلي تبوك ومنها إلي بيت المقدس والاستيلاء على المسجد الأقصى(٥٣).

ولقد دفعت كل هذه العوامل كما تقدم السلطان سليم الأول للإسراع بالتوجه نحو الشرق والسيطرة على مصر والشام النواة الحقيقية التي استطاعت من خلالها الدولة العثمانية السيطرة على معظم العالم العربي سواء الأجزاء الشرقية أو بلدان المغرب العربي.

ولقد تلا سقوط مصر في أيدي العثمانيين عام٩٢٣هـ/ ١٥١٧م امتداد سيادتهم إلي الحجاز امتدادا سليما ، فالحجاز لم تكن ترتبط بدولة معينة في مصر ، بل كانت ترتبط بمصر ذاتها بصرف النظر عن الحكومة أو الدولة القائمة فيها(٥٤).

فلقد أرسل شريف مكة مفاتيح الكعبة المشرفة إلي السلطان سليم وبايعه وأعلن تبعيته، ومنذ ذلك الوقت لقب السلكان العثماني بخادم الحرمين الشريفين ، هذا إلي جانب أن السلطان سليم هو أول من تلقب

بأمير المؤمنين من سلاطين بني عثمان ، ويرجع هذا إلـــي أن الخلافــة العباسية قد انتقلت بعد سقوطها فــي بغــداد علـــى يــد المغــول عــام ٦٥٦هــ/١٢٥٨م إلي مصر في عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ولكن لم تكن إلا خلافة اسمية ذات سلطة روحية وأما الســلطة الفعليــة (الزمنية) فكانت في يد سلاطين المماليك ، ولذلك فان الخليفة كان يقبع في حماية سلاطين القاهرة ، فلما سقطت الدولة المملوكية أصبحت السلطتين الزمنية والروحية في يد سلطان العثمانيين فتلقب بخليفة المسلمين وأميــر المؤمنين.

وقد اختلف المؤرخون على كيفية انتقال السلطة الروحية من آخر خلفاء العباسيين المتوكل إلي السلطان سليم ، ولكن أيا ما كان الأمر فــان السلطان سليم الأول لم يكن بحاجة إلي لقب الخلافة الذي أصبح لقبا شرفيا منذ سقوط الخلافة في بغداد ، ولأن السلطان العثماني في ذلــك الوقــت كانت دولته حامية للحرمين الشريفين بالإضافة إلي أنها حامية للإسلام بعد سقوط معظم دول الشرق تحت تبعيتها وتصديها لكل من حاول النيل مــن الإسلام والمسلمين ، وهكذا فان السلطان العثماني بصفته ســلطان أكبــر دولة إسلامية فمن المنطقي أن يكون هو خليفة المسلمين وزعيمهم الأكبر القائم على أمرهم.

وكان دخول سليم الأول لمصر والشام دخول الفــاتحين ولــيس دخول الغزاة المحتلين ، فقد استقبله أهلها بالفرح والسرور والاستبشار ، كما ذكر ابن اياس في كتابه ، وكان أملهم هو إبطال المظالم التي كانــت على أيام الغوري الذي بغى وزادت مظالمه ، فيقول ابن ايــاس : (انــه حدث في أيام دولته من أنواع المظالم ما لم يحدث في سائر الــدول مــن قبله)(٥٥).

ويقول الجبرتي : (ولم يزل حتى تملك السلطان سليم الديار المصرية والبلاد الشامية وعادت مصر إلي النيابة كما كانت في صدر الإسلام ولما خلص له أمر مصر عفا عمن بقى من الجراكسة وأبنائهم ولم يتعرض لأوقاف السلاطين المصرية بل قرر مرتبات الأوقاف والخيرات والعلوفات وغلال الحرمين ورتب للأيتام والمشايخ والمقعدين ومصارف القلاع والمرابطين وأبطل المظالم والمكوس والمعلوم ثم رجع الي بلاده وأخذ الخليفة العباسي)[٥٦].

وبعد أن استتب الأمر للسلطان سليم في مصر والحجاز، أصبح البحر الأحمر ذو بعد استراتيجي هام فلابد من السيطرة على كافة مراكزه وغلقه أمام البرتغاليين ومن ثم جعله نقطة انطلاق لوقف التوسع البرتغالي في مياه المحيط الهندى ووقف إعاقتهم للملاحة الإسلامية من والي الهند ، ولذلك كانت الخطوة التالية هى إخضاع اليمن وخاصة عدن التي تشرف على مضيق باب المندب الهام الذي يتحكم في دخول وخروج السفن من والي البحر الأحمر ، ولقد سقطت عدن بالفعل في يد العثمانيين في عهد السلطان سليمان القانوني عام ١٥٣٨م ومنذ ذلك الوقت فصاعدا حلت عدن ذات الموقع الاستراتيجي الهام محل جدة بالحجاز كخط دفاعي أمامي وقاعدة بحرية متقدمة ضد البرتغاليين[٥٧].

ويذكر أن البرتغاليين أثناء كشوفهم الجغرافية للساحل الإفريقي الشرقي استطاعوا انتزاع المشيخات الإسلامية القائمة على الساحل من سوفالا جنوبا حتى مقديشيو شمالا وهى عاصمة الصومال الحالية[٥٨].

ولكن بعد السيطرة على عدن رأى العثمانيون ضرورة إبعاد البرتغاليين عن سواحل البحر الأحمر الغربية ، وتحرير الجزء الشرقي من الساحل الإفريقي وخاصة القريبة من البحر الأحمر مما يساعد على

حمايته ، هذا بالإضافة إلي أن الاحتلال العثماني لميناء مصوع[٥٩] من شأنه قطع الاتصال بين الحبشة والهند البرتغالية[٦٠] وبالفعل استطاع سنان باشا تخليص المنطقة بالكامل من البرتغاليين عام ١٥٣٨م وأصبحت مصوع وسواكن وما حولهما ولاية عثمانية سميت بولاية الحبش.

ولقد أدى استيلاء البرتغاليين على هرمز إلى إغلاق الخليج العربي والي سيطرتهم على مصايد اللؤلؤ في الخليج وعلى تجارة الخيول الفارسية والعربية التي كانت ترسل من هرمز إلي بلاد الهند[٦١] ، هذا بالإضافة إلي تقويض العالم الإسلامي من الناحية الشرقية بشكل كامل.

ولقد تخلت الدولة الصفوية عن مساعدة سكان المناطق التي وصل إليها الغزو البرتغالي من هذه الناحية ، فتركت مدن الخليج العربي تواجه مصيرها بنفسها وزادت على ذلك أن تحالفت الدولة الصفوية مع البرتغاليين ، فنجد البوكيرك القائد البرتغالي يستغل هذا الموقف ويرسل عام ١٥٠٩م برسالة إلي الصفوي جاء فيها :

(إني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك ، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد الترك في الهند ، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب وأن تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو في قطيف أو في البصرة وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له كل ما يريد)[٦٢].

وهكذا وجد العثمانيون أنفسهم مطوقين من قبل هذا التحالف الذي يمثل خطرا كما رأينا في الرسالة على المناطق العربية السنية بالاضافة الي الأماكن المقدسة الحجازية ، هذا بجانب خطره على التجارة بوجه عام في هذه المنطقة ، ولذلك حاول العثمانيون إيجاد منفذ لهم على الخليج

العربي ليكون قاعدة انطلاق لمجابهة البرتغاليين في هذه المناطق وتطويقها.

واستطاع العثمانيون بالفعل بعد احتلالهم العراق واستردادها من الصفويين احتلال البصرة والسيطرة على منطقة شط العرب ثم القطيف عام ١٥٥٠م ، ثم مدوا نفوذهم إلي الاحساء التي احتلوها عام ١٥٥٥م وجعلت الاحساء ولاية عثمانية وقاعدة أمامية للدفاع ضد البرتغاليين المتمركزين في هرمز ، وكذلك ضد الصفويين.

واشتد الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين في مياه الخليج العربي ففي عام ١٥٥٢م أبحر من السويس أسطول عثماني كبير بقيادة بيري ريس لاحتلال الطرف الشرقي من الجزيرة العربية وقطع خطوط الإمداد المحلي للبرتغاليين ، واحتلت الحملة مسقط ثم أبحرت إلي هرمز وضربت الحصار على قلعتها لمدة شهر ، ثم انسحبت لوصول إمدادات برتغالية كبيرة ، وتلا ذلك أن كلف السلطان سليمان عام ١٥٥٣م قائدا بحريا جديدا هو مراد بك بالتوجه إلي العراق للخروج بقطع الأسطول العثماني المحصورة في البصرة ، ونزل مراد بالبصرة وبعد أن أبحر بأسطوله خاض معركة غير حاسمة مع البرتغاليين بالقرب من الساحل الفارسي ، فاضطر للعودة إلي البصرة مرة أخرى(٦٣).

ودامت بعد ذلك المناوشات العثمانية البرتغالية في الخليج ولم تسفر هذه المناوشات عن أية معارك حاسمة . والجدير بالذكر أن العثمانيين لم يعملوا على مقاومة التغلغل البرتغالي في الأراضي العربية والمحيط الهندي بالطرق العسكرية وحدها بل حاولوا إقامة تحالفات مع سلاطين الهند المسلمين وإيصال المساعدات البحرية إليهم ليتمكنوا من القضاء على النفوذ البرتغالي في الهند وجزرها الغربية.

فبادر السلطان سليمان بعقد اتفاق مع حاكمي (قاليقوط) و (كامباي) وهما الحاكمان الهنديان اللذان تأثرا من الغزو البرتغالي ، وكان ذلك الاتفاق ينص على العمل المشترك ضد البرتغاليين ، ثم أعقب ذلك الاتفاق إصداره مرسوما إلي سليمان باشا الخادم والي مصر يأمره فيه بالتوجه إلي الهند ومحاربة البرتغاليين وإزالتهم من البحر(٦٤).

وقد أدرك السلطان علاء الدين سلطان الهند قوة وأهمية الأسطول العثماني في مواجهة الأساطيل الأوروبية وأهمية الاستعانة به ضد هذه الأساطيل في البحار الإسلامية ، عندئذ أرسل السلطان سليمان القانوني حملة سليمان باشا التي خرجت من السويس لمواجهة البرتغاليين ومنعهم من التوغل في البحر الأحمر ، ومن ثم التوجه إلي المحيط الهندي لإغاثة سلطان الهند(٦٥).

ولما وصلت تلك الحملة إلي ديو ولم تتمكن من الاستيلاء عليها حاولت مرة أخرى الاستيلاء على القلاع الأمامية ، ولكن وصلت إمدادات للجيش البرتغالي ولولاها لاستسلمت جميع القلاع.

ويرجع سبب تفوق البرتغاليين الدائم في الهند إلي مساعدة الهندوس الذين انحازوا للبرتغاليين لكي يضعفوا من قوة السلاطين الهنود المسلمين ، ففي ذلك الحين وحد العداء للإسلام بين الإمبراطورية الهندوكية والسلطات البرتغالية ، وهو الأمر الذي يفسر بقاء البرتغاليين بجاوة بقوة عسكرية لا تنكر(٦٦).

ومع هذا فقد استطاع العثمانيون بحملاتهم المستمرة على تلك المناطق وسيطرتهم على المناطق الإستراتيجية في شرق أفريقيا والبحر الأحمر وجنوب الجزيرة العربية الحد من عبث البرتغاليين في تلك

المناطق وخاصة منطقة البحر الأحمر حيث دأبوا في السنوات الأخيرة على مهاجمة قواعده الهامة .

هذا بالإضافة إلي محاولة الدولة العثمانية إعادة التجارة إلي سابق عهدها لإنعاش الاقتصاد الذي ضعف في المنطقة العربية بسبب تحول طريق التجارة إلي رأس الرجاء الصالح ، وكانت لهم في هذا الشأن مجهودان كبيرة.

ففي عهد السلطان سليمان القانوني خطت الدولة العثمانية خطوات هامة في سياسة الانفتاح تجاريا مع عدد من الدول الأوروبية لتنشيط الحركة التجارية ، إذ عقد السلطان سليمان مع فرنسوا الأول ملك فرنسا معاهدة عام ١٥٢٨م جددت فيها الدولة العثمانية تلك الامتيازات التي سبق وأن منحها سلاطين المماليك للفرنسيين وكانت المعاهدات الجديدة تكفل لتجار فرنسا ورعاياها الأمن والطمأنينة على أموالهم ومتاجرهم في أثناء تواجدهم في ممتلكات الدولة بل إنها تنظم إقامتهم في أحياء خاصة مع عدم المساس بكنائسهم وعدم فرض ضرائب عقارية عليهم[٦٧].

وقد استمرت الدولة العثمانية في عقد المعاهدات التجارية بين فرنسا و انجلترا وغيرهما من دول أوروبا التجارية مثل البندقية لتشجيع رعايا تلك الدول على تكثيف نشاطهم التجاري والاقتصادي في أراضي الدولة العثمانية ، حتى تعود الحركة التجارية بقدر الإمكان إلي نشاطها المعهود قبيل تحول طريق التجارة إلي رأس الرجاء الصالح.

ولا شك أن هذه المعاهدات تعد أبلغ رد على الفردية التي يرددها بعض المؤرخين والباحثين المتحاملين على الدولة العثمانية والذين يدعون أنها فرضت علي ولاياتها العربية العزلة عن أوروبا مما أدى إلي تخلف العالم العربي.

وهكذا ناقشنا في هذا الفصل بقدر الإمكان الدور الهام الذي لعبته الدولة العثمانية في حماية العالم العربي والإسلامي من الناحية الشرقية ، وتنامي دورها الاستراتيجي شرقي البحر المتوسط والذي حافظ على وحدة العالم العربي وحمايته ، والذي سيؤدي كما سنرى لاحقا إلي حمايته أيضا من الناحية الغربية واتصال جناحيه الشرقي والغربي تحت سلطة قوية وموحدة.

هوامش الفصل الأول

١- أحمد فؤاد متولي ، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها وحتى العصر الذهبي ، ايتراك للنشر والتزيع ، سنة ٢٠٠٥م ، ص٢٢.

٢- وقد حدث ذلك في معركة عين جالوت بقيادة سيف الدين قطز عام ١٢٦٠/٦٥٨م ، وكانت من المعارك الفاصلة في التاريخ فقد تشتت جمع المغول البربري وأسلم الكثير منهم.

٣- عمر عبد العزيز ، تاريخ المشرق العربي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٨م ، ص٣٦.

٤- محمد فؤاد كوبرلي ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، سنة ١٩٦٧م ، ص٤.

٥- هو أرطغرل بن سليمان شاه التركماني قائد احدى القبائل التركية النازحة من سهول آسيا الغربية إلي بلاد آسيا الصغرى وهو والد السلطان عثمان المؤسس الفعلي للدولة العثمانية ، وقد توفى أرطغرل عام ١٢٨٨م.

٦- هو عثمان بن أرطغرل ولد عام ١٢٥٨/٦٥٦م ، وهو أول سلاطين آل عثمان واليه تنسب الدولة العثمانية ، تولى الحكم بعد وفاة أبيه عام ٦٨٧ للهجرة بتأييد من الأمير علاء الدين السلجوقي الذي قام بمنحه أي أراضي يقوم بفتحها وسمح له بضرب العملة واتخاذ مدينة (اسكي شهر) في الأناضول قاعدة له ، ولقب نفسه باديشاه آل عثمان ، توفى عام ١٣٢٦/٧٢٤م.

٧- ياسر أحمد حسن ، تركيا : البحث عن المستقبل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٦م ، ص١٥.

٨- أحمد آق كوندوز ، الدولة العثمانية المجهولة ، وقف البحوث العثمانية سنة ٢٠٠٨م ، ص٤٦.

٩- المرجع السابق ، ص٥١.

١٠- المرجع السابق ، ص٥٠ ، ٥١.

١١- المرجع السابق ، ص٥٠ ، ٥١.

١٢- المرجع السابق ، أحمد فؤاد متولي ، الدولة العثمانية منذ نشأتها الخ ، ص٤٨ : ٥٠.

١٣- المرجع السابق ، أحمد آق كوندوز ، الدولة العثمانية المجهولة ، ص٥٣ ، ٥٤.

١٤- روبير مانتران ، تاريخ الدولة العثمانية ، الجزء الأول ، ترجمة بشير السباعي ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، عام ١٩٩٣م ، ص٢٠٢.

١٥- المرجع السابق ، أحمد فؤاد متولي ، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها الخ ، ص٤٨ ، ٤٨.

١٦- تيمورلنك : ولد عام ١٣٣٦/٧٣٦م جنوبي سمرقند في أوزباكستان الحالية ، وهو من سلالة جانكيزخان المغولي إلا انه كان مسلما ، حاول تيمورلنك إعادة مجد دولة المغول وبدأ التوسع من سمرقند بعد أن قهر حاكمها وأعلن نفسه حاكما عليها عام ١٣٧٠م فنجح في الاستيلاء على خوارزم عام ١٣٧٩م ثم خراسان عام ١٣٨٠م ، وباكستان وأفغانستان ، ثم انطلق لفتح أذربيجان واستولى على إقليم فارس ثم أصفهان التي بلغ بها عدد القتلى من جراء غزوه إلى ٧٠ ألفا ، وبعد إخضاعه فارس وإيران اتجه إلي العراق فخربها وواصل سيره فخرب ديار بكر وبلاد أرمينية وجورجيا ، ثم اتجه

بعدها إلي الشرق مرة أخرى فاحتل دلهى وخربها ودمرهـا عـن آخرها ، ثم رجع إلي سمرقند التي لم يمكث فيها طويلا فعاد مـرة أخرى لمواصلة غزوه فدمر حلب ودخل دمشـق وأحرقهـا حتـى أصبحت أطلالا ، ثم اتجه إلي طرابلس وبعلبك ودمرهما ، ثم اتجه الي بغداد فدمرها عن آخرها وقتل بها ما يزيد عن مائة ألف إنسان ، ثم استعد لملاقاة الدولة العثمانية حيث هزم السلطان بايزيد الأول (يلدرم) هزيمة ساحقة في موقعة أنقرة عام ١٤٠٢م فوقعـت مـن جراء ذلك أملاك الدولة العثمانية بين يديه وما لبث أن مـات بعـد ذلك بقليل أثناء غزوه للصين عام ١٤٠٥م بعد أن دانت له الـبلاد من دلهى إلي دمشق ، بعد مماته ذهبت إمبراطوريته التـي بناهـا على القتل والتدمير أدراج الرياح ، وقسم ما بقي منها بين أولاده .

١٧- القسطنطينية : كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية خلال الفترة من ٣٣٠م إلي ٣٩٥م ، وعاصمة الدولة البيزنطية إلي عام ١٤٥٣م وعاصمة الدولة العثمانية بعد أن فتحها محمـد الثـاني السـلطان العثماني عام ١٤٥٣م وحتى عام ١٩٢٤م ، أطلق عليها العديد من الأسماء من بينها بيزنطة وإسلام بول أي مدينة الإسلام .

١٨- عبد العزيز الطنطاوي القرموطي ، العلاقات المصرية العثمانيـة ، الزهراء للإعلام العربـي ، الطبعـة الأولـى ، عـام ١٩٩٥م ، ص٥٩ ، ٦٠.

١٩- ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، طبعة مطابع الشـعب عام ١٩٦٠م ، ص٢٥.

٢٠- هو السلطان سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح ، ولد عام ١٤٧٠م ، هو أول من تلقب بأمير المؤمنين من خلفاء آل عثمـان

وقد تلقب بياوز أي المهول أو العظيم ، حكم ثمان سنوات حتى وفاته عام ١٥٢٠م ، كان من أعظم سلاطين آل عثمان وأشدهم تأثيرا رغم قصر مدة حكمه ، فتحت في عهده مصر والشام والحجاز وأجزاء كبيرة من أراضي الدولة الصفوية.

٢١- هو السلطان سليمان بن سليم الأول الملقب بالقانوني ، لقب في الغرب بسليمان العظيم ، يعده المؤرخون أعظم سلاطين آل عثمان قاطبة ، ولد عام ١٤٩٥م وحكم مدة ٤٨ عاما منذ ١٥٢٠حتى عام ١٥٦٦م ، زادت مساحة الدولة في عهده أكثر من الضعف حيث فتح شمال إفريقيا ونصف دولة المجر في أوروبا وفتح بلجراد وحاصر فيينا ، كان معروفا بورعه وعدله ، وروي أن كل كتاباته تبدأ بالآية الكريمة (انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم) (انظر : محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية).

٢٢- بلجراد : هي مدينة تقع في شرق أوروبا ، وهي عاصمة الصرب وأكبر مدنها ، يعود تأسيسها إلي القرن الثالث قبل الميلاد قبل أن تصبح مستعمرة رومانية ، كانت عاصمة الصرب منذ عام ١٤٠٤م وعاصمة يوغسلافيا بين عامي ١٩٨١م - ٢٠٠٣م ، كانت بلجراد آخر بقعة مسيحية دانت للعثمانيين في البلقان وكان ذلك في عهد السلطان سليمان القانوني .

٢٣- إسماعيل أحمد ياغي ، العالم العربي في التاريخ الحديث ، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٧م ، ص٢٨ ، ٢٩.

٢٤- المرجع السابق ، ص٢٩.

٢٥- المرجع السابق ، ص٣٠ ، ٣١.

٢٦- المرجع السابق ، ص٣١ ، ٣٢.

٢٧- جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير في العالم العربي ، المكتبة الثقافية رقم ١٢٣ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٥ ديسمبر ١٩٦٤ ، ص١٣.

٢٨- المرجع السابق ، ص١٦.

٢٩- المرجع السابق ، ص١٦ ، ١٧.

٣٠- المرجع السابق ، ص١٣.

٣١- المرجع السابق ، ص١٤ ، ١٥.

٣٢- المرجع السابق ، ص١٥.

٣٣- المرجع السابق ، أحمد فؤاد متولي ، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها الخ ، ص١٩٨ : ٢٠٠.

٣٤- المرجع السابق ، روبير مانتران ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص٢٦١.

٣٥- أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، مكتبة النهضة العربية ، الطبعة السابعة ، ١٩٨٦م ، ص٨٤٦.

٣٦- السلطان عبد الحميد الثاني : هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين آل عثمان وآخر من امتلك السلطة الفعلية منهم ، ولد عام ١٨٤٢م وتولى الحكم عام ١٨٧٦م ، ابعد عن العرش من قبل جماعة الاتحاد والترقي عام ١٩٠٩م بتهمة الرجعية ، أقام بعدها تحت الإقامة الجبرية حتى وفاته عام ١٩١٨م ، له الكثير من المآثر منها وقوفه أمام الأطماع الصهيونية في فلسطين ودعوته للوحدة الإسلامية بين شعوب العالم الإسلامي تحت شعار (يا مسلمي العالم

اتحدوا) وقد لقيت هذه الدعوة رواجا كبيرا لولا قوى الغرب التي قامت بمناهضة تلك الدعوة ومهاجمتها.

٣٧- كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ص٤٨٩.

٣٨- اليكس جوارفسكي ، الإسلام والمسيحية ، ترجمة : خلف محمد الجراد ، سلسلة عالم المعرفة رقم ٢١٥ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت ، نوفمبر ١٩٩٦م ، ص١٨٧.

٣٩- المرجع السابق ، جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير الخ ، ص١٧.

٤٠- أندريا ريمون ، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ، ترجمة : لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع عام ١٩٩١م ، ص٣٤ ، ٣٥.

٤١- المرجع السابق ، ص٣٦ ، ٣٧.

٤٢- المرجع السابق ، ص٣٨.

٤٣- الحركة الصفوية : تنسب إلي الشيخ صفي الدين (١٢٥٢-١٣٣٤م) من أردبيل الذي كان من المتصوفة الزاهدين ، ومنذ أواسط القرن الخامس عشر انتقلت الصفوية من التأمل الصوفي إلي العقيدة الشيعية المناضلة ، وقد حصلوا على مساندة أوزون حسن الحاكم التركماني لشرقي الأناضول وفارس وقد حاول أوزون حسن بعد ذلك كبح جماحهم إلا أن إسماعيل (١٤٨٧-١٥٢٤م) الملقب بالصفوي ابن آخر الزعماء الصفويين استطاع أن يغزو إيران مصطحبا معه سبع قبائل من القزلباش مكنته من القضاء على

الأسر الحاكمة الصغيرة التي قامت على أنقاض دولة الآق قيونلو (الخروف الأبيض) والتيموريين والسيطرة على البلاد خلال عقد واحد ، وعلى حين أن الأسرة الصفوية برزت في الأصل باعتبارها زعيمة لحركة تركمانية صوفية فان التحول إلي المذهب الشيعي قد اكتمل خلال السنوات الأولى من القرن السادس عشر باعتباره جزءا من العملية التي أدت إلي انضواء جماهير إيران تحت زعامة إسماعيل الصفوي – وأصله التركماني – الذي يحظى بالاحترام والتقديس. (انظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ص٧٦).

٤٤- أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، دار الشروق ، الطبعة الثانية ، عام ٢٠٠٣ م ، ص٧٨.

٤٥- المرجع السابق ، ص٧٨.

٤٦- هو السلطان بايزيد الثاني بن محمد الفاتح ، ثامن السلاطين العثمانيين ، تقلد الحكم بعد وفاة أبيه عام ١٤٨١م ، واصل الفتوحات على الجبهة الأوروبية حيث حارب جمهورية البندقية التي انتصر عليها فاستنجدت بملك فرنسا والبابا فقامت حروب صليبية بين الطرفين ، قامت في عهده الدولة الصفوية ذات المذهب الشيعي التي قامت بمحاولات لنشر المذهب الشيعي داخل أراضي الدولة العثمانية فلم يتصد لها وكان ذلك سببا في إجباره على التنازل عن العرش من قبل الانكشارية لابنه السلطان سليم الأول عام ١٥١٢م وكانت هي نفس سنة وفاته.

٤٧- المرجع السابق ، ص٨٠ ، ٨١.

٤٨- المرجع السابق ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص٨٠٤.

٤٩- المرجع السابق ، ص٨٤٨.

٥٠- فاروق عثمان أباظة ، أثر تحول التجارة العالمية إلي رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ص٤٢ : ٤٤.

٥١- المرجع السابق ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص٧٥٣.

٥٢- المرجع السابق ، ص٨٠٧.

٥٣- عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، الجزء الثاني ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية ، عام ١٩٨٦ م ، ص٨٦٣.

٥٤- المرجع السابق ، اسماعيل أحمد ياغي ، العالم العربي في التاريخ الحديث ، ص٤٢.

٥٥- يقول ابن اياس : أن السلطان الغوري ولى مصر في مستهل شوال سنة ست وتسعمائة ، وتوفى في رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وكان الناس معه في هذه المدة في غاية الضنك وقد قلت في المعنى :

أعجبوا للأشرف الغوري الذي ... مذ تناهى ظلمه في القاهرة

زال عنه ملكه في ساعة ... خسر الدنيا إذا والآخرة

٥٦- عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجزء الأول ، المطبعة العامرة الشريفة بمصر ، عام ١٣٢٢ للهجرة ، ص٢١.

٥٧- المرجع السابق ، إسماعيل أحمد ياغي ، العالم العربي في التاريخ الحديث ، ص٥٠.

٥٨- إبراهيم على طرخان ، البرتغاليون في غرب أفريقيا ، مقال بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الخامس والعشرون – الجزء الأول ، مايو ١٩٦٣م ، ص٢٧.

٥٩-مصوع : هي إحدى مدن دولة أرتريا الحالية ، تطل على البحر الأحمر ، تعتبر من أهم موانئ شرق أفريقيا وخاصة في العصور الوسطى ، احتل البرتغاليون مصوع في مستهل القرن السادس عشر واضطهدوا سكانها واعتدوا على مقدساتهم اذ حول الأب الفاريز مسجد مصوع إلي كنيسة لمصلحة البرتغاليين ، وقد رفض أمير مصوع التعامل مع الغزاة البرتغاليين ونظرا لما تعرض له السكان المحليون من تعسف الغزاة طلب أمير مصوع من العثمانيين التدخل لتخليص المنطقة من الاحتلال البرتغالي ، فاستولى سنان باشا عليها عام ١٥٣٨ م وطرد البرتغاليين من المنطقة ومنح أمير مصوع الصلاحية على مناطق واسعة كانت تمتد من البحر الأحمر إلي تجاري عرضا ومن باب المندب الي سواكن طولا.

٦٠- المرجع السابق ، إسماعيل أحمد ياغي ، العالم العربي الخ ، ص٥١.

٦١- المرجع السابق ، عثمان أباظة ، أثر تحول التجارة الخ ، ص٤٥.

٦٢- على الصلابي الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، الطبعة الثانية ، عام ٢٠٠٤م ص ١٩٧ ، نقلا عن صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص١٧.

٦٣- المرجع السابق ، إسماعيل أحمد ياغي ، العالم العربي الخ ، ص٦٠.

٦٤- نص الرسالة : (عليك يا بك البكوات في بمصر سليمان باشا ، أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه ، بتجهيز حاجتك ، وأعداد العدة بالسويس للجهاد في سبيل الله ، حتى اذا تهيأ لك إعداد الأسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة وجمع جيش كاف فعليك أن تخرج الي الهند وتستولي وتحافظ على تلك الأجزاء ، فانك إذا قطعت الطريق وحاصرت السبل المؤدية الي مكة المكرمة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون وأزلت رايتهم من البحر) ، (انظر : المرجع السابق ، على الصلابي ، الدولة العثمانية الخ ، ص١٩٦).

٦٥- عايض بن حزام الروقي ، جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلي الحرمين الشريفين ، مقال بالمجلة التاريخية المصرية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد رقم ٤٢ عام ٢٠٠٤ م ، ص٥٥٩ ، ٥٦٠.

٦٦- عبد العظيم رمضان ، تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث ، الجزء الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، عام ١٩٩٧ م ، ص٢١٨.

٦٧- المرجع السابق ، فاروق أباظة ، أثر تحول التجارة الخ ، ص٧٠ : ٨٠.

الفصـــل الثانــي
الأوضاع السياسية للمغرب العربي قبيل السيطرة العثماني في القرن ١٦

- أحوال بلدان المغرب العربي في نهاية العصور الوسطى.
- دوافع الاستعمار الأيبيري للمغرب العربي.
- بداية استعمار البرتغال للمغرب العربي.
- بداية الاستعمار الاسباني للمغرب العربي.

الفصل الثاني

الأوضاع السياسية للمغرب العربي قبيل السيطرة العثمانية في القرن ١٦

أحوال بلدان المغرب العربي في نهاية العصور الوسطى :

لقد أوضحنا في الفصل السابق كيف كان المشرق العربي في أوضاع سياسية واقتصادية سيئة قد أدت به في النهاية ليكون مطمع من قوى خارجية شتى أرادت السيطرة عليه ، وكما استطاع البرتغاليون تهديد العالم العربي والإسلامي من الناحية الشرقية ، فقد استطاعوا بالإضافة إلي الأسبان تهديده من الناحية الغربية ، بل إن التهديد من هذه الناحية كان أشد وطأة وأكثر عنفا ووحشية وذلك بالطبع لارتباط هذا الجزء من العالم الإسلامي ارتباطا وثيقا بالعالم المسيحي حيث شبه الجزيرة الايبيرية التي سيطر عليها العرب المسلمون زهاء ثمانية قرون ، فكان العامل التاريخي بجانب العامل الجغرافي يشكلان قدرا كبيرا من الأهمية في مستقبل هذه المنطقة وتعرضها للغزوات المستمرة من قبل الصليبيين ، وخاصة بعد تفككها السياسي الكامل وانهيارها الاقتصادي قبيل السيطرة العثمانية عليها.

لقد كان المغرب العربي والأندلس تحت حكم دولة واحدة هي دولة الموحدين(١) التي تعتبر من أعظم الدول في تاريخ الإسلام ، لقد بلغت بتاريخ المغرب ذروته خلال العصور الوسطى ، وتمكنت من تحقيق وحدته وحكمه بالفعل لفترة طويلة من طرابلس إلي المحيط ومن ساحل البحر المتوسط إلي مشارف أفريقيا المدارية هذا بالإضافة إلي ملكهم في الأندلس(٢).

ولكن ما لبثت تلك الدولة أن بدأت في الانهيار بعد هزيمتها الثقيلة على يد الصليبيين في الأندلس في موقعة العقاب الشهيرة عام ١٢١٢م ،

والتي تعتبر بداية نهاية المسلمين في الأندلس وبداية التشـتت والتشـرذم للمسلمين في المغرب العربي والتناحر فيما بينهم.

فلقد أدت الهزيمة في الأندلس إلي تشجيع ملوك النصارى الـذين مضوا في الاستيلاء على الحصون الإسلامية دون مقاومة تقريبا ، خاصة عندما قام النزاع بين الأمراء المسلمين على السـلطة ، فأخـذت كبـار العواصم في السقوط وانهار خط الوادي الكبيـر. وفيمـا بـين عـامي ٦٣٣هـ-٦٤١هـ/١٢٣٦م-١٢٤٣م سقطت قرطبة واشـبيلية وجيـان ومرسية وبلنسية وجزر البليار ، ويكفي أن نـذكر أن قرطبـة عاصـمة الأندلس الزاهرة سقطت عام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقديس دون أن يدافع عنها أحد.

وبعد سقوط هذه القواعد وضياع خط الوادي الكبير ، تجمع بقايا المسلمين في الأندلس تحت لواء محمد بن نصر بـن الأحمـر ، الـذي اعتصم في جبال غرناطة واتخذها مقرا لمملكة صغيرة بدأ تاريخها سـنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م واستطاعت الحفاظ على الركن الجنوبي من الأندلس ، وهو ثمن شبه الجزيرة تقريبا حتى سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م عندما سـقطت غرناطة في يد (فرناندو وايزابيلا)[٣] وانتهت بذلك دولـة الإسـلام فـي الأندلس.

أما في المغرب العربي فقد ضعفت قوة الموحدين وسيطرتهم على الشمال الأفريقي ، فزادت بناء على ذلك الفتن والاضطرابات والانقسامات الداخلية وخاصة بين أمراء القبائل البربرية في الشمال الأفريقـي ، وأدى هذا في النهاية إلي انهيار الدولة الموحدية وانقسام السـلطة فـي شـمال أفريقيا إلي ثلاثة أقسام رئيسة عملت على السيطرة على أقاليم المغـرب الكبير وحاولت كل منها أن تسيطر على المنطقة المجاورة لها ، فكانـت سلطنة بني مرين في المغرب الأقصى وبني حفص في إقليم تونس ولقـد

سمح هذا الانقسام على نشأة أمارة ثالثة في المغرب الأوسط هي أمـــارة بني عبد الواد أو (بنى زيان) الذين اتخذوا من تلمسان مقرا لهم(٥).

ولقد كانت أفريقيا منذ مطلع القرن الرابع عشــر تــزداد ضــعفا وفرقة خاصة بعد ضعف بنى مرين وانحسارهم في المغــرب الأقصـــى واحتدام الفتن والمشاكل الداخلية فيها والتي مزقتها وانهكت قواها وجعلتها فريسة سهلة لكل طامع.

وبدأت المطامع الأوروبية تتشكل وتتزايد رغبة في السيطرة على الشمال الأفريقي وكانت من أولى الاعتداءات الأوروبية التي وقعت على بلدان الشمال الأفريقي ، هجوم جمهورية جنوة على طرابلس الغرب التي كانت علاقتها بالسلطة المركزية في تونس منذ بداية عهد الفوضى والفتن في مد وجزر ، يقر ولاتها بتبعيتهم للسلطان الحفصي تارة وينكرونها تارة أخرى ، وقد حدث هذا الهجوم على طرابلس عام ١٣٥٤م طمعـــا مـــن الجنويين في السيطرة على تجارة أفريقيا والتى كان يستأثر بجزء كبيـــر منها هذا الميناء الهام(٦).

وبدخولهم المدينة أعملوا السيف في أهلها فقتلوا وســلبوا الكثيـــر منهم ، وتوالت الحملات بعد ذلك على أفريقيا نتيجة لضعفها السياسي من شتي القوى الأوروبية وخاصة اسبانيا والبرتغال اللتان ستعملان في القرن الخامس عشر ومستهل السادس عشر على غزو أفريقيا واحتلال ثغورها الشمالية والغربية لأسباب دينية وسياسية واقتصادية .

دوافع الاستعمار الأيبيري للمغرب العربي :

لا بد لنا أن نذكر بعض تلك الأسباب التي دفعت كل من اســـبانيا والبرتغال للتوجه العسكري على هذا النحو تجاه الشمال الإفريقي ، وهي الأسباب التي ستعمل على تشكيل تاريخ هذه المنطقة لعدة قرون ، وهـــي

أيضا التي ستدفع بالعثمانيين إلي التدخل في هذه المنطقة وبقائهم فيها حتى مطلع القرن العشرين.

كانت دوافع الاستعمار الايبيري للمغرب العربي متعددة ، بين دوافع دينية وسياسية واقتصادية كما تقدم ، فقد كانت حرب الاسترداد المسيحي في شبه الجزيرة الأيبيرية تجري على أشدها من قبل الممالك المسيحية ضد البقية الباقية من الوجود الإسلامي في الأندلس ، الذي اضمحل إلي أقصى مداه خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ولقد كانت تلك الممالك المسيحية منفصلة عن بعضها فكانت سببا من أسباب ضعفها وتناحرها فيما بينها. ولكن القوة قد بدأت تسري في عروق تلك الممالك عندما نحت خلافاتها جانبا بتوحدها أمام عدوها الوحيد ألا وهو الوجود الإسلامي ، فقد استطاعت البرتغال تحقيق حريتها في القرن الثالث عشر قبل مملكتي قشتالة وأراجون (اسبانيا لاحقا) اللتان ظلتا تطارد العرب المسلمين حتى عام ١٤٩٢م عام سقوط غرناطة .

إن التطورات السياسية بالإضافة إلي التطورات الاجتماعية والاقتصادية والدينية التي استجدت في الغرب الأوروبي في القرن الرابع عشر ، والتي تمثلت في ازدياد شعور الولاء لدى الشعوب الأوروبية للوطن الكبير ، ومساندة تلك الشعوب لملوكها على حساب أمراء الإقطاع نظرا لاتفاق مصلحتها مع مصلحة هؤلاء الملوك ، وإحساس تلك الشعوب بأن الملكيات القوية هي التي في استطاعتها توفير الأمن الداخلي وحماية المواطنين من المظالم والابتزاز الذي كان يتعرض له هؤلاء من الأمراء الإقطاعيين ، والدفاع عن الوطن ضد العدوان الخارجي ، كل هذا سيؤدي إلي دخول الحركة الصليبية الغربية في طور جديد[٧] ، لم يقتصر على الدور الديني كعامل أساسي يستتر وراءه الصليبيون لتحقيق أهدافهم

الاقتصادية ، وإنما كان في مجمله دور من أدوار الإحلال إذا صح التعبير كان الغرب المتمثل حينئذ في اسبانيا والبرتغال يتطلع إلي الإحلال مكـــان العالم الإسلامي وإنهاء دوره نهائيا ، إحلال دينه مكان الدين الإســـلامي وكذا تجارته ، بل وإحلال الشعب اللاتيني نفسه مكان الشعوب الإسلامية في الشرق والغرب.

فمن المعروف أن المسلمين في الشرق وخاصة دولـــة المماليـــك الجراكسة في مصر والشام كانت تلعب دور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب وأدى ذلك إلي ثرائها ثراء شديد كما تقدم ، مما زاد من الأحقـــاد الصليبية على المسلمين ورغبة الدول المسيحية من انتزاع هـــذا الـــدور لصالحها فيتم لهم ضرب المسلمين اقتصاديا ، وفي نفس الوقـــت العمـــل على زيادة القوة الاقتصادية لبلادهم ومن ثم القوة العسكرية والحربية.

لهذا ازدادت رغبة البرتغاليين ومن بعدهم الأسبان فـــى كشـــف طريق بحرى جديد يربطهم مباشرة بالهند وبلاد الشرق الأقصى ليتم لهم السيطرة التامة على التجارة العالمية بين الشرق والغـــرب. فقـــد كانـــت التجارة العالمية في العصور الوسطى تسلك عدة طرق برية وبحرية مـــن مصادرها الأصلية في بلاد المشرق والتى يطل معظمها علـــى المحـــيط الهندى حتى تصل إلي الأسواق الأوروبية ، وكان الحجم الأكبر من هـــذه التجارة يمر عبر موانئ مصر والشام ، وكانـــت تـــأتى ســـفن البنادقـــة والجنويين وغيرهم فتنقل سلع التجارة إلي أوروبا ، ولهذا نرى أنه منـــذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى بدأ ملوك أرغونة يحرصون على إقامة علاقات قوية مع سلاطين المماليك في مصر والشام من أجل رعاية شئون كاثوليكي الشرق ، وفتح أسواق جديدة لارغونة في مصر. وقـــد أثبتـــت المصالح التجارية والاقتصادية تفوقها على المصالح الدينية في علاقـــات

الأوروبيين بالمماليك ابتداء من القرن الرابعه عشر الميلادي بحيث كـان لكل من البندقية وجنوة وأرغونة تجارة متنامية مع مصر.

ومن هنا يتضح أن المصالح الدينية التى كانت تحظـى بنصـيب وافر فى العصر الوسيط بدأت تتراجع أمام المصالح الاقتصـادية التـى ستشكل فيما بعد الركيزة الكبرى فى التعامل بين الدول وخاصـة الـدول الأوروبية التى ستتجه بكل طاقاتها إلي الصـناعة والتجـارة ، لتشـكل الركيزة التى انطلقت بهذه الدول فيما بعد نحو ظاهرة الاستعمار بشكلها الحديث والمعاصر.

ولم يكن العامل الاقتصادي بالإضافة العامل الديني هما المحركان الوحيدان للاستعمار الايبيرى لبلدان لمغرب الاسلامى ، فكان هناك أيضا العامل السياسي الذي دفع كل مـن اسـبانيا والبرتغـال إلـي ملاحقـة الموريسكيين في الشمال الأفريقي وبلاد المغرب عامة والقضـاء علـيهم وضمان عدم معاودة مهاجمة السواحل الايبيرية أو القيام بأية مـؤامرات ضد الوجود المسيحي داخل شبه الجزيرة ، هذا إلي جانب رغبـتهم فـي الانتقام من بلدان الشمال الإفريقي التي كانت تعد منذ أوائل القرن السادس عشر مراكز الغارات البحرية ضد السفن والسواحل الأوروبية.

وسيتبين لنا بعد استعراض دور البرتغال في حركـة الكشـوف الجغرافية ، أن هذه الحركة أساسا كانت تهدف إلي الاستيلاء على تجارة العالم الإسلامي لإضعافه اقتصاديا مما سيؤدي إلي إضعافه عسكريا حتى يسهل السيطرة عليه ، هذا إلي جانب العمل على خلق تكـتلات صـليبية تقف أمام مصلحة المسلمين ومحاربتهم في كل مكان وفيما يلي نستعرض دور البرتغال في مستهل العصر الحـديث فـي تنفيـذ ذلـك المخطـط واستعمارها لأجزاء كبيرة من المغرب العربي.

بداية استعمار البرتغال للمغرب العربي :

لقد بدأت البرتغال قبل اسبانيا بالفعل في تنفيذ ذلك المخطط منذ بدايات القرن الخامس عشر ، مع ازدياد قوتها الاقتصادية إلي جانب قوتها البحرية التي ستصبح سمة الدول العظمى في ذلك العصر.

كان يحرك البرتغال في بداية الأمر التعصب الصليبي الذي تنامى ووصل الي ذروته مع قتال المسلمين في الأندلس ، وقد زاد ذلك العداء الفتوحات المتواصلة في شرق القارة الأوروبية على يد القوة الجديدة في العالم الإسلامي وهم الأتراك العثمانيون ، هذا إلي جانب القوة الاقتصادية الكبيرة التي تمتع بها المسلمون نتيجة للعبهم دور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب.

هكذا كان هدف البرتغال الرئيسي هو ضرب المسلمين في كل مكان وبكل وسيلة ممكنة ، والدليل على هذه النزعة الصليبية التي توجه تحركاتهم هو قيام الأمير هنري الملاح بن يوحنا الأول ملك البرتغال بإضفاء شرعية الكنيسة على جميع فتوحاته من البابا نيقولا الخامس حيث قال : (إن سرورنا العظيم إذ نعلم أن ولدنا هنري أمير البرتغال إذ يرسم خطى والده العظيم الملك يوحنا ، وإذ تلهمه الغيرة التي تملك الأنفس كجندي باسل من جنود المسيح ، قد رفع اسم الله إلي أقاصي البلاد وأبعدها عن مجال علمنا ، كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية الفارين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب الكفرة)(٨).

ولقد قال القائد البرتغالي (البوكرك) في خطابه الذي ألقاه على جنده بعد وصوله إلي ملقا ما نصه : (إن أبعاد العرب عن تجارة الأفاوية هي الوسيلة التي يرجو بها البرتغاليون إضعاف قوة الإسلام) وفي نفس الخطبة قال : الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه

البلاد وباطفائنا شعلة شيعة محمد بحيث لا يندفع لها هنا بعد ذلك لهيب ، وذلك لأني على يقين أننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه من أيديهم لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثرا بعد عين ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها إلي البرتغال لشرائها من هناك)(٩).

هكذا فان الدافع الديني كان المحرك لحملات الكشوف الجغرافية إلي جانب الحملات الاستعمارية التي أرادت بها البرتغال إضعاف العالم الإسلامي وسلب تجارته ، وإضعافه اقتصاديا ، ومن ثم إضعافه عسكريا ليسهل السيطرة عليه كما سبق وأن ذكرنا. هذا بالطبع دون أن نغفل العامل الاقتصادي الذي كان أحد العوامل الرئيسة التي دفعت بالبرتغال لإرسال حملاتها الاستكشافية ، ولقد أوضحنا في الفصل السابق كيف استطاعت البرتغال السيطرة على معظم تجارة الشرق عن طريق تحويلها إلي رأس الرجاء الصالح بدلا من المرور في الطرق القديمة التقليدية.

ولقد جاءت الحملات الاستكشافية الناجحة ذات الآثار بعيدة المدى بفضل شخصية تاريخية ذكرناها آنفا ، وهي شخصية الأمير هنري الملقب بالملاح (Henry the navigator) الذي توفى عام ١٤٦١م ، ولقد تمتع الأمير هنري بسعة المعرفة والاطلاع على معارف عصره الجغرافية ، كما ألم بفنون الملاحة وأصولها عن طريق دراسة الكتب التي غنمها من المكتبات العربية في البرتغال وقشتالة ، وجمع حوله طائفة من البحارة المهرة المدربين . ولقد أنشأ هنرى الملاح معهدا بحريا في مدينة ساجر بالبرتغال عام ١٤١٩م ، كما أنشأ بها دار صناعة ، ووضع مشروعا عاما لحركة الكشف الجغرافي ، أوقف حياته وجهده على تحقيقه . أراد من وراء هذا المشروع الوصول إلي هدفين أولهما : تعقب المسلمين في الشمال الأفريقي ، ونقل الحروب الصليبية إلي بلادهم. والهدف الثاني :

الوصول إلي ذهب السودان عن طريق البحر الأحمر وتحويل التجارة عن طريق القوافل إلي الطريق البحري والي موانئ المحيط الأطلسي بدلا من موانئ البحر المتوسط[١٠].

ولقد بدأ الأمير هنري في تحقيق مخططه بالاستيلاء على ميناء سبتة عام ٨١٨هـ/١٤١٥م ، والتي لم تعد إلي حظيرة الوطن الأم حتى الآن ولم تستطع الدولة المرينية بالمغرب أن تواجه هذا الخطر الداهم فقد كانت في طور الاحتضار[١١].

ولقد قال في ذلك صاحب الاستقصا : (كان جيش البرتغال وهو البرتقيز في هذه السنين قد كثر بعد القلة وأعتز بعد الذلة وظهر بعد الخمول وانتعش بعد الذبول فانتشر في الأقطار وسما إلي تملك الأمصار فانتهى إلي أطراف السودان وأطراف الصين على ما قيل ، ولاح على سواحل المغرب الأقصى فاستولى في سنة ثمان عشرة وثمنمائة على مدينة سبتة أعادها الله بعد محاصرته لها حصارا طويلا)[١٢].

ولم تتوقف عمليات الغزو لثغور المغرب العربي ، بل ازدادت في أعقاب فتح العثمانيين للقسطنطينية عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م ، حيث دعا البابا إلي حرب صليبية جديدة ضد القوى الإسلامية التي تهدد العالم المسيحي ، وكان من الذين استجابوا لهذا لنداء الفونس الخامس ملك البرتغال ، وكان هذا الملك البرتغالي قد أخذ يعد العدة منذ وصوله إلي عرش البرتغال عام ١٤٣٨م لمتابعة عمليات الغزو لثغور المغرب ، وكان مما استقر عليه هذا الملك ومستشاريه أن توجه الجهود أولا للاستيلاء على ميناء (القصر الصغير) الواقع بين سبتة وطنجة توطئة للاستيلاء على طنجة ، ولقد نجحت فعلا حملته عام ١٤٥٨م في مهاجمة القصر الصغير والاستيلاء عليه[١٣].

بيد أن الاستيلاء على طنجة ظل الحلم الذي يتطلع إليه التاج البرتغالي ، ولقد بذلت البرتغال محاولات ولم تلبث أن استولت على العرائش ، ثم استطاعت الاستيلاء على طنجة في أغسطس عام ١٤٧١م ، وقد سقط هذا الميناء الذي استعصى من قبل عليهم في أيديهم دون مقاومة تذكر ، فقد كانت الخلافات الداخلية تفتت الجهود وتصرفها عن التفرغ للعدوان الخارجي ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح ملك البرتغال يلقب بملك البرتغال والأقاليم البرتغالية فيما وراء البحار(١٤).

ولقد استولى البرتغاليون بعد ذلك على معظم ثغور المغرب الأقصى المطلة على المحيط الأطلسي كما قال صاحب الاستقصا : (فاستولوا في سنة ثمان عشرة وثمنمائة على مدينة سبتة بعد محاصرتها ست سنين ، ثم في سنة اثنتين وستين وثمنمائة استولوا على قصر المجاز ثم استولوا في سنة تسع وستين وثمنمائة على طنجة ، ثم في حدود سنة ست وسبعين وثمنمائة ملكوا أصيلا ، وفي هذا التاريخ نفسه أو قبله بيسير استولوا على مدينة آنفا وبعض سواحل السوس ، ثم في حدود سنة سبع وتسعمائة نزلوا بأرض الجديدة فيما بين أزمور وتيط وبنوا بها حصن البريجة ، ثم في سنة عشر وتسعمائة استولوا على العرائش ، ثم بعد ذلك بيسير ملكوا حصن أكادير وما اتصل به من سواحل السوس الاقصى ، ثم ملكوا في حدود اثنتى عشرة وتسعمائة رباط آسفي ثم عطفوا على ثغر أزمور ثم المعمورة وهى المهدية ملكوها أيضا في حدود سنة عشرين وتسعمائة ، وبالجملة فلم يبق من ثغور المغرب الاقصى بيد المسلمين إلا القليل مثل سلا ورباط الفتح وفوجئ المسلمون من هذا البرتقال بالأمر العظيم)(١٥).

بداية الاستعمار الأسباني للمغرب العربي :

أما عن اسبانيا فقد كانت قبل منتصف القرن الخامس عشر عبارة عن ممالك منفصلة، تارة تتحد لدرء الخطر الإسلامي في شبه الجزيرة ، وتارة أخرى تختلف وتتناحر حتى تم توحيد المملكتين الأكبر في شبه الجزيرة وهما قشتالة وأراجون عام ١٤٦٩م بزواج الملكين فرناندو وايزابيلا ، وأعقب ذلك توسع اسبانيا في اليابس الأيبيري واستكمالها حركة الاسترداد المسيحي ، فكان هذا التطور في مساحة وقوة اسبانيا حافزا للعرش البرتغالي للاتساع فيما وراء البحار ، وهكذا بدأ التنافس بين الدولتين في مجال الكشوف الجغرافية وفي المجال الاستعماري فيما وراء البحار. لكن قد تم الاتفاق بينهما فيما بعد على تنظيم القوى وتوحيدها للقضاء على الإسلام نهائيا في الأندلس وشمال أفريقيا ، وأيضا القضاء على قوة المسلمين الاقتصادية عن طريق الكشوف الجغرافية وتغيير وجه الخريطة العالمية من الناحية التجارية.

وفي عام ١٤٩٤م عقدت الدولتان اتفاقيتهما الشهيرة (توردسلاس) لتقسيم أقاليم ما وراء البحار غير المكتشفة بينهما ، وهو التقسيم الذي جعل المستعمرات الشرقية المكتشفة من نصيب البرتغال ، والمستعمرات الغربية المكتشفة من نصيب اسبانيا . هذا بينما في بلدان الشمال الإفريقي (طبقا للاتفاقية المكملة عام ١٥٠٩م) اتخذ التوسع البرتغالي والأسباني وجهة جعلت المستعمرات الاسبانية تقع في الشرق بالجزائر وتونس وطرابلس والمستعمرات البرتغالية تقع في الغرب بالمغرب[١٦].

وهكذا بعد التنافس الذي كان على أشده خلال القرن الخامس عشر بين اسبانيا والبرتغال والذي وقف في سبيل توسعهما خاصة في الشمال الأفريقي ، جاءت المعاهدة المذكورة لتضع حدا لهذا التنافس وتحويله إلي تحالف من شأنه أن يؤدي الي نتائج أفضل أمام الوجود الإسلامي في الشمال الأفريقي ، وخاصة بعد التدخل العثماني واسع النطاق في القرن السادس عشر ومساعدتهم المباشرة لرؤساء البحر والمجاهدين في المغرب الأوسط . ولقد رأينا كيف أن البرتغال على خلفية هذا الاتفاق استطاعت السيطرة على معظم موانئ المغرب الأقصى المطلة على المحيط وبعض الموانئ المطلة على البحر المتوسط مثل سبتة وطنجة.

وعلى أثر هذا بدأت اسبانيا العمل على الاتجاه نحو الشمال الأفريقي في المناطق الواقعة شرقي حجر باديس وكان الأسبان قد وضعوا أيديهم على جزر الكناريا الواقعة قبالة الساحل المغربي في وقت مبكر عام ١٤٧٦م ، وأدت هذه الجزر خدمة جليلة للأسبان ، فاستخدموها كمحطات بحرية لسفنهم وهي تعبر الأطلنطي خلال الخمسين سنة الأولى من اكتشاف واستعمار الأمريكتين.

ولقد ازدادت الرغبة في استعمار الشمال الأفريقي من قبل الأسبان بعد قضائهم على النفوذ الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية وبداية رحلتهم في تنصير المسلمين في القواعد الإسلامية التي سقطت في أيديهم ومحاولتهم القضاء على المورسكيين[١٧] فقد كان المورسكيون دائمي الاستغاثة بإخوانهم في المغرب عندما حل بهم طور التعذيب على أيد الأسبان بعد أن أمنوهم على دينهم وأعراضهم وأموالهم ، وكان الفارين منهم يذهبون إلي المغرب لينذروا بقية حياتهم للجهاد ضد الأسبان والانتقام منهم.

وهكذا أصبح المغرب العربي وخاصة الجزائر حصنا منيعا يلتجئ إليه المهاجرون الأندلسيون خاصة بعد أن أبلى الجزائريـون والمغاربـة خير البلاء في محاولاتهم المتعددة لإنقاذ مسلمي الأنـدلس عـن طريـق تهريبهم إلى جانب مهاجمة السواحل الشرقية لاسبانيا بصفة مستمرة(١٨).

إلي جانب تلك الأسباب فلقد عمل الأسبان بوصية ملكتهم ايزابيلا لابنتهـا (جوانا) وزوجها (فيليب) بأن يواصلا الزحف حتى يـدين لهـم الشـمال الأفريقي كاملا وتنتشر المسيحية بين سكانه.

ومع بداية القرن السادس عشر استقر الأسـبان علـى مهاجمـة الجزائر ، وكانت بداية هذه الهجمات على ميناء المرسى الكبيـر غربـي وهران ، وقد أتم احتلال هذا الميناء من قبل الأسبان وأخـذوا يعملـون لتثبيت أقدامهم فيه ليكون نقطة انطلاق لاحتلال المراكز الأخـرى فـي الشمال الأفريقي والتي كانت أنظارهم تتجه إليها.

ولعل اختيارهم لهذا الميناء كبداية لعملياتهم الاسـتعمارية علـى الثغور المغربية في الشمال الأفريقي يرجع إلي موقعه الهام وصـلاحيته لرسو السفن ، بالإضافة إلي أنه كان مأوى للتجار المسلمين الذين يغيرون على السفن والسواحل الاسبانية . وفي عام ١٥٠٨م أرسل فرناندو حملـة نجحت في الاستيلاء على حجر باديس لموقعها الاستراتيجي على سواحل المغرب ، وتابع الأسبان نشاطهم في هذه الهجمات فأرسلوا حملة ضخمة عام ١٥٠٩م لمهاجمة وهران ذاتها ، واستطاعوا بالفعل السيطرة عليها ، وباشروا قتل وذبح الأهالي حتى وصل عدد القتلى إلي أكثر مـن ثمانيـة آلاف قتيل من الأبرياء ، وأصبحت وهران مركزا للنشاط الأسباني فـي الشمال الأفريقي ، بينما كانت مليلة مركزا للملاحظة والمراقبة فحسـب . ولم يكتف الأسبان بالاستيلاء على وهران ، ففي عـام ١٥١١م تحـرك

أسطول نحو بجاية فهاجموا المدينة ودخلوها عنوة ، وأخذوا في تخريب المدينة والاستيلاء على النفائس. وواصل الأسبان غزوهم في الجزائر فاستولوا على شرشال وبونة وعنابة وغيرها من المدن الساحلية دون أن تحرك سلاطين بني زيان ساكنا لوقف هذا الخطر مما يدل على مقدار ما وصلوا إليه من ضعف[١٩].

واضطر الجزائريون الخضوع مؤقتا للقوة ، فكونوا وفدا برئاسة الشيخ سالم التومي لعقد هدنة وصلح مع المفوض العسكري الأسباني بالجزائر ، وقد اضطرت عدة موانئ أخرى على سواحل المغرب الأوسط مثل دلس وتنس ومستغانم لأن تعترف بسلطان الأسبان ، فأصبحوا بذلك يبسطون نفوذهم على الاموانئ الهامة في كل المغرب الأوسط ، كما أنهم استولوا على طرابلس عام ١٥١٥م واتخذوها قاعدة لعملياتهم الحربية في البحر المتوسط ، وظلوا يحكمونها قرابة عشرين عاما حتى تنازلوا عنها لفرسان القديس يوحنا فحكموها حتى انتزعها منهم العثمانيون عام ١٥٥١م[٢٠].

والجدير بالذكر أن شارل الاول (شارلكان)[٢١] ملك اسبانيا بويع عام ١٥١٩م إمبراطورا للدولة الرومانية المقدسة ، وحاز على مباركة البابا بالإضافة إلي حكم اسبانيا والأراضي المنخفضة ، وتلقب بشارل الخامس. وهكذا ومنذ ذلك الوقت أصبحت الحرب على المسلمين في الشمال الأفريقي بل في سواحل البحر المتوسط وجزره حربا صليبية بحق تهدف الي استئصال شأفة المسلمين منها وضم تلك المناطق لأراضي الإمبراطورية الرومانية ، إلي جانب تنصير أهلها من المسلمين كما فعلوا بالبقية الباقية من مسلمي الأندلس.

وهكذا بدأ المسلمون المجاهدون في الشمال الأفريقي يشعرون بذلك الخطر الذي يلتهم أراضيهم ، وذلك التحالف الصليبي القائم من قبل الدول الأوروبية الذي يحظى بمباركة الباب للاستيلاء على أوطانهم ، ومنذ ذلك الحين بدأ الجهاد في هذه المنطقة يتخذ طابعا آخر فريدا من نوعه ولا ينتمي لأية كيانات سياسية قائمة على أرض المغرب العربي والتي تواطأ معظمها مع المحتل الأجنبي.

ولقد واكب هذا الدور الجهادي روح العصر باستخدامه الجهاد البحري الذي من شأنه أن يواجه المحتل بنفس أساليبه وطرقه ، فكان على المجاهدين الجدد مواجهة تلك القوة البحرية الفتية وهذه الأساطيل القوية بما يتناسب وإمكاناتها وأساليبها ، وهكذا كان على الأتراك العثمانيون أقوى الدول الإسلامية القائمة آنذاك التدخل لمعاونة المجاهدين ودرء الخطر الصليبي عن المسلمين ، ولذلك فقد عملوا منذ مطلع القرن السادس عشر على بناء سلطة عثمانية في بلاد المغرب العربي في مقابل انحسار الوجود العسكري الاسباني والبرتغال ، والعمل على تقوية روح التضامن الإسلامي ورفع الروح الدينية للدولة الإسلامية العثمانية مع الإمارات التي كانت توشك على السقوط ومقتضيات التبعية لهذه الدويلات للدولة الإسلامية الكبرى والولاء للخلافة الإسلامية على حساب الوحدات السياسية الصغيرة والاحتواء في ظل الخلافة العثمانية وقوفا لحركة الاستيطان الأوروبي الأيبيري التي ترفع راية الصليب(٢٢).

وفيما يلي توضيحا للدور الجهادى العظيم الذي قام لمناوئة الاحتلال ، وكان له الفضل الأكبر لدخول هذه المنطقة فى ظل الدولة العثمانية التى عملت بعد ذلك على تكميل ذلك الدور الجهادى.

هوامش الفصل الثاني

١- الدولة الموحدية : هي دولة إسلامية قامت بالمغرب والأندلس ما بين عامي (١١٣٠-١٢٦٩م) ، تأسست على يد قبيلتي زناتة ومصمودة البربريتين ، قام الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن على بإنقاذ الأندلس من الهجمات الصليبية واستطاعوا تقويتها وضمها بعد ذلك لملكهم بالمغرب ، استطاع الخليفة الموحدي الأشهر أبو يوسف الملقب بالمنصور (١١٨٤-١١٩٩م) من هزيمة الصليبيين في موقعة الأرك العظيمة عام ١١٩٥م ، لكن الموحدين تلقوا هزيمة قاسية بعد ذلك في معركة العقاب عام ١٢١٢م والتي تعتبر بداية نهاية المسلمين في الأندلس ، ولقد توالت بعد ذلك سقوط القواعد الإسلامية الكبرى في يد النصارى.

٢- حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٤م ، ص٢٣٥.

٣- فرناندو وايزابيلا : فرناندو الثاني هو ملك مملكة أراجون إحدى الممالك الصليبية في شبه جزيرة أيبيريا ، وايزابيلا الأولى هي ملكة مملاكة قشتالة ، تزوجا سرا عام ١٤٦٩م موحدين بذلك مملكتهما في عام ١٤٧٤م ، دخلا في حرب مع غرناطة آخر معاقل الإسلام في الأندلس حتى سقطت عام ١٤٩٢م.

٤- المرجع السابق ، ص٢٣٤.

٥- جلال يحيى ، تاريخ المغرب الكبير من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر ، الجزء الثالث ، الدار القومية للطباعة والنشر ، عام ١٩٦٦م ، ص٣.

٦- ممدوح حسين / شاكر مصطفى ، الحروب الصليبية فـي شـمال أفريقيا وأثرها الحضاري ، دار عمار بالأردن ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٨م ، ص٤٩٩ : ٥٠٣.

٧- المرجع السابق ، ص٢٣ ، ٢٤.

٨- المرجع السابق ، على الصلابي ، الدولة العثمانية الخ ، ص١٩٣ ، نقلا عن يوسف الثقفي ، دراسات متميزة في العلاقات بين الشـرق والغرب ص٥٨.

٩- المرجع السابق ، ص١٩٣.

١٠- المرجع السابق ، إبراهيم طرخان ، البرتغاليون في غرب إفريقيا ، ص٢٠ : ٢٣.

١١- شوقي عطا الله الجمل ، المغرب الكبير في العصر الحديث ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٧م ، ص٤٤.

١٢- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ، الجزء الرابع ، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمـد الناصري ، دار الكتاب - الدار البيضاء عام ١٩٥٥م ، ص٩٢.

١٣- المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب الكبيـر الـخ ، ص٤٧.

١٤- المرجع السابق ، ص٤٩.

١٥- المرجع السابق ، أبو العباس الناصري ، الاستقصا الخ ، ص١١٠.

١٦- إبراهيم شحاتة حسن ، وقعة وادي المخازن في تاريخ المغـرب ، قراءة تاريخية عبر علاقات المغرب الدولية في القـرن السـادس

عشر الميلادي ، دار الثقافة – الدار البيضاء ، الطبعة الأولى عـام ١٩٧٩م ، ص٢٦ : ٢٨.

١٧- الموريسكيون هم المسلمون الباقون في الأندلس بعد انتهـاء الحكـم الإسلامي فيها ، وقد أصبحت قضية سميت بالقضية الموريسكية بعد سقوط غرناطة آخر المعاقل الإسلامية بالأندلس عام ١٤٩٢م ، ولم تنتهي هذه القضية إلا بطرد المسلمين من الأندلس نهائيا في مستهل القرن السابع عشر.

١٨- محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم إلي المغرب ، أفريقيا الشرق عام ١٩٩٨م ، ص٨٥.

١٩- المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب الكبيـر الـخ ، ص٨٠ : ٨٣.

٢٠- المرجع السابق ، ص٨٠ : ٨٣.

٢١- شارل الخامس (شارلكان) : هو شارل هابسـبورج ملـك اسـبانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وهو حفيـد الملـك فردناندو موحد اسبانيا ، ولد عام ١٥٠٠م ، تم تتويجه عام ١٥٢٠م حكم إمبراطورية لم يشهد لها مثيل في اتساعها ، يعده المؤرخـون من أعظم شخصيات التاريخ الأوروبي ، دخل تحت حكمه كل من ايطاليا وألمانيا والنمسا واسبانيا وهولندا والأراضـي المنخفضـة وكثير من جزر البحر المتوسط بالإضافة إلي ممتلكات اسبانيا فيما وراء البحار التي استطاع الاستيلاء عليها مثـل فلوريـدا وكوبـا والمكسيك وجواتيمالا وهندوراس وبيرو وشيلي. وأما أعدائه فكان على رأسهم السلطان العثماني سليمان القانوني الذي كـان بمثابـة الشوكة في حلقه وكان الصراع يجري بينهما دائمـا علـى جـزر

وسواحل البحر المتوسط خاصة الغربية منها بعد تبني السلطان سليمان حركة الجهاد البحري غربي المتوسط ، توفى شارلكان عام ١٥٥٨م.

٢٢- عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، موسوعة المغرب العربي ، الجزء الخامس ، مكتبة مدبولي - القاهرة ، ص٥٥.

الفصـــل الثـالـث

دور الجهاد البحري في تـدعيم النفوذ العثماني غربي البحر المتوسط

- الأخوان برباروسا ونشأة الجهاد البحري.
- عروج بربا روسا يتزعم الجهاد البحري.
- خير الدين بربا روسا والاتصال بالدولة العثمانية.
- دور الجهاد البحري وأثره في تقوية الأسطول العثماني.

الفصل الثالث

دور الجهاد البحري في تدعيم النفوذ العثماني غربي البحر المتوسط

الأخوان برباروسا ونشأة الجهد البحري :

كما سبق ذكره في الفصل السابق ، أنه قد بدأت تتكون حركات جهادية في الشمال الأفريقي نتيجة لعدة عوامل أهمها ، الحرب الصليبية التي شنتها كل من اسبانيا والبرتغال على المسلمين في الأندلس ، مما أدى إلي نزوح أعداد كبيرة منهم إلي الشمال الإفريقي ، وأدى ذلك إلي متابعة الأسبان والبرتغاليين لهم وتشكيل العديد من التحالفات الصليبية لشن حرب شاملة على المسلمين في البحر المتوسط.

وقد أدى كل ذلك إلي ظهور تلك القوة الإسلامية الجديدة في جهادها والتي اتبعت أسلوب الكر والفر في البحر ، بسبب عدم مقدرتها في الدخول في حرب نظامية ضد القوى المسيحية من أسبان وبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا وغيرهم[١].

وقد حاول الكثير من المؤرخين الأوروبيين النيل من طبيعة الحركة الجهادية في البحر المتوسط ، وأصروا وصف قادتها بالقراصنة ، بل إنهم نعتوا الحركة الجهادية بجملتها بأنها حركة قرصنة واسعة النطاق تهدف إلي السلب والنهب والتخريب لا إلي الجهاد.

ويصر فريق آخر من المؤرخين والباحثين الأوروبيين على أن الفضل في نجاح هؤلاء الرؤساء البحريين المسلمين إنما يرجع إلي أصولهم المسيحية الأولى ، فقد كانوا يونانيين أو ايطاليين أو ألبانيين قبل أن يعتنقوا الإسلام ، وقد استهدف هذا الفريق من المؤرخين والباحثين تصوير القادة البحريين المسلمين المغاربة بأنهم أجانب عن الدولة أو أنهم

مجردون من المبادئ الخلقية ، وأن هدفهم الأسمى هو خوض المعـــارك جريا وراء المغانم يظفرون بها.

وأوغل هؤلاء المؤرخون في الـــتهكم علـــيهم والســـخرية بهـــم ليوضحوا في زعمهم وضاعة أصلهم ، فقالوا عن بيالى باشا أنـــه كـــان اسكافي ، وقالوا عن قلج على أن والده كان صائد ســـمك ، وهكـــذا لـــم يغادروا صغيرة ولا كبيرة لقادة الأسطول العثماني المسلمين إلا أحصوها مع أن هؤلاء القادة كانوا مثلا أعلى في الفدائية والبطولة في المعارك التي خاضوها ضد تكتلات صليبية دولية . وهذا الرأي لا يقدح فيهم بقدر مـــا يقدح في الدولة العثمانية التي تعهدتهم بالتدريب في أسطولها فخرجوا قادة أفذاذا استطاعوا أن يشقوا طريقهم في حياة البحر ، وأن يخوضوا بنجـــاح دفاعا عن دينهم ، صراعا صليبيا ضاريا ضد دولتين بحريتين كبيـــرتين هما اسبانيا والبرتغال. فالوصف الذي يستحقه هؤلاء القادة ورجالهم هـــو أنهم مجاهدون إسلاميون خاضوا صراعا ضد دول أرادت الاستيلاء على أرضهم وتحويل سكانها إلي المسيحية وطمس عروبتهم(٢).

لم تكن الحركة الجهادية البحرية ذات تنظيم أو أثر كبيـــر قبـــل ظهور الأخوان عروج وخير الدين برباروسا(٣). لقد اختلفت المصادر في أصل الأخوان بربروسا ، فلقد قالت بعض المصادر أنهـــم مـــن أصـــل مسيحي من جزيرة مدللى إحدى جزر بحر الأرخبيل(٤) ، وهناك من يقول أن أصلهما من أب تركي وأم أندلسية كان لها الأثر على أولادهـــا فـــي تحويل نشاطهما شطر بلاد الأندلس التي كانت تئن في ذلك الوقـــت مـــن بطش الأسبان والبرتغاليين.

ويذكر المؤرخ التركي عزيز سامح ألتر ، أنه من أسباب اتجـــاه عروج إلي الجهاد البحري بعد أن كان يعمل بالتجارة هو تعرضه لهجوم

من قبل فرسان جزيرة رودس الذين كانوا يمارسون السلب والنهب خاصة للسفن الإسلامية ، وغدوا قطاعا للطرق البحرية في وقت لم يكن هناك قانونا ينظم أعمال البحار ، وإزاء ما فعله هؤلاء الفرسان به وبأخيه فقد أقسم على منازعة قطاع الطرق المسيحيين المتعصبين ، ونذر نفسه لذلك[٥].

لقد كان نشاط الأخوان برباروسا في بادئ الأمر يقتصر على شرق البحر المتوسط ، لمهاجمة سفن القديس يوحنا المتمركزة في جزيرة رودس ، إلي جانب أخذ السفن المسيحية المحملة بالبضائع كغنائم. ولقد دخل عروج في خدمة الدولة المملوكية وأصبح رئيسا لإحدى السفن القديمة المسماة (قادرغة) ، وقد تلقى مساعدات من الأمير قورقود والي انطاليا عندما كان يمارس نشاطه في البحر بجد ونشاط ، وقد ظل فرسان رودس يبحثون عن هذا الذي ألقى الرعب في قلوبهم في البحر المتوسط[٦].

ولقد أدى ضراوة الصراع بين القوى المسيحية وبين المسلمين في الأندلس وشمال أفريقيا والذي اشتد في مطلع القرن السادس عشر أن ينقل الأخوان بربروسا نشاطهما إلي الحوض الغربي للبحر المتوسط ، خاصة بعد أن استطاع الأسبان الاستيلاء على العديد من المراكز الهامة في الشمال الإفريقي.

ويذكر المؤرخون الأجانب أن عروج قد نال شهرته من القرصنة في المياه الغربية ، وهذا صحيح ومؤكد ، ومن الممكن أن يكون قد شوهد بعض الرياس الأتراك في المياه الغربية قبل آل بربروسا ، ولكن من المؤكد أن ذهاب الأخوان بربروسا الي المغرب سنة ١٥١٣م[٧] ، كان له العامل الأكبر في تأثير حركة الجهاد البحري في تلك المنطقة.

ولقد أصبح الجهاد البحري ذائع الصيت ، لما كان يتحصل عليه من غنائم كثيرة من القوى المسيحية في البحر المتوسط ، ولذلك فقد جذب العديد من الجهات التي لا هم لها إلا تلك الغنائم ، وكان من هؤلاء سلطان الدولة الحفصية في تونس. ولقد قام أفراد هذه الأسرة بمساعدة المجاهدين فقط للحصول على نصيب من تلك الغنائم.

وبعد أن قويت شوكة آل برباروسا بعض الشئ وأصبح لهم الكثير من الأنصار ، كان يتوجب عليهم إيجاد مركزا ينطلقون منه ويعودون إليه إذا شعروا بالخطر ، لذلك توجهوا إلي سلطان الدولة الحفصية في تونس والذي بهرته الغنائم العظيمة التي يتحصل عليها المجاهدون ، فقدموا له الهدايا وطلبوا منه منحهم مكانا يلجأون إليه ، ووافق السلطان الحفصي على ذلك مقابل دفع خمس الغنائم شريطة ألا يتخاصموا مع سكان المنطقة. وقد منحهم مكانا في حلق الوادي يسمى (جالطة) للإقامة فيه بشكل دائم فعمل الأخوان على تقوية مركزهم وحصنوه بشكل قوى ومن ثم خرجوا إلي البحر باحثين عن الغنائم البحرية المسيحية(٨).

عروج برباروسا يتزعم الجهاد البحري :

وما أن استقر الأخوان برباروسا في حلق الوادي شهور معدودة إلا وطبقت شهرتهما الآفاق ، سواء في المغرب العربي أو في العالم المسيحي من كثرة ما هاجموا من السفن المسيحية ، ومنذ ذلك الحين بدأت شعبيتهما في الازدياد على صعيد المسلمين في الشمال الأفريقي الذين بدأوا في الانضمام إليهما للجهاد ضد الصليبيين.

ولقد طلب رجال القبائل من عروج أن يساعدهم على استرداد ميناء بجاية من الأسبان ، وكانت بجاية تعتبر أكبر ميناء في المنطقة الشرقية من المغرب الأوسط في ذلك الوقت(٩). فوافق عروج على طلبهم

وبدأ في العمل على استرداد هذا الميناء الهام ، فكان عليه نقـل قاعـدة عملياته بالقرب من الميناء ، وفعلا انتقل مع رجاله إلـى ميناء جيجـل شرقي الجزائر عام ١٥١٤م. وبالفعل استطاع الأخوان بربروسا مقاومة الأسبان مقاومة شديدة ، وعلى أثر المعارك القائمة بين الفـريقين جـرح الريس عروج في يده اليسرى جرحا بليغا اضطر من جرائه الي قطع يده ولكن لم يثنيه ذلك عن مواصلة الجهاد في سبيل الله.

ولقد تصدى سكان الشمال الإفريقي للأسبان بكل شجاعة وأعلنوا تمردهم احتجاجا على أعمال العنف والاضطهاد التي يمارسونها ضدهم ، وتزعم المرابطون الثورة والجهاد ، ولقد تبنى أحمد بن القاضـي فكـرة الجهاد فلبت القبائل المجاورة دعوته وانضمت إليه وأيدته. صمم أحمد بن القاضي على إخراج الأسبان من قلعة بنيون ، ولكنه لم يتمكن من ذلـك لأن القلعة المذكورة بنيت فوق جزيرة صخرية تبعد عن مدينة الجزائـر حوالي ٣٠٠م ، ولقد أدى تمركز الاسبان بها إلى التحكم بمدخل ومخرج المدينة فتسببوا في شل الأعمال البحرية الجزائرية ، علاوة على ذلك فقد فرضوا على سكان المدينة تقديم ضرائب نقدية وعينية أرهقت الجزائريين وأشعرتهم بالذل والعار. وهكذا التجأ سكان الجزائر للاسـتنجاد بعـروج وطلبوا منه المساعدة وكتبوا له عهدا بالسماح له بالعيش والإقامـة فـي مدينة الجزائر ، فقبل الريس عروج طلبهم بكل سرور ، وقبـل أن يهـم بالهجوم على حصن البنيون احتل شرشال وقصد بـذلك تـأمين ظهـره وجعلها ملتجأ وقت الشدة(١٠).

وبعد ذلك أرسل الريس عروج حملة لتهديـد حصـن البنيـون ، ونجح في صد هجوم اسباني عن المدينة عام ١٥١٦م ، وتمكن من إقامة حكمه على الساحل المواجه للجزيرة الخاضعة للأسبان ، وسـاعده هـذا

النجاح على أن يؤسس بصفته قائد تحرير حكومة عسكرية تحت قيادتــه انضم إليها عددا كبيرا من القبائل وسكان المدن ، فاستولى بــذلك علــى أقاليم المغرب الأوسط الواحد بعد الآخر، وأقام بها حاميــات. وقــد أدى نجاحه إلي اضمحلال معظم القيادات الأهلية القديمة أمام نمو هذه السلطة الجديدة(١١).

ومنذ ذلك الحين فرض آل برباروسا ومن تبعهم من المجاهــدين سطوتهم على مياه البحر المتوسط الغربية مما أشعر المسيحيين بالضــيق الشديد ، ولحق بهم من جراء ذلك أضرارا كبيرة. ويذكر المؤرخ عزيــز ألتر أن السفن المسيحية كانت تستسلم مباشرة دون مقاومة لــدى ســماع طاقمها باسم بربار وسا مثل الفأر لدى سماعه صوت الهــر ، حتــى أن الريس سنان القائد العثمانى حينما كان يتجول في عرض البحر ويلتقــى بسفينة معادية وتجنبا لحدوث أية مقاومة كان يرفــع شــارة باربار وســا فتستسلم السفينة(١٢).

ويذكر أن الفرنسيين كانوا من أكثــر المتضــررين ممــا يفعــل المجاهدون ، فحاولوا احتلال تونس للحد من سطوة المجاهــدين وزيــادة نفوذهم على الساحل الأفريقي ، حيث أنزل الأسطول الفرنسي جنوده في بنزرت ثم حلق الوادي ، ولكنهم اصطدموا هناك بالريس خير الدين الذي هزمهم شر هزيمة ، بل ووقع معظم اسطولهم غنيمة بيد خير الدين.

وهكذا عمل المجاهدون بعد تمركزهم في الجزائر علــى تشــكيل حكومة قوية في شمال أفريقيا شكلت خطــرا كبيــرا علــى الحكومــات المسيحية ، وخاصة اسبانيا التي اعتبرت الشمال الأفريقي مناطق نفوذ لها وعلى أنها لقمة سائغة يمكن ابتلاعها متى شاءت ، ولكن الأحداث تغيرت

وطرأ على المنطقة مستجدات جديدة شملت مختلف مناطق الشمال الأفريقي ، اختل على أثرها التوازن الاسباني(١٣).

ولقد ازداد الأسبان حنقا على ذلك النفوذ الجهادي في شمال أفريقيا خاصة وأن عروج قد عمل بكل قوته على إنقاذ الكثير من الموروسكيين الذين طلبوا مساعدته في الأندلس، ولقد ذاع صيته أكثر بعد ما حققه من إنقاذ الآلاف منهم ونقلهم إلي بلاد البربر(١٤).

وكان لنجاح عروج أصداء واسعة في تلمسان عاصمة بني زيان في غربي الجزائر ، إذ ظهر فيها اتجاه نحو توحيد الجهود مع هذه السلطة البحرية المجاهدة ، خاصة أن بني زيان هادنوا الأسبان الذين كانوا يحتلون وهران(١٥) والمرسى الكبير في ذلك الوقت ، وتحرج موقف المسلمين حين استنجد آخر حكام بني زيان بالأسبان الذين رحبوا بهذا التقارب وكانوا يخشون هجوم عروج على وهران(١٦).

وهكذا خشى الأسبان على نفوذهم في الجزائر من التأثر ، فاتفقوا مع الرياس المحليين بغية توجيه ضربة شديدة تنهى نفوذ المجاهدين ، إضافة إلي ذلك تحالف بعض الأعراب مع الأسبان المقيمين بقلعة بنيون ، ووجه حاكم تلمسان دعوة رسمية إلي الملك الأسباني يلتمس منه مد يد المساعدة ، وفعلا قام الأسبان بإرسال حملة عسكرية مكونة من خمسة عشر ألف جندي إلي الجزائر لمحاصرتها ، وعلى أثر هذا استعد عروج مع الأتراك والمهاجرين الأندلسيين – الذين احترقت قلوبهم من ظلم الأسبان – للتصدي للأعداء ومقاومتهم ، يساندهم في ذلك بعض الأهال والقبائل.

واصطدم الطرفان في قتال دامي ومستميت انتهى بهزيمة الأسبان وغرق معظم سفنهم ماعدا السفن الثقيلة التي كان يستقلها الجنرال دييجو

ديفيرا قائد الحملة عائدا إلي بلاده ، بعد ما صفع من قبل صـــاحب اليـــد المبتورة الريس عروج فاستقبله الأسبان بأهازيج السخرية[١٧].

وبعد هذا النصر الحاسم على القوات الاسبانية ، قــرر عــروج تصفية الخونة والموالين للأسبان ومعاقبة القبائل التي تحالفت معهم ضـــد المجاهدين ، فأرسل إلي أخيه خير الدين خبر فتحه للجزائر وطلب منـــه التحرك إلي جيجل فور استلامه الرسالة ، وفعلا وصلها الريس خير الدين وترك بها حامية من خمسمائة شخص.

وعلى الجانب الآخر كان حاكم تنس مولاي عبد الله من عائلة بني زيان ، ومعظم عائلات الشمال الأفريقي في ذلك الوقت كانــت تتصــف بالقسوة ، وليس غريبا أن يكون أحد أفرادها عدوا لأخيه ، فعند نشوب أي خلاف بسيط يفر الفرد العادي أو الحاكم لتوه و يلتجئ إلي الأسبان ، وهذا ما جعل الأهالي يسأمون من كثرة لجوء هــؤلاء إلــي الأســبان وأرادوا التخلص منهم فاستنجدوا بالريس عروج طالبين منه إنقاذهم من مــولاي عبد الله المتعاون مع الأعداء ، فانتهز عروج هذه الفرصة للتخلص مــن الموالين للحكم الأجنبي. فبعد أن عين أخاه وكيلا له على الجزائر ، تحرك على رأس قوة تتألف من خمسمائة جندي من الأتراك ومــن مهــاجري الأندلس ، فاستولى على مدينة المهدية ومليانة وبليدة ، وأثنـــاء تنقلاتـــه حارب بقسوة بعض العائلات الكبيرة ممن ارتبطت بالأسبان ، قاصدا من عمله جعلها عبرة لكافة عائلات الشمال الأفريقي. وبالقرب من بليدة التقى مع أمير تنس ودارت معركة حامية ، وعلى الرغم من قلة عدد المجاهدين مع عروج ألا أنهم تمكنوا من الانتصار على قوات تنس وظلوا يلاحقونهم حتى دخلوا المدينة[١٨].

أما عن حكام تلمسان نفسها عاصمة بني زيان ، فكانوا موالين هم أيضا للأسبان بشكل كامل ، وكانوا يـدفعون ضـريبة سـنوية باهظـة بالإضافة إلي تأمين الأرزاق لعساكرهم الموجودة في وهران والمرسـى الكبير والمناطق المجاورة لهم . ولم يستطع الأهالي تحمل الاهانات التي ألحقها الحكام بهم نتيجة لارتباطهم بأعدائهم من الأسبان ، فشكلوا وفـدا للذهاب إلي الريس عروج لطلب المساعدة منه لإنقاذهم من هؤلاء . سـر الريس عروج من طلب أهالي تلمسان فأعد قواته وتوجه إلي تلمسان بعد أن ترك أخاه خير الدين نائبا له في الجزائر.

وعند وصول عروج وقواته إلي تلمسان سارع الأهـالي بفـتح الأبواب له واستقبلوه بالترحاب ، وعندئذ فر أبو حمو حاكم تلمسان إلـي وهران ومنها إلي اسبانيا طالبا النجدة ، واستطاع بذلك عروج إنهاء حكم بني زيان في تلمسان وإعلان نفسه حاكما عليها ، ثم استطاع بعـد ذلـك إخضاع بعض المناطق والقبائل المحيطة بها.

رأى الأسبان خطورة الأوضاع في الجزائر وشعروا بالخطر الذي يتهددهم في مراكزهم الكبيرة في وهران والمرسى الكبير ، وكان لابد لهم من عمل حاسم ضد المجاهدين وانتزاع تلمسان منهم . وفعلا أعدت العدة لغزو تلمسان ومحاصرتها ، وتم إرسال قوات إضافية من اسـبانيا بلـغ عددها عشرة آلاف جندي ، وتحرك الجمع نحو تلمسان ، وعلى الفـور عمد قائد الحملة الاسبانية إلي فرض حصار محكم وعنيف على تلمسان ، لقاء ذلك قام الريس عروج بالدفاع عن المدينة بشـكل مسـتميت ، ودام الحصار ستة أشهر استمر خلالها القتال ليل نهار ، استطاع الأعداء بعدها السيطرة على نقاط الاستحكام فأقيمت المتاريس داخل المدينة ، تحولـت المعركة بعدها الي قتال شوارع.

وعندما كانت المعركة على أشدها وفي أدق لحظاتها ، انسحب معظم الأهالي الذين قدموا سويا مع عروج ولم يبق في أرض المعركة سوى خمسمائة مقاتل ظلوا يقاتلون بقيادة عروج ولكن دون جدوى ، فاستغل المقاتلون ظلام الليل ليتمكنوا من اختراق صفوف الأعداء والوصول إلي الساحل لانتظار سفن خير الدين المتوقع وصولها . لم يشعر الأسبان بخروج عروج وقواته إلا بعد عدة ساعات ، وعندما علموا بذلك كلفوا الخيالة بملاحقتهم وفي اليوم الثاني لحقوا بهم ، وأدرك عروج عدم مقدرته بمن معه من القلة على المواجهة ، ومع ذلك بدأ في التصدي لهم في معركة لا خيار فيها ، وظل يقاتل رغم يده المقطوعة إلي أن استشهد حيث قطعوا رأسه وحملوه مع ألبسته البحرية المزركشة إلي وهران وأرسلت بعدها إلي اسبانيا وقدمت هدية الي كنيسة (سانت جيروم) في قرطبة ، فصنع منها رجال الدين هناك شعارا يسمى (شارة بارباروسا)[٢٠] وكان ذلك عام ١٥١٨م.

هكذا كان استشهاد البطل الأبتر الذي استطاع أن يؤسس الحكومة الأولى المجاهدة في الجزائر التي أصبحت نواة للسيطرة العثمانية على الشمال الافريقي فيما بعد.

ويقول عنه شارل أندريه جوليان : (رغم أن مغامرة عروج العظيمة الشأن توقفت في الرابعة والأربعين من عمره فانه استطاع أن يبوئ مدينة الجزائر وبلاد البربر مكانة الدول العظمى)[٢١].

ويقول دي غراممونت : (من خلال الاطلاع على كتب التاريخ المترجمة والمنقولة منها ، لم أعثر على وصف مشابه تماما للوصف الذي

وصف به الريس عروج ، وهذا شئ نادر ، والريس عروج كان شـــجاعا في جهاده ، مدافعا عن دينه واسلامه ضد أعدائه ، وقد عبر عن ذلك من خلال حروبه البرية والبحرية)[٢٢].

وهكذا نجح عروج قبل استشهاده في ضم معظم صفوف الشـــعب الجزائري وقرب بينه وبين سائر مسلمي شمال افريقيا في كفاحهم ضـــد العدو المشترك وخلفه أخوه خير الدين بربروسا في قيادة عمليات الجهاد في بلاد المغرب الكبير[٢٣].

خير الدين بربروسا والاتصال بالدولة العثمانية :

استلم الريس خير الدين القيادة بتاريخ ٩٢٤هـــ/١٥١٨م وهـــو متأثر بسبب هزيمة أخيه عروج ومقتله مع أفضل المجاهدين ممن كـــان يعتمد عليهم ، وفي نفس الوقت لم تعلن البلاد خضوعها له كما فعلوا مع الريس عروج لشعورهم بأن خير الدين لن يكون بديلا عن أخيه ، كمـــا أعلنت القبائل المؤيدة لعروج عصيانها وتمردها على الزعيم الجديد.

ولقد استغل الأسبان كل هذه الصعاب التي تواجـــه خيـــر الـــدين واهتزاز مكانته في الجزائر وباشروا بالتحرك لطرد جميع المجاهدين من البلاد. فوجد خير الدين نفسه إزاء كل هذه النكبات في وضـــع لا يحســـد عليه إطلاقا ، ولو كان شخصا آخر لا يتمتع بنفس صفاته لترك كل هـــذا ورحل آثرا السلامة ، لكن الريس خير الدين لم يكن فـــردا عاديـــا فقـــد اتصف إلى جانب الشجاعة والإقدام بالحنكة السياسية ،.فحســـن تصـــرفه وهدوء أعصابه تجاه الأزمات مكنه من تحقيق أعمال عجز عنها الـــريس عروج نفسه فهو لم يكن يعرض نفسه للخطر إلا بشكل نسبي وبالحـــدود التي ترهب أعداؤه وترفعه لدى أصدقائه . لذلك أدرك خير الدين بتفكيره السليم ومحاكاته للواقع أنه لن يستطيع مواجهة هؤلاء الأعداء بمفـــرده ،

فدله ذكاؤه في نهاية المطاف إلي أنه بحاجة إلي حماية دولة قوية يستند عليها في أوقات الشدة[٢٤].

وفي ذلك الوقت كانت الدولة العثمانية دولة إسلامية فتية تشق طريقها وسط العمالقة بقوة وإصرار وتكتسح أراضي شرق أوروبا بالفتوحات ، بل ووصل سلطانها إلي مصر وبر الشام عام ١٥١٧م ، وكانت هي الدولة الإسلامية الوحيدة التي وضعت على كاهلها عبء الدفاع عن الإسلام والمسلمين ومناهضة الإمبراطورية الرومانية ومحاربتها في كل مكان . لذلك قرر خير الدين الخضوع لسلطان الدولة العثمانية والاحتماء بها والحرب من أجلها ، بذلك يضمن أن يكون مرهوب الجانب من جانب الأعداء وخاصة الأسبان ، بالإضافة إلي أمداده بالسلاح والرجال من قبل الدولة العثمانية.

ولقد قام الدكتور عبد الجليل التميمي بترجمة وثيقة تركية محفوظة في دار المحفوظات التاريخية باستامبول (طوب قابي سراي) رقمها (٤٦٥٦) وهذه الوثيقة هي رسالة موجهة من سكان بلدة الجزائر إلي السلطان سليم الأول السلطان العثماني بعد عودته من فتح مصر إلي استانبول ، وهي مؤرخة بعام ٩٢٥ للهجرة الموافق ١٥١٩م ، وقد كتبت هذه الرسالة بأمر من خير الدين وكان غرضها ربط الجزائر بالدولة العثمانية[٢٥].

وتعتبر هذه الرسالة شاهدا على أحوال الجزائر السياسية عام ١٥١٩م ، حيث أوضحت هذه الوثيقة الهامة الكثير من الأحداث التي أدت في النهاية إلي جعل خير الدين وأهالي الجزائر يطلبون العون من السلطان العثماني والانطواء طواعية تحت سلطة الدولة العثمانية.

ولقد أوضحت الرسالة أيضا المدى الذي كان يتمتع به خير الدين من شعبية وسمعة طيبة لدى الأهالي ، ولقد أكدت الرسالة إلي أنه الرجل الذي حكم بعدالة مطبقا تعاليم الإسلام ، كما أنه أظهر الشجاعة عندما (قادنا) إلي الجهاد في سبيل الله بنية حسنة وقلب صادق كما تقول الرسالة ولقد أوضحت أيضا أن خير الدين كان يهدف القيام بنفسه بزيارة استانبول غير أن زعماء المدينة توسلوا إليه أن يبقى بالجزائر خوفا من محاربة الأعداء. ولقد كان اختيار خير الدين لسفيره وهو الفقيه العالم أحمد بن القاضي كان حكيما ، فقد أراد أن يدلل للسلطان عن طريق أحد شخصيات البلاد العلمية والحربية أن الأهالي متعلقون بشدة بالباب العالي وربط البلاد بالإمبراطورية العثمانية ، وليس رغبة شخصية من خير الدين[٢٦].

وفي النهاية نجحت هذه الرسالة في مسعاها ، فقد سارع السلطان سليم الأول إلي منح رتبة بكلر بك (أمير الأمراء) إلي خير الدين برباروسا ، وهي رتبة تخول لصاحبها أن يكون نائبا للسلطان في هذه البقاع وقائدا أعلى للقوات المسلحة في إقليمه ممثلا للسلطان ، وكان من مدلولات منح هذه الرتبة الرفيعة – التي لم يكن في الإمبراطورية كلها من يحملها سوى بكلر بك الروم ايلي (البلقان) وبكلر بك أناضولي – أن البلاد التابعة لخير الدين تصبح تحت السيادة العثمانية ، وأن أي اعتداء خارجي على أراضيها يعتبر اعتداء على الدولة العثمانية ودعم السلطان سليم هذا القرار بقرارات تنفيذية ، إذ أرسل إلي خير الدين قوة من سلاح المدفعية العثمانية كما أرسل ألفين من جنود الانكشارية ومنذ ذلك الوقت (عام ١٥١٩م) بدأ الانكشارية يظهرون في الحياة العسكرية والسياسية في الأقاليم العثمانية في شمال أفريقيا بحيث أصبحوا عنصرا بارزا ومؤثرا على سير الأحداث ، وأذن السلطان سليم في ذات الوقت لمن يشاء من

رعاياه المسلمين في السفر للجزائر والانخراط في صفوف المجاهـدين ، وقرر منح المتطوعين الذين يذهبون إلي هناك للجهاد الامتيازات المقررة للفيالق الانكشارية تشجيعا لهم على الانضمام إلي كتائـب المجاهـدين ، ولذلك فقد أقبل سكان الأناضول على السفر إلي الجزائر والتطـوع فـي عمليات الجهاد(٢٧).

أما على الجانب العثماني فقد كانت تلك الرسالة موافقـة تمامـا لهوى السلطان العثماني سليم الأول الذي كان عائدا لتوه من فتح مصر ، وبعد أن دان له معظم الشرق العربي بعد هزيمته للدولة الصفوية ، فقـد كانت سيطرته على الجزائر هامة في ذلك الوقت لتأمين حـدود مصـر الغربية من ناحية ، ومن ناحية أخرى وضع قدم الدولـة العثمانيـة فـي الحوض الغربي للبحر المتوسط كان هاما في إطار مواجهاته المسـتمرة للأسبان والبرتغاليين الذين سيطروا على معظم الطرق البحرية وانتزعوا التجارة من أيد المسلمين ، هذا إلي جانـب مسـاعدة مسـلمي الأنـدلس المضطهدين والفارين من القمع الأسباني ، ومحاولة إعادة الحكم الإسلامي إلي الأندلس بعد فشل الحكام المسلمين من قبل فـي مناصـرة مسـلمي الأندلس الذين بعثوا بكثير من رسائل الاستغاثة ، وكـان منهـا رسـائل موجهه إلي سلاطين العثمانيين من أمثال محمد الفاتح وبايزيـد الثـاني ، ولكن أوضاع الدولة في ذلك الوقت وبعدها الجغرافي لم يمكنهم من إغاثة إخوانهم في الدين.

ومنذ ذلك الحين بدأ العثمانيون العمل المستمر والمتواصل لتدعيم نفوذهم غربي المتوسط ، ومحاولة إخضاع باقي أقاليم المغـرب الكبيـر لمجابهة الدول الصليبية والحد من نفوذها ، وقد عمل الأهالي فـي تلـك المناطق على مساعدة العثمانيين لمواجهة حكام المغرب العرب المـوالين

للأسبان ، وأصبحت بذلك الجزائر ركيزة حربية للدولـــة العثمانيـــة فـــي المغرب العربي وغربي المتوسط ، استطاع من خلالها السلطان ســـليمان القانوني ألذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه عام ١٥٢٠م أن يزيد من السيطرة العثمانية وأن يمدها إلي تـــونس وطـــرابلس بمســـاعدة رؤســـاء البحـــر المجاهدين، الذين عملوا على تدعيم ذلك النفوذ إلي جانب تقوية الأسطول العثماني الذي لم يكن في ذلك الوقت ذو شأن عظيم كما سيصبح بعد ذلك تحت إمرة رؤساء البحر المجاهدين .

دور الجهاد البحري وأثره في تقوية الأسطول العثماني :

من المعروف أن الدولة العثمانية كانت تعتمد على القوات البرية ولم يكن لها أية قوة بحرية تذكر ، فكل حروبها في أوروبـــا وفتوحاتهـــا الأولى كانت تعتمد على الجيش البري ، ذلك لأن كل أعدائها فـــي ذلـــك الوقت كانوا أيضا يعتمدون على القوة البرية من مشاة ومدفعية وفرســـان من أمثال الصرب والمجر ، ولكن بمضي الوقـــت وبامتـــداد الأراضـــي والسواحل العثمانية بدأ العثمانيون الشعور بضرورة أنشاء أسطول قـــوى لتأمين فتوحاتهم في البلقان والاستيلاء على الجزر المحيطة بهذا الإقلـــيم والقضاء على باقي ممتلكات البيزنطيين ، ولطرد البنادقة والجنويين الذين كانوا يعتمدون على القوة البحرية من المناطق المتعددة التي كـــانوا قـــد تغلغلوا فيها[٢٨].

ويقول شارل بروكلمان : (إن انتصار البنادقة على العثمانيين في جاليبولي سنة ١٤١٩م ، هو الذي حملهم على التفكير جديا فـــي أنشـــاء أسطول بحري ، ولكن محمد الثاني (الفاتح) كان أول من أورث العثمانيين السمعة التي يستحقونها في البحر أيضا)[٢٩].

ولقد استطاع محمد الفاتح بالفعل أنشاء أسطول عثماني ، استطاع بواسطته أن يحقق فتح القسطنطينية ، فلم يكن الهجوم عليها هجوما بريا صرفا بالمدافع والمشاة ، بل استطاع بخطته الرائعة استخدام السفن التي استطاعت الدخول بحيلة بارعة إلي خليج القرن الذهبي ، ومن هناك أخذت في قذف الأسوار ، ولكن الأسطول العثماني في عهد محمد الفاتح وخلفه بايزيد الثاني لم يكن له ذلك التأثير الاستراتيجي على البحر المتوسط ، وفي عهد سليم الأول كانت القوة البرية مازالت هي القوة المؤثرة في حروب العثمانيين سواء مع الصفويين أو مع المماليك في فتح مصر. لكن ابتداء من عهد سليمان القانوني كان للأسطول نشاط لم تشهد له الدولة العثمانية مثيلا من قبل ، فقد أنشأ للأسطول بجانب قاعدته الرئيسية في استانبول ، قواعد بحرية في جزر الأرخبيل وسواحل ألبانيا كما أنشئت قواعد بحرية وترسانة في ميناء السويس يرتكز عليها أسطول البحر الأحمر والبحار الشرقية(٣٠).

ولقد كان ظهور المجاهدين البحريين أمثال الريس خير الدين ومن خلفه تأثيرا كبيرا على تطور الأسطول العثماني ، سواء من ناحية الكم أو الكيف ، وإحكام سيطرته على البحر المتوسط ، خاصة في الأجزاء الغربية منه حيث الشواطئ الايطالية والأسبانية. ولقد كان تمركز أجزاء كبيرة من الأسطول العثماني في الجزائر وقيادته من قبل رجال البحر المحترفين عاملا مؤثرا في السيطرة على الطرق الملاحية في ذلك البحر ، بالإضافة إلي السيطرة على أجزاء من سواحل أوروبا الغربية ، ويشهد المؤرخون أنه بسبب غزوات المجاهدين البحريين المتواصلة على الشواطئ الأوروبية أصبحت مقفرة وخالية من السكان حتى عمق حوالي أربعة أو خمسة أميال.

يقول بروكلمان : (وحتى إذا رقى سليمان العرش زاد سفنه إلى ثلاثمائة وفي عهده وفق القرصان خير الدين بربروسا إلى أن يحمل الهول الذي كان ينطوي عليه اسم العثمانيين ، حتى الشواطئ الاسبانية)(٣١).

ويقول : (وكانت سفن القراصنة العاملة في شاطئ أفريقيا الشمالية تؤلف ابتداء من عهد بربروسا جزءا هاما جدا من الأسطول العثماني. فقد كان هؤلاء القراصنة يلتحقون بأسطول الدولة ، زرافات زرافات ، كلما أزمع السلطان خوض غمار الحرب البحرية لينزلوا في حماية هذا الأسطول ، أعظم الأذى بتجارة النصارى)(٣٢).

ومنذ أن أصدر السلطان سليمان القانوني فرمانا بترقية خير الدين إلي منصب قائد عام الأسطول العثماني لخبرته وحنكته البحرية إلي جانب خدماته العظيمة التي قدمها للإسلام ، أصبح هذا المنصب رفيع المستوى ذو شأن خاص لم يبلغه أحد من قبل ، فمنذ تعيينه رفعت هذه الوظيفة إلي مرتبة وزير ، ومنح شاغلها ثلاثة أطواخ ورتبة الباشوية ، وأصبح يطلق عليه (قبودان باشا) ، وكانت له الأسبقية على جميع الوزراء الآخرين ، وكان ترتيبه يأتي مباشرة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام ، وعين عضوا في الديوان الهمايوني.

وكل هذا يدل على أهمية الأسطول العثماني ودوره في تلك الفترة خاصة منذ تولى المجاهدون البحريون أمر هذا الأسطول وأمر الجهاد البحري ضد القوى الصليبية في البحر المتوسط التي أعطت سيطرة شبه مطلقة للقوات العثمانية على الطرق البحرية ومن الأدلة التي تؤكد سيطرة الأسطول العثماني شبه المطلقة على الملاحة في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، هو استغاثة فرنسوا الأول ملك فرنسا- الذي اشتعلت الحرب

بينه وبين غريمه الإمبراطور شارل الخامس- بالسلطان سليمان القانوني لتخليص ثغر نيس من قوات شارل الخامس والذي استطاع خير الدين تخليصه عام١٥٤٣م(٣٣).

وهذا إن دل فإنما يدل على القوة التي وصل إليها الأسطول العثماني في أبعد نقطة عن الدولة العثمانية في البحر المتوسط ، فلم يكن الأسطول العثماني يرتبط ارتباطا مباشرا بالمركز في استانبول كارتباط باقي أساطيل الدول الأوروبية بالدولة الأم ، وإنما أصبح الأسطول العثماني تحت إمرة رؤساء البحر يصول ويجول دون ارتباطه مباشرة بالعاصمة العثمانية. وتوالت انتصارات الأسطول العثماني في عهد السلطان سليمان القانوني عامة ، والذي اعتمد على قيادة رؤساء البحر حتى بعد موت خير الدين الذي توفى عام ١٤٤٧م ، فقد كان معظمهم من رؤساء البحر المتمرسين في العمل البحري ضد القوى الصليبية ، والذين وهبوا حياتهم للجهاد باسم الإسلام ، فجاءت انتصاراتهم حاسمة وبالغة الأثر ضد النفوذ الصليبي في البحر المتوسط.

استأنف السلطان سليمان القانوني الفتوح في أوروبا بعد توقفها قليلا في عهد أبيه السلطان سليم ، بسبب انشغاله بفتح الشام ومصر ومحاربة الدولة الصفوية ، وهكذا فان السلطان سليمان كان دائما على رأس جيوشه المشغولة بفتح أوروبا والتوسع تجاه الغرب على حساب مملكة المجر وبلاد البلقان وعلى حساب النمسا التي كانت تقع تحت حكم الإمبراطور شارل الخامس العدو الأول للدولة العثمانية ، ولذلك كان على السلطان سليمان تولية من ينوب عنه نيابة مباشرة في غربي المتوسط حتى يتسنى له التضييق على شارلكان في أملاكه في اسبانيا وايطاليا وجزر المتوسط الغربية وتشتيت جهوده بين صد الهجمات العثمانية بقيادة

السلطان في شرق أوروبا ووسطها وبين هجمات الأسطول العثماني على سواحل اسبانيا وايطاليا في الغرب.

ولقد قام خير الدين بهذه المهمة على خير وجه ، ولذلك كان يقابل في كثير من الأحيان بتحالفات صليبية تشتمل على أساطيل دول أوروبية أهمها أساطيل شاركان والبندقية والبابا والبرتغال ، لكن خير الدين استطاع التصدي لهم ، وهزيمتهم في عدة معارك من أشهرها معركة بروزة(٣٤).

هكذا أصبح خير الدين سيد البحر المتوسط بلا منازع واكتسب احتراما كبيرا هو ورؤساء الأسطول الآخرين من أمثال الرؤساء درغوث ومراد وصالح ، وقد أجبر هذا التقدم الملحوظ في السيطرة البحرية العثمانية الإمبراطور شارل الخامس من على التراجع عن أطماعه في الشمال الأفريقي ، إلي جانب محاولته تجنب أية مواجهة مباشرة مع الأساطيل العثمانية في مياه المتوسط . والجدير بالذكر أنه قد أدى تحالف الدولة العثمانية مع فرنسا في القرن السادس عشر لمواجهة التكتل الصليبي المتحالف بقيادة شارل الخامس إلي بروز فرنسا كدولة قومية خلال القرن السادس عشر ، فالأسطول العثماني في غربي المتوسط كان يحمي جناحها الجنوبي ضد أي هجوم يشنه أعداؤها مما أتاح لملوكها تركيز قوتهم في الشمال وتأمين حدود فرنسا القومية ولقد أتاح هذا التحالف للتجارة الفرنسية حرية الانطلاق وحرية الملاحة في كل الموانئ العثمانية وقد نصت المعاهدة على ألا تبحر أى سفينة أجنبية في المياه العثمانية إلا وهى ترفع العلم الفرنسي.

ولقد عمد خير الدين دائما إلي قصف موانئ شرق اسبانيا ومحاولة مساعدة المورسكيين في الأندلس بالعتاد والسلاح لمقاومة السلطة

الاسبانية ، ولقد قام بتهريب الآلاف من سكان الأندلس المسلمين حيث عمل بعد ذلك على توطينهم في الشمال الأفريقي ، واستطاع تكوين جيش كامل منهم ممن رغب في الانتقام من الأسبان أو الجهاد في سبيل الله ، وهكذا استطاع الأسطول العثماني في ظل رئاسة خير الدين ومن تبعه من رؤساء البحر المجاهدين تدعيم السيطرة العثمانية على غربي البحر المتوسط ، وفيما يلي سنرى كيف استطاعوا دعم النفوذ العثماني وإكمال السيطرة على الشمال الأفريقي.

هوامش الفصل الثالث

١- فرسان القديس يوحنا : هى جماعة دينية صليبية محاربة ، ساهمت بشكل بارز في الحروب الصليبية ، أقامت في جزيرة رودس ولكن بعد طردهم منها على يد العثمانيين أقاموا في جزيرة مالطة بأمر من شارلكان الذي سمح لهم بحكم الجزيرة شريطة مساعدته في حروبه ضد المسلمين ، ولقد انبعثت هذه الجماعة من الجماعة الأم الكبيرة والمشهورة باسم (فرسان المعبد) والتي كان لها شهرة واسعة أيام الحروب الصليبية على المشرق.

٢- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، الجزء الثاني ، ص٩٠٥ ، ٩٠٦.

٣- بارباروسا : تعني ذو اللحية الحمراء ، ولقد أطلق هذا اللقب من قبل على فريدريك الأول إمبراطور الجرمان الذي مات عام ١١٩٠م . لقد اشتهر بهذا اللقب خير الدين باشا أحد الأخوين الذي أسس ايالة الجزائر باسم الدولة العثمانية ، ثم أصبح قائدا للبحرية العثمانية ، كان اسمه يرعب الغرب وسفن الغرب لا بل وكانت الأمهات في أوروبا ترعب أولادها باسمه (انظر : محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، هامش (١) ص٢٠٤).

٤- المرجع السابق ، على الصلابي ، الدولة العثمانية الخ ، ص٢٠٧ ، نقلا عن : صلاح العقاد ، المغرب في بداية العصور الحديثة ، ص٣٧.

٥- عزيز سامح ألتر ، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ، ترجمة : د. محمود على عامر ، دار النهضة العربية – بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٩م ، ص٢٨.

٦- المرجع السابق ، أحمد فؤاد متولي ، تاريخ الدولة العثمانية الـخ ، ص٢٥١.

٧- المرجع السـابق ، عزيـز ألتـر ، الأتـراك العثمـانيون الـخ ، ص٣٩ ، ٤٠ .

٨- المرجع السابق ، ص٤٣.

٩- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوى ، الدولـة العثمانيـة الـخ ، ص٩٠٦.

١٠- المرجع السـابق ، عزيـز ألتـر ، الأتـراك العثمـانيون الـخ ، ص٥٠ ، ٥١.

١١- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوى ، الدولـة العثمانيـة الـخ ، ص٩٠٧.

١٢- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص٤٧.

١٣- المرجع السابق ، ص٥٤.

١٤- شارل أندرى جوليان ، تاريخ أفريقيا الشمالية ، تعريـب : محمـد غزالي / البشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشـر ١٩٨٥م ، ص ٣٢٦

١٥- وهران : هى أكبر مدن الجزائر بعد العاصمة ، تقع بـالقرب مـن حدود المغرب ، يتواجد بها الكثير من المتكلمين بالاسبانية حتى أيام الاستعمار الفرنسي ، كانت وهران أهم معاقل الأسبان في المغرب الأوسط.

١٦- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولـة العثمانيـة دولـة إسلامية الخ ، ص٩٠٧.

١٧- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص٥٤ : ٥٦.

١٨- المرجع السابق ، ص٥٦ : ٥٨.

١٩- تلمسان : هي مدينة تقع في وسط المغرب العربي ، تحتل أهمية كبرى نظرا لأهمية موقعها ومركزها الهام ، كانت تلمسان في منتصف القرون الوسطى مركز المغرب الرئيسي ، وقد ظلت محافظة على أهميتها لفترات تاريخية طويلة ، وموقعها المهم دفع كل من المرابطين والموحدين وبني مرين للتهافت عليها وضمها لأملاكهم ، وفي نهاية العصور الوسطى غدت تلمسان مركزا رئيسيا للمبادلات التجارية بين أوروبا والشمال الأفريقي ، لكن مدينة تلمسان لم تحافظ على أهميتها ففي بداية القرن السادس عشر بدأت في الانهيار بسبب تسلط الأسبان عليها ، وشيئا فشيئا بدأ الإهمال والفساد يسودها، ولكن باستقرار المجاهدين في الشمال الأفريقي غدت أرضا محرمة على الأسبان وقد شعر أبو حمو الثالث بالخطر فاتصل بالأسبان واتفق معهم سرا لطرد المجاهدين قبل أن يستفحل خطرهم على المنطقة (انظر : عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ، ص٥٩ ، ٦٠).

٢٠- المرجع السابق ، ص٦٤ ، ٦٧.

٢١- المرجع السابق ، شارل أندرى جوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية ، ص٣٢٨.

٢٢- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص٦٨.

٢٣- المرجع السابق ، جلال يحى ، المغرب الكبير ، ص٢٣.

٢٤- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص٧١.

٢٥-نص الرسالة : (إننا ندعو بالسعادة والنصر لمقام السلطنة العلية دعاء يبلغها أقصى الأماني فان عبيدها بالجزائر يكتبون إلي مقامها العالي معبرين ومعترفين لمقامكم العالي بالإجلال والتعظيم أبدا ، وان رسالتنا هذه لا تستطيع أن تستعرض كل الأسرار. أن سعادة أيامكم هى فرحتنا ونحن لزام أموركم وطاعتكم مستبشرين وعليكم لا محالة اعتمادنا فظاهرنا كباطننا مخلص لكم أولا وأخرا. فقد أطعنا أمركم وعبيدكم ليس لهم غير حبا بكم يرفعون إليه غاية الإجلال والتقدير وليس لهم من قصد غير شريف مقامكم العالي. لقد جرت حوادث جليلة ولها أخبار طويلة في نصر المؤمنين وهزيمة أعداء الله ومفادها أن طائفة الطاغية لما استولت على بلاد الأندلس ، انتقلوا منها إلي قلعة وهران للاعتداء على سائر البلاد ، غير أنه بعد استيلائهم على بجاية وطرابلس بقيت الجزائر (بين الكفار) كالنقطة وسط الدائرة ، وبقينا لذلك حيارى متأسفين يحفنا الكفار من كل جانب ولكن تمسكنا بحبل الله المتين واتكلنا عليه . غير أن طائفة الطاغية سدت علينا الطلب هادفة إدخالنا تحت ذمته (سلطته) وقد نظرنا في الأمر ورأينا أن المحن والشدائد تشتد وأن الضرورة تقتضي حقن دماء أنفسنا وخوفا على حريمنا وأموالنا و أولادنا من السبي والتفريق تصالحنا مع أهل التثليث (النصارى) وآنا لله وآنا إليه راجعون. وبعد هذه المضايقة والحصار دخل الكفار إلي وهران وبجاية وطرابلس وكان قصدهم أن يأتوا بسفنهم ويستولون علينا ويأسروننا ويشتتون شملنا فجأة . آنذاك قدم ناصر الدين وحامي المسلمين المجاهد في سبيل الله عروج باي مع قلة من الغزاة. فقابلناه بالعز والإكرام واستقبلناه لأننا كنا في خوف (من عدونا) فخلصنا بفضل الله. وعروج باي المشار إليه جاءنا من

تونس لإنقاذ بجاية من يد الكفار. فلما وصل إلي القلعة وحاصـــرها مع المجاهد الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن القاضـــي زلزلــوا أركانها وهدموا بنيانها وشاهد الكفار عندما دخل القلعة المســلمون وهاجموها واستولوا عنوة على برج منها ، اختلال بنيانهم وقــرب حتفهم هرب بعض الكفار الموجودين بالقلعة ومثل الباقون بهم . لقد حارب المسلمون الكفار آناء الليل وأطراف النهــار مــن طلــوع الشمس إلي غروبها وعلى الرغم من ترك بعض من جماعة عروج القتال ، بقى المشار إليه يقاتل الكفار مع جماعة قليلة ، وكان قــد عزم على لقائنا غير أنه وقع شهيدا في حرب تلمسان رحمــه الله . وقد حل مكانه أخوه المجاهد في سبيل الله أبو النصر خيــر الــدين وكان له خير خلف ، فقد دافع عنا ولــم نعــرف منــه إلا العــدل والإنصاف وإتباع الشرع النبوي الشريف ، وهو ينظر إلي مقامكم العالي بالتعظيم والإجلال ويكرس نفسه وماله للجهاد لرضــاء رب العباد وإعلاء كلمة الله ومناط آماله سلطتكم العالية مظهرا جلالهــا وتعظيمها . على أن محبتنا له خالصة ونحن معه ثابتون وكيف لا نحبه وهو المشمر عن ساعد الجد والإقدام ويقود الجهاد معنا فــي سبيل الله بنية خالصة وقلب صادق متفق الكلمة معنا فــي الشــدة والرخاء لإعلاء كلمة الله. ومفاد ما يريد عبيدكم أعلامه لمقــامكم العالي هو أن خير الدين كان قد عزم قصد جنــابكم العــالي إلا أن عرفاء البلدة المذكورة رفعت أيديها متضرعة إليه حتى لا يرتحــل خوفا من الكفار إذ هدفهم هو النيل منا ونحن على غاية الضــعف والبلاء ولهذا أرسلنا إلي بابكم العالي الفقيه العــالم المــدرس أبــو العباس أحمد بن على بن أحمد ونحن وأميرنا خدام أعتابكم العاليــة وأهالي إقليم بجاية والغرب والشرق خدمــة مقــامكم العــالي وان

المذكور حامل الكتاب سوف يعرض لحضرتكم ما يجري في هـذه البلاد من الحوادث والسلام ، أوائل ذي القعدة ٩٢٥ للهجرة. (انظر : عبد الجليل التميمي ، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلـى السلطان سليم الأول عام ١٥١٩م ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية ، تونس ، عدد ٦ ، يوليو ١٩٧٦م ، ص١١٦ : ١٢٠).

٢٦- عبد الجليل التميمي ، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائـر إلـى السلطان سليم الأول عام ١٥١٩م ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية تونس ، عدد ٦ ، يوليو ١٩٧٦م ، ص١١٦ : ١٢٠.

٢٧- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولـة العثمانيـة دولـة إسلامية الخ ، ص٩١١.

٢٨- المرجع السابق ، ص٨٦٦

٢٩- المرجع السابق ، شارل بروكلمان ، تاريخ الشـعوب الإسـلامية ، ص٤٦٨.

٣٠- المرجع السابق ، ص٨٨٧

٣١- المرجع السابق ، شارل بروكلمان ، تاريخ الشـعوب الاسـلامية ، ص ٤٦٩ .

٣٢- المرجع السابق ، ص ٤٧١.

٣٣- المرجع السابق ، عبد العزيـز الشـناوي ، الدولـة العثمانيـة ، ص٨٩٢.

٣٤- معركة بروزة : دارت بـين الـدول الصـليبية المتحالفـة وهـي إمبراطورية شارلكان والبندقية والبابا والبرتغال وبـين الأسـطول العثماني ، بينما الأسطول العثماني يوالي الاستيلاء علـى الجـزر

الايطالية الواحدة بعد الأخرى تجمع قواد الأساطيل المتحالفة في جزيرة كورفو وقد دارت المباحثات فيما بينهم حول تكليف شارلكان بالاستيلاء على الجزائر وتكليف البندقية باسترجاع الجزر التي استولى عليها العثمانيون ، جاء البنادقة الي كورفو أولا ثم تبعتهم أساطيل البابا ، وفي نفس الوقت قام اميرال الأسطول البابوى بالهجوم على قلعة بروزة ثم حاصرها ولما لم يوفق بعد حصاره لها عاد إلي كورفو فور علمه بوصول الاسطول العثماني ، بعد ذلك وصل أندريا دوريا الي كورفو ومعه تسع وأربعون سفينة ، تقدم خير الدين بربروسا بسرعة نحو بروزة بعد أن قصف كفالونيا وذلك لعلمه بتجمع سفن المتحالفين فيها ، ولما لم يتمكن أندريا دوريا من الصمود أما نيران السفن العثمانية قرر التراجع بما معه من سفن المتحالفين ، وانتهت المعركة في ٢٨ سبتمبر عام ١٥٣٩م وكان من نتائجها تحكم العثمانيون الكامل بالبحر المتوسط. (انظر : أحمد فؤاد متولي ، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها وحتى العصر الذهبي ص٢٦١).

٣٥- المرجع السابق ، أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، ص٩٤ ، ٩٥.

الفصل الرابع
إتمام السيطرة العثمانية على بلدان المغرب العربي

- تأسيس نيابة الجزائر.
- فتح تونس والنزاع مع الأسبان.
- الفتح العثماني لطرابلس الغرب.
- حصار مالطة.
- ثورة المورسكيين ومعركة ليبانتو البحرية.
- إعادة الفتح العثماني لتونس.

الفصل الرابع

إتمام السيطرة العثمانية على بلدان المغرب العربي

تأسيس نيابة الجزائر :

بعد أن أصبح خير الدين نائبا عن السلطان العثماني في إقليم الجزائر ، أدرك صعوبة موقفه وضرورة التحرك السريع لمواجهة الأخطار الخارجية والداخلية التي تعيق استقرار الجزائر كايالة عثمانية ، وأدرك مع ذلك وجوب اتخاذ الأعمال العسكرية الحاسمة تجاه الأسبان من ناحية ، ومن ناحية أخرى تجاه القبائل وبعض الأهالي الذين لا يريدون استقرارا للحكم العثماني في الشمال الأفريقي.

ولقد كان خير الدين محقا في تخوفه لأن الأسبان وحكام تلمسان كانوا يخططون للهجوم على الجزائر عقب استشهاد الريس عروج ، ولكنهم قرروا الانسحاب نتيجة للخسائر التي تكبدوها ، لكن هذا الانسحاب بالطبع لن يكون انسحابا أبديا ، بل لتنظيم الصفوف ومعاودة الهجوم مرة أخرى ، فقد كان والي وهران مصمما على إخراج الأتراك من الجزائر ، وكان متفقا في الرأى مع حاكم تلمسان ، لذلك فقد عرض على شارلكان الأخطار الناجمة عن بقاء العثمانيين ، وكان شارلكان لديه نية مسبقة بفكرة شن الحرب على العثمانيين وإرغامهم على الخروج من الشمال الإفريقي نهائيا. وهكذا كلف شارلكان نائبه في جزيرة صقلية بإعداد حملة لاحتلال الجزائر ، وفعلا اتجهت هذه الحملة عام ١٥١٩م أولا إلي وهران ثم بعد اتحادها مع قوات تلمسان توجهت للجزائر.

بدأت القوات الاسبانية بالهجوم ، وخلال يومين من بدء المعركة ظهر الإعياء على القوات الاسبانية ، واستغل الريس خير الدين هذا الإنهاك وقام بتكليف فرقة من خمسمائة شخص لتقوم بحرق أقوات الأسبان ومهاجمتهم على الساحل ، مما خدع القوات الاسبانية وجعلهم

يقومون بترك مواقعهم الدفاعية والهجوم على قوات خير الدين ، فاستغل الأتراك فرصة انسحابهم وانقضوا عليهم بكل قوتهم ، فانـدفع الأسـبان يتسابقون إلي البحر تاركين سلاحهم ، فمات الكثير منهم ومن تمكن مـن النجاة لم يتمكن من ركوب السفن نتيجة للعاصفة البحرية التي هبت آنذاك. ومنذ ذلك النصر المظفرِ على الأسبان فاقت شهرة الريس خيـر الـدين شهرة ونفوذ أخيه الريس عروج[١].

ولم تكن هذه الحملة آخر الحملات الاسبانية ، فقد تبعتها حمـلات أخرى في وقت قصير كان غرضها إنهاء السيطرة العثمانية التي بـدأت تتوسع شرقا وغربا.

ففي عام ١٥٢٠م أرسل خير الدين قوة إلـي تـنس لاحتلالهـا ، فطلب قائد تنس النجدة من اسبانيا التي أرسـلت خمـس عشـرة سـفينة لمساعدته ، ولكن الريس خير الدين قاد بنفسه قوة بحرية وتوجه مباشـرة إلي تنس واحتل قلعتها وأسر خمس سفن وعاد إلي الجزائر . وبينما كانت سفن خير الدين راسية في ميناء الجزائر ، علم خيـر الـدين بوصـول الأسطول الاسباني المؤلف من ١١٠ قطعة بحرية ، وعلى الفور خـرج خير الدين بسفنه من الميناء وشن هجوما بحريا معاكسا على الأسطول ، وكان هجوما مفاجئا من الخلف مما أدى إلي اضطراب الأسطول الاسباني الذي بدأ يتخبط بعضه ببعض ، وأسفرت المعركة عن هزيمة الأسـطول الاسباني هزيمة شديدة ، وتحطمت الكثير من سفن الأسطول ، إلي جانب أسر المئات من البحارة والقباطنة الأسبان[٢].

ولقد عزم خير الدين وبدأ يخطط لإخضـاع تلمسـان وتـونس لسيطرته ، وذلك للأخطار التي تتربص به هناك ، خاصة تـونس التـي كانت تسيطر على الجزائر فيما مضى ، لهذا فان سلطان تونس الحفصي

اعتبر خير الدين من المارقين الخارجين على حكمه فبـدأ هـو الآخـر يخطط لإعادة الجزائر إلي دائرة نفوذه وطرد خير الدين منهـا ، وهكـذا تحالف السلطان الحفصي مع أحمد بن القاضي الذي كان ضمن الزعمـاء المحليين الذين عينهم خير الدين على القبائل حتى تكـون أكثـر هـدوءا واستقرارا . وبذلك أصبحت تلك القبائل التي يتزعمها أحمد بن القاضـي ضمن التحالف بينه وبين السلطان الحفصي ضد الريس خيـر الـدين ، وبحيلة ماكرة أعلن ابن القاضي تحالفه مع خير الدين فـي حربـه ضـد تونس ، وحينما كان خير الدين يحارب القوات التونسـية ، انقلـب ابـن القاضي وجنوده على خير الدين الذي وجد نفسه بين نارين والحق به من جراء هذا خسارة فادحة ، ولم ينج إلا هو والقليل من رجاله .

وعلى أثر هذه الهزيمة التي لحقت بخير الدين ، فقد نفوذه خارج مدينة الجزائر ، كذلك فقد أعلن الجزائريون تمردهم وعصيانهم وأصـبح خير الدين شبه محاصر . وبعد تفكير طويل قرر ترك المدينة والرحيـل منها ، بعد ما تنكر له الأهالي ، ثم نادى الأشراف والأعيان وطلب منهم إقامة صلح مع حاكم تونس ومن معه من الخونة ، ولكنهم لم يتصـوروا مفارقة خير الدين وبدأ الجميع يتساءل عن المصير الذي ينتظرهم بعد ما حققه الريس خير الدين من تضحيات بقصد جعل هذه البلاد نقطة اسـتناد للإسلام ، فكيف يضطر إلي تركها على هذا النحو بعدما عمل خلال ثلاث سنوات على صيانتها ، إضافة إلي ما حققه من انتصارات على الصليبيين والغزاة ، وهكذا رحل خير الدين عن الجزائر متوجها إلي جيجل ، فرحب أهلها بصديقهم القديم هكذا عاد خير الدين إلي حالتـه ووضـعه عـام ١٥١٤م مما تطلب منه العمل من جديد ، ففي جيجل أسس قاعدة له غير

قاعدة جزيرة جربة ، في حين ظلت قاعدة جربة مركزا للمتطوعين القادمين من الأناضول(٣).

وبدأ خير الدين العمل من جديد لإعادة الجزائر إلي النفوذ العثماني ، فأنشأ دار الصناعة وبناء السفن في جيجل حتى يتسنى له بناء أسطول قوى لمعاودة الجهاد ضد القوى المسيحية ، وعن طريق الغنائم التي يتحصل عليها من الأسبان وغيرهم يمكنه استعادة قوته من جديد ومعاودة الكرة على الجزائر لاستعادتها والقضاء على ابن القاضي والموالين له.

وبغية توسيع دائرة هجماته استعان الريس خير الدين بالريس ايدن والريس شعبان وبقية رؤساء البحر وجمعهم حوله مكونا أسطولا بحريا مؤلفا من أربعين سفينة بحرية ، وبدأ بمهاجمة السواحل الأوروبية المطلة على البحر المتوسط فقلبها رأسا على عقب ، وقد أحس سلطان تونس من جراء ذلك بالخطر الشديد ، فلجأ إلي إرسال الهدايا والوسطاء لإجراء الصلح مع خير الدين ، ولكن الريس خير الدين رفض الصلح وصمم على مهاجمته.

في ذلك الوقت تمكن ابن القاضي من حكم مدينة الجزائر وما حولها ، وقام جنوده بسلب ونهب الأهالي ، وارتكاب العديد من المظالم ، فتذكر الأهالي بالحزن والأسى أيام الريس خير الدين وغدوا أكثر ميلا للحكم العثماني. في نفس الوقت لم يغتنم الأسبان فرصة انسحاب الريس خير الدين من الجزائر بعمل أي هجوم ، فاستغل الريس خير الدين الفرصة وقام بتقوية نفوذه المعنوى والمادي فمنح المجاهدين صلاحيات واسعة وقدم لهم الغنائم الكثيرة ، فضمن بذلك جذب أكبر قوة فدائية للعمل معه ، وخلال السنوات الخمس الواقعة بين عامي ١٥٢٠- ١٥٢٥م ،

استطاع استعادة قوته ونفوذه القديم ، علما بأن الدولة العثمانية لم تقدم له أية مساعدات مادية خلال هذه الفترة ، فبفضل حنكتــه وحســن إدارتــه للأمور استطاع تأسيس قوة عسكرية جديدة.

أما الجزائريون فقد ضجروا من تصرفات ابن القاضي وجنوده ، وبدأت غالبية الأهالي تبحث عن وسيلة لتأمين الاتصال مع خير الدين من جديد ، وقد ازداد الأمر سوءا بعد رفض ابن القاضي اســتقبال مســلمي الأندلس المهاجرين الذين نقلوا إلي أرض الجزائر عــن طريــق ســفن المجاهدين البحريين ، وبما أن قوة الريس خير الدين العسكرية قد كبرت وقويت وبإمكانها التحرك والمهاجمة ، وأن النقمــة ازدادت علــى ابــن القاضي بعد تخليه عن المهاجرين الأندلسيين ، فقد جهز الريس خير الدين قواته وأرسل خبرا إلي الجزائريين يعلمهم بقدومه وتأديبه لابن القاضي ، وفي سنة ١٥٢٥م اتجه خير الدين إلي قبيلة ابن العباس واتفق مع سلطانها ، وبعد ذلك التقى خير الدين مع ابن القاضي في وادي بوقدوره ، وخلال ساعات قليلة انهزم ابن القاضي وولى منسحبا ، وعلى أثر هــذا أعلــن عساكر ابن القاضي تمردهم عليه وقطعوا رأسه وقدموه إلي خير الــدين بعدما عبروا عن أسفهم وندمهم لخيانته وأقسموا على مساندته والوقــوف إلي جانبه.

وهكذا استعاد خير الدين الحكم في الجزائر عام ١٥٢٥م ، ودخلها دون مقاومة من الأهالي وعمل مباشرة على إعادة الجزائر التي عرفهــا فبدأ بضرب المتمردين بشدة ، ودأب خلال سنتي ١٥٢٦ و ١٥٢٧م على ملاحقة العصاه وفرض سيطرته من جديد على الساحل الممتد من جيجل وحتى وهران في الغرب الواقعة تحت الحكم الاسباني[٤].

بعد استتباب الأمر لخير الدين في الجزائـر ، وجـد أنـه مـن المستحيل ترك الأسبان في حصن البنيون المواجه لمدينة الجزائر ، والذي لم يستطع أخيه عروج من قبل إخراجهم منه ، ومع تردى أوضاع الجنود داخل الحصن وإهمالهم التام من قبل الأسبان سواء من ناحية التـأمين أو من ناحية التسليح ، قرر خير الدين ضرب الحصن بشدة وإخلائه تمامـا من الحامية الاسبانية لتعزيز سلطانه من جهة ، ولضمان الأمن والسلامة لميناء الجزائر من جهة أخرى ، فأرسل الريس خير الدين عـام ١٥٢٩م خطابا إلي قائد الحصن بضرورة تسليم الحصن ومغادرته مع جنوده فورا لكن قائد الحصن رد عليه بالرفض ، عندئذ نصب خير الدين بطـاريتي مدفعية مقابل القلعة وباشر بقصفها مدة عشرين يوما حتى أحدث خرقا في سورها ، واشتد القتال بين الفريقين حتى انتصر المجاهدون في النهايـة ووقعت الحامية المكونة من سبعمائة جندي في الأسر.

وقد أسر قائد الحصن مارتن دى فرج Martin de verge مـع كبار ضباطه واقتيدوا إلي قصر خير الدين ، ثم أقام خير الـدين حـاجزا للأمواج يصل أطلال الحصن والجزيرة بالساحل ، ويستخدم من ناحيتـه الداخلية كرصيف للسفن وبذلك أوجد ميناءا حصينا وآمنا ترفأ إليه السفن. وإذا كانت سنة ١٥١٩م تعد بداية وصول النفوذ العثماني رسميا إلي شمال افريقيا ، فان استيلاء خير الدين على البنيون سـنة ١٥٢٩م يعـد بدايـة تأسيس ما عرف باسم نيابة الجزائر ، فمنذ ذلك التـاريخ تحـول مينـاء الجزائر إلي عاصمة كبرى للمغرب الأوسط بل ولكـل شـمال أفريقيـا العثمانية بنياباتها الثلاث فيما بعد ، وبدأ استخدام مصطلح الجزائر للدلالة على إقليم المغرب الأوسط ، ولكن ظلت وهران قاعـدة اسـبانية تهـدد الجزائر حتى نهاية القرن الثامن عشر عام ١٧٩٢م(٥).

بعد استتباب الأمر في الجزائر وتأسيس ميناءها ، ذهب خير الدين لتشجيع عمليات الجهاد البحري خاصة ضد الأسبان ، فازدادت بذلك شيئا فشيئا قوة العثمانيين البحرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وأصبحت الجزائر هي عاصمة تلك الغزوات البحرية التي قادها خير الدين باقتدار لضرب النفوذ الاسباني والتجارة الاسبانية ، إلي جانب إنقاذ المسلمين المضطهدين في الأندلس. واستطاع خير الدين بعد ذلك مد منطقة نفوذه باسم الدولة العثمانية ، ورأت الأمارات العربية في دخولها تحت السيادة العثمانية سياجا يحميها من تعرضها للأطماع الصليبية الاسبانية ومن قهرها على اعتناق المسيحية ، لذلك أعلنت تبعيتها للدولة العثمانية ، وما لبث أن مد خير الدين النفوذ العثماني إلي بعض المدن الداخلية مثل قسنطينة.

وقد نجح خير الدين بربروسا نجاحا بعيدا في إنشاء هيكل دولة قوية في الجزائر بفضل المساعدات العسكرية التي كان يتلقاها من السلطان سليمان القانوني ، واستطاع أن يوجه ضربات قوية للسواحل الاسبانية ، وكانت جهوده متميزة في حركة إنقاذ آلاف المسلمين الأندلسيين من الإفلات من قبضة الحكومة الاسبانية واللجوء إلي شمال إفريقيا. فعلى سبيل المثال قام عام ١٥٢٩م بتوجيه ست وثلاثين سفينة خلال سبع رحلات إلي السواحل الاسبانية لنقل سبعين ألف مسلم ، مما جعل مسلمي غرناطة وبلنسية وغيرها يستنجدون بخير الدين لإنقاذهم ، وغدا بذلك خير الدين الحارس الأمامي للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط[٦].

وكان أول نزاع له مع الأسطول الاسباني بعد تسلمه السلطة في الجزائر مع قائد الأسطول الشهير أندريا دوريا[٧] عام ١٥٢٩م ، والذي

هاجم جزيرة شرشال ولكنه فشل في هذا الهجوم . وعقب ذلك خرج بربا روسا إلي البحر على رأس خمس وثلاثين سفينة وقصف موانئ اسبانيا ثم عاد غانما إلي الجزائر . اقتنص بربا روسا الفرصة وحصل على معلومات هامة عن استعدادات الأسبان من الأسرى الذين قبض عليهم هذه المرة ، وزادِ استعداداته لمواجهتهم ، وقد هاجم الأمير الجنوي جزيرة جربة بأسطوله ، إلا انه ووجه بدفاع شديد وانسحب فور وصول بربا روسا[٨].

فتح تونس والنزاع مع الأسبان :

بعد توحيد خير الدين للجبهة الداخلية في الجزائر ، رأى أنه من الواجب عليه في ذلك الوقت إنهاء حكم الدولة الحفصية الضعيفة التي كانت على وشك الانهيار ، فقد كانت أعين شارلكان تتجه إليها مما يمثل أشد الخطر على النفوذ العثماني في شمال أفريقيا.

كان أبو عبد الله محمد الخامس قد تقبل المجاهدين البحريين ومنحهم مكانا في حلق الوادي ، وأجرى اتفاقا معهم ليظفر بنصيب من الغنائم الوافرة التي يتحصلون عليها عن طريق جهادهم ضد الصليبيين ، وقد استمر في حكم تونس إلي أن توفى عام ١٥٢٦م ، فخلفه ابنه أبو عبد الله الحسن والذي اشتهر باسم مولاي الحسن ، وقد عرف بسفاهته وكثرة سفكه للدماء إلي جانب إهماله لأحوال البلاد ، لذلك ضجر السكان من كثرة مظالمه ، وكان يتوجب على خير الدين استغلال تلك الفرصة المواتية ليمد سلطان الدولة العثمانية إلي تونس.

وفي نفس تلك الأثناء استدعى السلطان سليمان خير الدين إلي استانبول عام ١٥٣٣م ، ليعهد إليه بقيادة الأسطول العثماني والإشراف على تنظيمه وتطويره ، فكما سلف الذكر أن الجيش العثماني كان في البر

على قدر كبير من النجاح ، لذلك رأى السلطان سليمان أن يكون للدولة ذلك القدر من النجاح والهيبة في البحر ، خاصة بعد تولي أندريا دوريا قيادة الاساطيل الاسبانية ، فمن له أن يتصدى لهذا القبطان الماهر غير خير الدين بربا روسا. هكذا كان على خير الدين أن يعلن منذ اللحظة الأولى تحديه لأندريا دوريا.

فبعد أن ترك مكانه في الجزائر لحسن أغا نائبا عنه ، تحرك خير الدين مع أسطوله متجها إلي استانبول مصطحبا معه عددا كبيرا من خيرة قادته ، وفي أثناء سيره هاجم سواحل سردينيا وصقلية وجنوة ، وأمام مضيق ميسينا التقى مصادفة بثمان عشرة قطعة بحرية فهاجمها واستولى عليها ، وبعد أن أسر من بها أحرقها أمام المدينة . علم خير الدين بتوجه أندريا دوريا إلي قورون بست وعشرين سفينة ، فكلف خير الدين خمسا وعشرين سفينة بملاحقته ، لكنهم لم يتمكنوا من اللحاق به.

التقى خير الدين مع الأسطول العثماني بقيادة القبطان أحمد باشا في نافارين ، فتوجها سويا إلي قلعة قورون ، وأنقذا المسلمين الموجودين بها ، ومن ثم ذهبا إلي مضيق الدردنيل وبعد استئذانهما من السلطان دخلا استانبول محاطين بالأفراح(٩).

منذ يوم دخول خير الدين استانبول عام ١٥٣٤م وتوليته قيادة الأسطول العثماني ، دخلت البحرية العثمانية عهدا جديدا من التنظيم والقوة ، فقد بدأ خير الدين بصناعة السفن بناء على رغبته الخاصة ، ونظمها ورتبها معتمدا على خبرته السابقة ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت القوة البحرية العثمانية بقيادة رؤساء البحر على قدم مساواة مع القوة البرية التي اعتمدت عليها الدولة العثمانية في معظم حروبها ، وأصبح

الأسطول العثماني مرهوب الجانب من الدول البحرية العظمى من أمثال اسبانيا والبرتغال.

وقد استطاع خير الدين منذ توليه قيادة الأسطول إعلام أندريا دوريا بصفة عملية أنه يفوقه قوة ومهارة وخبرة . ولم تقتصر نشاطات الأسطول العثماني منذ ذلك الوقت على البحر المتوسط ، بل تعدته إلي البحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندي إلي جانب الخليج العربي ، وبفضل هذا الأسطول القوى استطاعت الدولة العثمانية فرض سيطرتها على السواحل الجنوبية للجزيرة العربية وشرق أفريقيا ، إلي جانب المضايق الهامة مثل باب المندب الذي عن طريه أوقف العثمانيون السفن الأجنبية من دخول البحر الأحمر للمحافظة على خصوصية الأماكن المقدسة الحجازية لفترة طويلة من الزمن.

لقد كانت هناك الكثير من العوامل أملت على السلطان سليمان القانوني الاهتمام بمد النفوذ العثماني إلي تونس ، ومن أهم تلك العوامل الموقع الجغرافي في منتصف الساحل الأفريقي وتوسطها بين الجزائر وطرابلس ، وقربها من ايطاليا التي كانت أحد جناحي الإمبراطورية الرومانية المقدسة (وكان جناحها الآخر اسبانيا) ، هذا إلي جانب مجاورتها لجزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا الحلفاء الطبيعيين للإمبراطور شارل الخامس ، وأشد الطوائف المسيحية عداء للإسلام ، ثم الإمكانات الهائلة التي تتيحها موانئ تونس في التحكم في المواصلات البحرية في البحر المتوسط . هكذا تضافرت عدة عوامل على إضفاء أهمية عسكرية على تونس في هذا الصراع الحربي بين السلطان سليمان وبين الإمبراطور شارل الخامس[١٠].

ولم يضيع السلطان العثماني الوقت ويعطي الفرصة لشارل الخامس ليتوجه بأنظاره إلي تونس ، لذلك فقد أعطى أوامره لخير الدين فور تسلمه لقيادة الأسطول ليتوجه رأسا إلي تونس ويستولي عليها ، وان يستغل ظروفها السياسية المنهارة ونفور الناس من الحكم الحفصي لتثبيت أقدام العثمانيين بها.

لقد أدرك خير الدين منذ توليه مهمة قيادة الأسطول أن مهمة طرد الأسبان من الشمال الإفريقي قد ألقيت على عاتقه ، بعد ما لمسه من تلاعب الأسر الحاكمة هناك وموالاتها للأسبان شراء لمصلحتها الخاصة ، هذا بالإضافة إلي أن الدولة العثمانية نفسها لن تكون سندا قويا له لانشغالها بحروبها في أوروبا ضد المجر بالإضافة إلي حرب رودس التي ستستغل كل إمكانيات الدولة.

غير أن السلطان العثماني حاول مساندته ولو بالطرق الدبلوماسية وحتى لا تكون الدولة بمعزل عما يحدث في الشمال الأفريقي ، عمد السلطان سليمان إلي عقد اتفاق مع الفرنسيين بغية تخفيف الضغط عن خير الدين. لقد كانت ثقة السلطان في خير الدين هي الركيزة التي أطلقت يد خير الدين في كيفية استخدامه للأسطول العثماني بجانب استخدام سياسته الخاصة الرامية لإخضاع الشمال الأفريقي ، ومحاولة خلق بعد استراتيجي للدولة العثمانية في الجانب الغربي للبحر المتوسط.

وهكذا غادر خير الدين استانبول على رأس قواته التي تتكون من ثمانين سفينة وثمانية آلاف جندي عام ١٥٣٤م ، في نفس الوقت الذي كان السلطان سليمان يعبر فيه الأناضول متجها لغزو إيران. وقبل أن يتوجه خير الدين بأسطوله لفتح تونس توجه إلي السواحل الأوروبية فهاجمها ونهبها ، وقصد بذلك نشر الرعب في نفوس الأوروبيين تمهيدا للاستيلاء

على تونس ، وحتى يجبر الحكومات الأوروبية على توزيع قواتها لتأمين سواحلها بهدف التصدي لقوات خير الدين(١١).

وبعد ذلك توجه خير الدين على رأس قواته إلي تونس فاستولى عليها عام ١٥٣٤م ، وأعلن تبعيتها للدولة العثمانية وأنهى الحكم الحفصي بها(١٢) ، كما سقطت في يديه المدن الساحلية وتوغلت قواته جنوبا في الداخل وأعلنت القبائل ولاءها للدولة العثمانية ، ولكن السلطان الحفصي مولاي الحسن قد تمكن من الهرب وألقي القبض على أنصاره الذين رغبوا بالمقاومة ، وتوجه مولاي الحسن بعد ذلك إلي الأسبان طالبا عونهم(١٣).

كان لاستيلاء خير الدين على تونس أصداء واسعة في العالم المسيحي ، خصوصا عند الإمبراطور شارلكان الذي كان يدرك جيدا معنى امتداد الحكم العثماني إلي هذا الإقليم الهام الذي يشرف بشكل مباشر على المواصلات بين حوضي البحر المتوسط ، إلي جانب قربه الشديد من أقاليم الدولة الرومانية من الناحية الشرقية ، هذا بالطبع غير تهديد النفوذ الاسباني في قواعده الباقية في الشمال الأفريقي ، وتشجيعا للمورسكيين على مواصلة الهجرة والاستقرار بتونس إلي جانب الجزائر والمغرب. وكانت كل هذه العوامل كفيلة بتوجيه جهود شارل الخامس إلي تونس وإرساله لحملة قوية لطرد العثمانيين وإعادة الحكم الحفصي الموالي له.

ونتبين مدى أهمية تلك الحملة بالنسبة للإمبراطور شارل الخامس من إصراره على قيادتها بنفسه حيث كانت الحملة الأولى له على أفريقيا لذلك فقد حرص على أن تكون قوتها تناسب أهميتها ومن على رأسها ، وقد عين أندريا دوريا والدوق دالب كمساعدين له . وقد ضمت هذه

الحملة قوات ألمانية وايطالية اضافة الي فرسان مالطة الي جانب القوات الاسبانية الأكثر عددا ، وقد تحركت الحملة من برشلونة عام ١٥٣٥م.

وبالرغم من ضخامة حملة شارلكان فقد قرر خير الدين التصدي لها بكل قوته ، لكن مع شدة القصف المستمر والمركز من قبل الأسبان لم تتمكن قوات الريس خير الدين من استخدام المدافع فاضطروا للانسحاب ، ودخلت القوات الاسبانية تونس وعلى رأسها الإمبراطور شارلكان حيث تقدم إليه سلطان تونس مولاي الحسن مع عدد كبير من أنصاره منحنيا أمام قدميه ، معلنا فروض الطاعة والولاء فقبله الإمبراطور وأحسن إليه[١٤].

وهكذا تمكن شارلكان من الاستيلاء على تونس بسبب التفوق العددي والخيانة العربية التي حمل لواءها مولاي الحسن الحفصي وأتباعه ، وأقامت على أثر ذلك البابوية في روما احتفالات كبرى احتفالا بوقوع تونس في يد شارل الخامس العاهل المسيحي ، وقد وافق مولاي الحسن على أن يحكم تونس باسم شارلكان وتحت حمايته ، كما تنازل عن ميناء حلق الوادي[١٥] وغيره من المدن ، هذا بعد أن قامت القوات الاسبانية خلال يومين بسلب ونهب المدينة وقتل أكثر من ثلاثين ألف مسلم ، وأسر أكثر من عشرة آلاف إلي جانب هدم المساجد والمدارس وإحراق الكتب والمخطوطات النادرة ، وأصبحت شوارع المدينة وأزقتها مليئة بالقتلى من الشيوخ والأطفال والنساء ، فغدت المدينة خالية من الأهالي[١٦].

ومنذ ذلك الحين غدت تونس لأكثر من نصف قرن في تنازع مستمر بين العثمانيين من جهة والحفصيين والأسبان من جهة أخرى ، ولكنها استقرت في النهاية في يد العثمانيين الذين استولوا عليها نهائيا عام ١٥٧٤م.

وكان على خير الدين أن يرد ضربة تونس بضربة مماثلة ، فقام بالهجوم على جزر البليار الاسبانية وعلى سواحلها الجنوبيـة ، فاجتـاز مضيق جبل طارق وأطلق العنان لسفنه بالانقضاض على السفن الاسبانية والبرتغالية ، خاصة المحملة بالذهب والفضة(١٧) إلي جانب أخذه لأكثـر من ستة آلاف أسير مسيحي عاد بهم إلي الجزائر.

ومنذ ذلك الوقت لم تتوقف أعمال خير الدين البحرية ، لكنه ركز جهوده كقائد أعلى للأسطول العثماني في الحوض الشرقي للبحر المتوسط تاركا الحوض الغربي لوالي الجزائر حسن أغا(١٨) الذي أبلى بلاء حسـنا واستطاع أن يملأ الفراغ الذي تركه خير الدين في الجزائر بالإضافة إلي الجهاد البحري خاصة ضد شارلكان ، فاكتسبت الجزائر مهابة عظيمة في عهده ، حتى انه عام ١٥٣٩م ركب هو ورجاله على ظهر ثلاث عشـرة سفينة واندفعوا إلي الساحل الاسباني الجنوبي وتوغلوا فيه وغنموا الكثير من الأسرى والسبايا ، وفي طريق رجوعه اعترضـت طريقـه عمـارة اسبانية ، لكنه استطاع التغلب عليها ودحرها(١٩).

وهكذا وجد الإمبراطور شارل الخامس أن انتزاعه لتونس من يد العثمانيين لم يؤد إلي نتيجة جزرية ، بل ازداد الأمـر سـوءا بازديـاد الغارات التي يقوم بها المجاهدون على السواحل الأوروبية ، فوجد أنه من الضروري التوجه إلي عمل عسكري حاسم مـن شـأنه انتـزاع شـأفة العثمانيين من الشمال الأفريقي نهائيا ، وأن هذا العمل العسكري لابـد أن يكون في الجزائر مركز الغارات البحرية ومأوى الهاربين من الأندلس ، وقاعدة السلطان سليمان القوية والحصينة تجـاه السـواحل الاسـبانية ، خصوصا بعد الأنباء الحزينة التي وصلته من أوروبا اثر نجاح جيـوش

السلطان سليمان في الاستيلاء على مدينة بود وتحويل أكبر كنائسها إلـــي مسجد(٢٠).

أصر شارل الخامس على التوجه بأكبر أسطول قام على الإشراف عليه وإحضاره ، ويبدوا أنه من أكبر التجمعات البحرية المقاتلـــة التـــي ظهرت في القرن السادس عشر ، حيث كان البحارة والجيش خليطا مـــن مختلف أصقاع الإمبراطورية الاسبانية ، وكان هدف الحملة هو الاستيلاء على الجزائر واجتثاث العثمانيين من البحر المتوسط ، فقد كان الأســـبان يعتقدون أنه لولا بروز العثمانيين بالمغرب لأمكنهم إنشاء مملكة مسيحية على السواحل المغربية(٢١).

وفي صيف ١٥٤١م قام شارلكان بتجهيز جيشه وأسطوله وأمـــر بالتوجه إلي الجزائر، فبلغها في نفس العام ، وقد شارك في هذه الحملـــة نبلاء اسبانيا وايطاليا وألمانيا كجنود متطوعين إلي جانب فرسان مالطة ، وكان الأسطول يتكون من خمسمائة وست عشرة سفينة من السفن الحربية وناقلات الجند ، وعهد بقيادة هذا الأسطول إلي عدد مـــن كبـــار القـــادة البحريين كان من بينهم أندريا دوريا ، وقد تمكنت تلك الحملة من النزول بسهولة إلي البر في جهة مجاورة لميناء الجزائر في يوم الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٥٤١م(٢٢).

ما أن تمت عمليات الإنزال بسلام حتى اكفهر الجـــو ، وهطلـــت الأمطار بغزارة ، وهبت ريح عاصف استمرت عدة أيام ، اقتلعت فيهـــا خيام جنود الحملة وارتطمت سفنهم بعضها بعض ، وأصـــبح الأســـطول الاسباني مهددا بالغرق ، ولقد بدأ في الانسحاب هو والجـــيش المتمركـــز على الساحل ، وانتهز حسن باشا هذه الفرصة وانقض بهجـــوم مفـــاجئ وأعمل السيف فيهم قتلا وفتكا ، وانهزم الأسبان وبدأت القـــوات البريـــة

والبحرية في الانسحاب ، وانتهز الأهالي هذه الفرصة وانقضوا عليهم من كل حدب وصوب ، فأخذوا غنائم لا تحصى بالإضافة إلي الأسرى . هكذا منى الأسبان بهزيمة مروعة حتى أن الإمبراطور شارلكان شوهد لأول مرة وهو يبكي ، بل انه قد انتزع تاجه من على رأسه وألقاه في البحر ، وبعد رجوعه إلي اسبانيا ترك عرشه واعتزل الدنيا وتستر في معابد الرهبان متأثرا بما حل به(٢٣).

كان من أهم العوامل التي ساعدت على إلحاق الهزيمة بالإمبراطور وحملته القوية ، هو التفاف الجزائريين حول حسن أغا باشا واهم من ذلك النجدات العسكرية التي بعث بها السلطان سليمان إلي حسن أغا والتي نظر إليها أهل الجزائر ومسلمو اسبانيا على السواء باعتبارها تعزيزا لشوكة المسلمين ، وكانت هذه الهزيمة هي أكبر هزيمة منى بها الإمبراطور شارلكان في حياته ، وقد شبه أهل الجزائر هذه الهزيمة بهزيمة أصحاب الفيل التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، فقالوا في رسالة أرسلوها الي السلطان سليمان ، أن الله سبحانه وتعالى عاقب شارل الخامس وجنوده (بعقاب أصحاب الفيل ، وجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم ريحا عاصفا وموجا قاصفا ، فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل ، ولا نجا منهم من الغرق إلا قليل)(٢٤).

وبذلك استطاع العثمانيون دحر الجيش الصليبي ، والانتقام مما فعلوه في تونس من سلب ونهب وتقتيل ، وأصيبت أوروبا والعالم المسيحي بخيبة أمل نتيجة لدمار الجيش والأسطول الاسباني ، وتكونت لديهم قناعة بأن الجزائر مدينة لا تقهر ، كما أن معنويات المسلمين ارتفعت بشكل كبير إلي جانب الغنائم العظيمة التي حصلوا عليها . وقد هزت هذه الهزيمة مركز الأسبان في وهران مما دعا حاكمها الكونت

الكوديت لأن يسارع طالبا نجدات عاجلة من اسبانيا ، لكن اسبانيا وحروبها في القارة الأوروبية لم تمكنها من نجدة قواتها ، مما مكن العثمانيون من تشديد الحصار على وهران وغيرها من مراكز الأسبان ، بل واستطاعوا عام ١٥٥٨م أن يوجهوا ضربة قاصمة للجيوش الاسبانية قرب مستغانم فأسروا ١٢ ألف أسير ، وأحاطوا بالبقية الباقية منهم ، وكان ممن قتل في المعركة الكونت الكوديت حاكم وهران نفسه ، الذي كان على رأس القوات الاسبانية الزاحفة صوب مستغانم(٢٥).

كف الأسبان عن مهاجمة الجزائر منذ هزيمتهم عام ١٥٤١م ، لكنهم نقلوا الصراع بينهم وبين القوى الإسلامية العثمانية إلي تونس ، فقد استطاع أندريا دوريا الاستيلاء على عدة مدن في إقليم تونس مثل صفاقص وسوسة ومناستير ، مما أثار سخط السكان على بني حفص لتخاذلهم أمام القوى الصليبية . وفي هذه الأثناء ظهر قائد بحري عثماني هو دارغوث باشا(٢٦) ليملأ الفراغ السياسي والحربي في تونس على نحو ما فعل الأخوان عروج وخير الدين ، واستطاع دارغوث أن يتخذ من طرابلس التي أصبحت نيابة عثمانية قاعدة عسكرية من قواعد الجهاد الديني البحري في شمال أفريقيا(٢٧).

وقبل أن نتحدث عن إتمام فتح العثمانيين لتونس وما صاحبه من حوادث وصراعات بين القوى السياسية الكبرى في البحر المتوسط ، لابد لنا أولا أن نتطرق إلي فتح طرابلس الغرب وإخضاعها للنفوذ العثماني.

الفتح العثماني لطرابلس الغرب :

لم تكن طرابلس الغرب مطمع للقوى الصليبية في العصور الحديثة فحسب ، إنما كانت كذلك منذ العصور الوسطى ، حيث استولى عليها النورمان سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م وبقى الوجود النورماني ماثلا فيها

حتى قام عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين بطردهم من آخر معاقلهم بالشمال الأفريقي عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م[٢٨].

وحينما دب الوهن في جسم الدولة الموحدية منذ القرن الثالث عشر ، عادت القوى الصليبية لممارسة نشاطها ، فتارة توجه إليها الحملات الصليبية ، وتارة أخرى يهاجمها القراصنة ، وتحاك المؤامرات ضدها تارة ثالثة. ولعل في ذكر حملة الجنوويين على طرابلس عام ٧٥٥/١٣٥٤م ما يدل على ذلك ، وازدادت ضراوة الهجوم الصليبي عليها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، حينما حمل النصارى الأسبان لواء الحركة الصليبية ، وبدأوا يضربون سواحل المغرب الشمالية من برقة الي طنجة[٢٩].

فقد كانت طرابلس الغرب إحدى موانئ أفريقيا الهامة ، وكان يصدر منها جزء لا يستهان به من منتجات قلب القارة الأفريقية[٣٠].

أما في مطلع القرن السادس عشر فقد كانت طرابلس منطقة إستراتيجية خطيرة بالنسبة لحركة التجارة مع داخل أفريقيا ، وهي المأوى الوحيد والمفضل للقوافل الصحراوية الوافدة من السودان والمحملة بالتوابل والذهب وتجارة العبيد . كما أن طرابلس الغرب تعد – على صعيد المواجهة البحرية – خطا ساحليا ذا أهمية قصوى لتأمين حرية التجارة والنقل في عرض البحر المتوسط ، كما أن واجهتها القريبة من مالطة وايطاليا وحتى الجزر الشرقية ، قد أعطى لهذا الإشراف العسكري حيوية كبيرة[٣١].

ولقد كانت طرابلس الغرب منذ مستهل القرن السادس عشر تشهد أحولا سياسية مضطربة ، فهى تارة تتبع السلطة المركزية للسلطان الحفصي في تونس ، وتارة أخرى منفصلة عنه ، لذلك طمع بها الأسبان

لأهميتها الإستراتيجية ، فعملوا علـــى احتلالهـــا عـــام ١٥٠٩م ، حيـــث اكتسحت المدينة من قبل الأسبان بعد حرب عنيفة قتل فيها معظم أهلها ، وألحقت إدارتها بصقلية التي كانت حينذاك تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة . وفي عام ١٥٣٠م تركها الأسبان لفرسان مالطة الذين استطاعوا بالاستناد إلي جزيرة مالطة وطرابلس إلحاق أشـــد الضـــرر بالمســـلمين ومراكبهم ومواصلاتهم(٣٢).

لقد كان فرسان مالطة وهم فرسان القديس يوحنا متمركزين فـــي بادئ الأمر في جزيرة رودس(٣٣) ، حيث كانوا يقومون بتهديـــد مباشـــر للتجارة الإسلامية وطرق التجارة ، كما كانوا يقومون بتهديـــد الطريـــق البحري للحجاج المسلمين ، لذلك فقد قرر السلطان محمـــد الفـــاتح فـــتح جزيرة رودس ، وضرب عليها الحصار ثلاثة أشهر لكنه لم يتمكن مـــن افتتاحها ، لذلك حرص أيضا السلطان سليم الأول علـــى فـــتح الجزيـــرة وطرد فرسان القديس يوحنا الذين يعيثون في الأرض فسادا ولكنه مـــات قبل إتمام مشروعه. ومن هنا طلب السلطان سليمان القانوني مـــن قادتـــه متابعة أحوال هذه الجزيرة وإعطاء معلومات وافيـــة عنهـــا . فوجـــد أن التعاون قائم بين رودس وجزر البندقية لمحاربة المسلمين وإيقاع الضرر بهم في كل وقت ، وأن أعمال السلب والقرصنة تنطلق في معظمها مـــن جزيرة رودس ، وما يتبعها من جزر ، هكذا وجد أن هذه الجزيرة هـــي مصدر الخطر الأساسي الذي يهدد الطريق البحري الذي يربط عاصـــمة الدولة و موانيها في البحر المتوسط والبحر الأحمر ، هكذا قرر السلطان سليمان فتح هذه الجزيرة . فجهز حملة بقيادة القائد العثماني بيري باشـــا إضافة إلي مائتي ألف جندي عثماني تحت قيادة مصطفى باشا ، وفتحـــت الجزيرة بعد حرب ضروس وقتال عنيف عام ١٥٢٢م ، ومنح الســـلطان

سليمان فرسان القديس يوحنا حرية الانسحاب من الجزيرة ومنح الأمـــان والحماية لأهل الجزيرة(٣٤).

هكذا غادر فرسان القديس يوحنا الجزيرة بعد تسليمها للعثمانيين ، واتخذوا جزيرة مالطة(٣٥) قاعدة لهم ، حيث تنازل لهـم الملـك شـارل الخامس عن الجزيرة في مقابل مساعدته في حروبه ضد المسلمين ، إلي جانب هجماتهم المستمرة ومزاولتهم القرصنة البحريـة ضـد المراكـب الإسلامية العابرة للبحر المتوسط.

ولقد ازداد الأمر سوءا بعد استيلاء فرسان مالطة على طرابلس ، التي شكلت مع مالطة ركيزة كبيرة لحركة القرصنة البحرية المسيحية ضد المسلمين ، هكذا أدركت الدولة العثمانية خطورة ذلك الوضع وخطـورة الأوضاع عامة في المغرب الإسلامي ، وحول هذا الأمر اهتمـام قـادة الدولة من قلب أوروبا إلي تقوية أسطولهم البحري وتعزيز نشاط البحارة العثمانيين ، وهذا ما تفسره الرؤية العثمانية الجديدة في فتح تونس على يد خير الدين سنة ١٥٣٤م ، ثم فيما بعد تعزيز نشاط دارغوث رايس وإحكام وجود مراد أغا بتاجوراء التي لا تبعد كثيرا عن مدينة طرابلس(٣٦).

يقترن ذكر طرابلس الغرب باسم كبير من أسماء البحرية العثمانية ألا وهو دارغوث رايس ، الذي لا يقل كفاءة ومهارة عـن خيـر الـدين بارباروسا ، ولقد تشابهت حياته بحياة الريس خير الدين في كثيـر مـن الأوجه ، فقد عمل بالجهاد البحري وأسـر مراكـب النصـارى ، وقـام بالهجوم على الموانئ والسواحل الأوروبية ، هذا إلي جانب أنه وقع فـي الأسر وخلص منه على يد خير الدين الذي عمل معه الكثير من الوقت.

وفي الواقع إن الريس دارغوث قد فكر في تأسيس إمارة بحريـة تكون قاعدة له ، مثل إمارة آل برباروسا في الجزائر . بحث دارغـوث

عن مكان مناسب في أفريقيا الشمالية غير الجزائر ، فوجد أن البلدان الساحلية الواقعة شرقي تونس مناسبة جدا وهي ليست بيد النصارى ، كما أنها لا تقع تحت حكم أمراء تونس ، وفي سنة ٩٣٩هـ/١٥٣٢م حضر الريس دارغوث أمام المهدية ، وهي واحدة من أقوى القلاع التونسية ، وكان سكانها يبغضون حكامهم المحتمين بالنصارى ، لذا فان الريس دارغوث احتل المدينة والقلعة دون مقاومة(٣٧) ، وقام بتشكيل إمارة بالسواحل التونسية وثبت قواعد نشاطه البحري من عام ١٥٣٢م إلي ١٥٤٩م.

ومنذ استيلاء الريس دارغوث على المهدية ذات الموقع الحصين بدأ في الاستيلاء على مدن السواحل التونسية المدينة بعد الأخرى ، هذا فضلا عن محاولاته لعرقلة المرور الأوروبي وضرب الموانئ الاسبانية وخاصة الايطالية ، وقد استند في ذلك إلي نوع من البواخر السريعة الحركة ، بالإضافة إلي خبرة طويلة بالبحر وبالسواحل الأوروبية. هذا ما جعل شارل الخامس يعده أكثر خطورة من خير الدين برباروسا ، وهو الموقف الذي جعل شارل الخامس يعمل على استرجاع المهدية من دارغوث(٣٨).

بعد نجاح شارل الخامس في استرداد تونس من يد خير الدين عام ١٥٣٤م ، كان على مولاي الحسن الحفصي- الذي حكم تونس نيابة عن الأسبان- تسليم بونة والمهدية إلي شارل الخامس عملا بمنطوق المعاهدة التي تمت بينهما ، وبما أن المهدية كانت في حوزة دارغوث فان مولاي الحسن لم يستطيع الوفاء بوعده ، لذلك عمل شارل الخامس على استعادة المهدية من يد دارغوث. وقد قام بالفعل أندريادوريا بحملة ساهم فيها فرسان مالطة واستطاعت هذه الحملة احتلال سوسة ثم المانستير، ثم

الاستيلاء على المهدية. إن سقوط المهديـــة واســتفحال تقــدم الأســبان بالأراضي التونسية وضرب شوكة العثمانيين بالايالات المغربية زاد من اهتمام العثمانيين بهذه المنطقة ، ودفع السلطان سليمان إلي رد فعل سريع في توجيه الاسطول العثماني لاسترجاع المهدية ووضع حــدا لفرســـان القديس يوحنا بطرابلس الغرب(٣٩).

عاد الريس دارغوث إلي المياه العثمانية بعد أن فقد المهدية عــام ١٥٥٠م ، وعند عودته تلاقى مع الأسطول العثماني الذي كان تحت قيادة سنان باشا ، وتبادل الأسطولان التحية باطلاق المدافع من سفن الطرفين . ولما شاهد سنان باشا ما عليه مراكب الريس دارغوث من تنظيم وسرعة في إطلاق المدافع ، فكر في ربط دارغــوث بخدمـــة الدولـــة العثمانيـــة والاستفادة من قوته ، فرغبه في الذهاب إلي استانبول وخدمة الســلطان ، فقبل دارغوث وتوجه إلي استانبول مباشرة(٤٠).

قابل دارغوث السلطان سليمان القــانوني ، وأحــاط المســئولين العثمانيين علما بطبيعة السياسة الاسبانية وأنه يخشى خطرهم القريب على كل من طرابلس الغرب والسلطان الحفصي ، فضلا عن ســلامة تنقــل الأسطول العثماني في هذه المنطقة . وعلى ضوء هذه التقارير تقــررت الحملة العثمانية على طرابلس الغرب ، وتقرر الاستفادة من خبرة الريس دارغوث بتلك السواحل.

كان الأسطول العثماني المتجه إلي طرابلس مكــون مــن ١٢٠ سفينة شراعية عثمانية أسندت قيادتها لسنان باشا القائد العــام للأســطول العثماني ، وكان يسانده في ذلك الريس دارغوث بسفنه الخاصـــة التـــي بلغت حسب المصادر خمسين سفينة ، كذلك صالح بــأي حــاكم رودس. وبدأت المعركة بين الجيش العثماني والحامية المالطية في طرابلس عــام

١٥٥١م ، حيث كانت الحامية معزولة تماما عن الاستنجاد الخارجي ، مما جعلها بعد مدة تطالب بالاستسلام ، فسمح لها بالخروج إلي مالطة وصقلية[٤١].

هكذا وقعت طرابلس الغرب في يد العثمانيين ، والذي أدي إلي تصاعد الصراع الإسلامي المسيحي في البحر المتوسط عامة وفي الشمال الأفريقي خاصة.

ولقد استفاد العثمانيون كثيرا من وقوع طرابلس في أيديهم ، فقد تحولت تجارة أفريقيا – التي تركزت في تاجوراء – إليها ، حيث ازدادت حركة التبادل التجاري المتمثلة في التوابل والعبيد والذهب بين طرابلس وداخل أفريقيا. كما أن سقوط طرابلس في يد العثمانيين قد نبه أوروبا المسيحية إلي الخطر الكبير الذي تمثله هذه القوة الصاعدة التي تسعى إلي مزيد من الانتصارات العثمانية على الساحل الأفريقي والذي من شأنه تهديد الدول الأوروبية ، فضلا عن تهديد آخر المعاقل الاسبانية في حلق الوادي ووهران . وقد عهد سنان باشا بإدارة طرابلس إلي مراد أغا حاكم تاجوراء ، لكن لن تظهر طرابلس الغرب ولن تلعب دورها السياسي والعسكري إلا في عهد إدارة الريس دارغوث ، الذي تولى إمارة طرابلس عام ١٥٥٨م بفرمان سلطاني.

بعد تولي دارغوث باشا إمارة طرابلس ، بدأ في العمل على السيطرة التامة على الإمارة ، وإخضاعها بشكل كامل للإدارة العثمانية بواسطة عقد تحالفات محلية ، إلي جانب اهتمامه بمداخل البلاد وصحرائها ليس فقط بالسواحل ، كما ركز على تقوية التحصينات الدفاعية بالبلاد وجلب المزيد من الانكشارية لمضاعفة قوة الحامية.

بإخضاع طرابلس الغرب بقيت تونس وخاصة الأجزاء الداخلية تقف حاجزا في سبيل توحيد إمارات الشمال الأفريقي ، وقد شغل وضع الوسط والجنوب التونسي دراغوث باشا ، وأراد العمل لإخضاع المنطقة وضمها للنفوذ العثماني ، وهكذا بدأ التخطيط مع أمير الجزائر حسن باشا بن خير الدين لضرب قلعة حلق الوادي وتونس . ومن المعلوم أن منطقة القيروان كانت تخضع للشابيين والمهدية للأسبان ، وجربة للشيخ سليمان وقفصة لأتباع الشابية ، هكذا رأى دارغوث باشا أن الوقت مناسبا للقضاء على هذه التجزئة الإدارية وضرب النفوذ الاسباني بالبلاد .

بدأ دارغوث باشا فعلا تنفيذ مخططه بإخضاع تونس والقضاء على الزعامات المحلية ، فزحف على قفصة ودخلها عام ١٥٥٦م ، حيث استقبله الأهالي كمحرر لها ثم توجه إلي جربة فاستولى عليها وترك قيادة القلعة للقائد العثماني قلج على[٤٢] وبجربة أقام دارغوث البرج الكبير للدفاع عن الجزيرة ، ثم انطلاقا من هذين الموقعين سهل على دارغوث دخول صفاقص.

أما عن القيروان فقد استطاع الشابيون اتخاذها قاعدة لدولتهم منذ عام ١٥٣٢م ، ثم ان مكانتها الدينية جعلتها محط الطرق الصوفية والدعوات الدينية الصوفية ، وهذا ما يفسر نجاح الشابيين نجاحا مطلقا وقدرتهم على مجابهة الحفصيين سنوات عديدة ، لذلك سعى دارغوث باشا لخلق حزام حول القيروان ، مداره المهدية التي جلاها الأسبان وسوسة وقفصة وصفاقص ، وفي النهاية استطاع دارغوث باشا تصفية الشابيين واسقاط دولتهم في القيروان ، ودخل دارغوث القيروان عام ١٥٥٧م واستقبله أهلها بالترحاب ، واستطاع دارغوث باشا بعد ذلك توطيد نشاطه في كامل الجنوب التونسي ، وتقوية الحزام البري حول طرابلس وعلى

السواحل التونسية ، وجعل تحركه البحري في اتجاه السواحل الصقلية أكثر نجاحا[٤٣].

سيطر العثمانيون سيطرة تامة على شرقي البحر المتوسط منذ مطلع النصف الثاني من القرن السادس عشر ، ثم انطلاقا من ظهور دارغوث باشا بدأوا في الظهور قرب السواحل الغربية حيث كانوا يقومون بزيارات دورية ، الغرض منها تدعيم نشاط المغاربة والرفع من معنوياتهم والدفاع عن سلامة الأراضي العثمانية ، بالإضافة إلي أن في عهد دارغوث استطاع العثمانيون ضرب المصالح التجارية الاسبانية بشكل أكبر فضلا عن زيادة عدد الغارات على السواحل الأوروبية.

كل هذه العوامل حتمت على فيليب الثاني ملك اسبانيا الجديد ، السعي إلي تصفية الخلافات السياسية مع أعداء اسبانيا التقليديين خاصة فرنسا ، وتكتيل جهودهم للوقوف بنجاح هذه المرة ضد خطر تزايد التأثير العثماني في المنطقة ، وضرب (القراصنة) وتقويض هياكلهم العسكرية والإدارية.

وبالفعل سيمكن صلح (كاتوا- كامبرسيس) الذي عقد عام ١٥٥٩م من تحقيق هذه الإغراض ، فقد سوى الخلاف بين اسبانيا وفرنسا وأعطى أوروبا أول فرصة للتخطيط لعمل جماعي منسق ، وقد تحالف إلي جانب اسبانيا وفرنسا البندقية والحكومات الايطالية الجنوبية والبابا وفرسان مالطة ، للقيام بهجوم جماعي ضد من اعتبر الخطر الرئيسي على سلامة الإمبراطورية الاسبانية ، ألا وهو (الريس دارغوث)[٤٤].

هكذا عمل فيليب الثاني على التخطيط لحملة على طرابلس للتخلص من دارغوث باشا ولإضعاف النفوذ العثماني بقدر الإمكان ، وبالفعل أمر الملك فيليب نائب صقلية بالقيام بحملة برئاسته ضد طرابلس

، وقد علمت الدولة العثمانية بتلك الحملة وبتجهيزاتها العسكرية ، لكن الدولة العثمانية في تلك الأثناء عام ١٥٥٩م كانت في وضع دقيق جدا ، فقد قام البرتغاليون بالسيطرة على خليج البصرة وبعض أجزاء البحر الأحمر ، وتشكلت في تلك المياه أهم تحركاتهم البحرية مهددة السواحل العثمانية . كذلك كان الخطر الروسي يتحرك في اتجاه البحر الأسود وبحر أوزون ، كذلك وجود مجموعات نشطة من القراصنة الأوروبيين ببحر الأدرياتك وبحر ايجه لخلخلة الأمن بفضل ما تقوم به من اعتداءات على السواحل العثمانية . كل هذه العوامل كانت تؤثر في سياسة الدولة العثمانية وتوجيهها نحو توزيع اهتماماتها تجاه أهم المشاكل التي تتعرض لها الإمبراطورية(٤٥).

على الرغم من كل هذا تهيأ الباب العالي لتلك الأحداث التي تجري غربي المتوسط ، خاصة بعد ما أحيط علما بتفاصيل الحملة الاسبانية على طرابلس.

لقد كلف بيالي باشا قائد الأسطول العثماني بالتوجه نحو المياه الطرابلسية ، الي جانب إعطاء الأوامر لعدد من الحكام بالالتحاق ببيالي باشا وإنقاذ طرابلس ودارغوث باشا من تلك الحملة . أما عن الأسطول الاسباني فقد مر بمالطة لزيادة التجهيزات والتموينات ، ثم اتجه إلي طرابلس عام ١٥٦٠م ، لكنه لم يقم بأية نشاطات معادية نظرا لرداءة الطقس ، واضطر في النهاية إلي التحول إلي جربة فاستولى عليها بسهولة.

وفي هذه الأثناء وصل إلي علم قادة الحملة الأوروبية خبر وصول الأسطول العثماني ، ويؤكد برودال أن الأسطول قطع المسافة من استانبول والسواحل الليبية خلال عشرين يوما ، وهذه المدة قصيرة جدا

وغير مألوفة تماما. وقد توجه بيالي باشا رأسا إلي جربة ، وكان يعــزز قيادته خبرة قلج علي باشا فضلا عن دارغوث ، وقد باغــت الاســطول المسيحي في الجزيرة ودارت بعض المعارك الحربية التي أدت في النهاية إلي انتكاسة الأسطول الأوروبي ، الذي خسر الكثير من أفــراده وقطعــه البحرية ووقع الباقي في الأسر ، وقد شكلت رؤوس الضحايا مــا أطلــق عليه تاريخيا (برج الرؤوس) ، الذي بقى رمزا حتى التدخل الفرنسي في الجزائر في القرن التاسع عشر ، حيث أجبرت فرنسا باي تونس على أثر معاهدة نص أحد بنودها الســرية علــى تــدمير بــرج الــرؤوس عــام ١٨٣٢م(٤٦).

أدت خسارة الأساطيل الأوروبية أمام الأسطول العثماني في حملة جربة عام ١٥٦٠م إلي العديد من النتائج الهامة التي تمثلت في تأكيد ربط الولايات المغربية بالمركز القادر على مجابهة الأخطار الخارجية التــي تمس أبعد الولايات الخاضعة له.

ولقد أدى انتصار جربة إلى انضواء جميع الأراضي الطرابلســية إلي جانب الجنوب والساحل التونسي تحت لواء دارغوث باشــا ، والــي ازدياد قوته البحرية هو ووالي الجزائر حسن باشا ، مما أدى الي السيطرة ليس فقط على شرق وغرب البحر المتوسط بل وأيضا على مركزه ، هذا إلي جانب تهديد آخر المعاقل الاسبانية في الشمال الأفريقي والتي تمثلــت في حلق الوادي في تونس ، ووهران في الجزائر. لقد كانت سنة ١٥٦٠م قمة التفوق للأسطول العثماني علــى صــعيد الســيطرة والانتصــارات البحرية.

حصار مالطة :

لقد كان فرسان القديس يوحنا من ألد أعداء المسلمين ، فقد وهبوا أنفسهم لقتال المسلمين والتضييق عليهم بشتى الوسائل الممكنة ، كما فعلت معظم الجماعات الدينية الصليبية منذ انطلاق الحملات الصليبية الأولى على المشرق.

لذلك كان تمركز فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس جعلها قلعة حصينة يلجأ اليها اللصوص وقطاع الطرق ، وكل من له مصلحة في مهاجمة المسلمين ، لذلك اهتم السلاطين العثمانيون منذ عهد السلطان محمد الفاتح في الاستيلاء على هذه الجزيرة والتخلص من شرها ، وكما سبق القول لم يستطع فتحها سوى السلطان سليمان القانوني عام ١٥٢٢م ، لكنه منح الأمان لفرسان القديس يوحنا ولم يمسهم بسوء وأعطاهم حرية الانسحاب ، وكان هذا من الأخطاء التي أدت بعد ذلك إلي تمركزهم من جديد في جزيرة مالطة بعد أن أهداهم اياها الإمبراطور شارل الخامس على أن يكونوا حلفاؤه في حربه ضد المسلمين خاصة في الشمال الأفريقي.

وبعد أن شعر المسلمون في شرق البحر المتوسط بالأمان بعد استيلاء العثمانيون على رودس ، بدأ فرسان يوحنا الخروج عليهم مرة أخرى من جزيرة مالطة ، لكنهم في هذه المرة أكثر تحصينا وأقوى عتادا إلي جانب أنهم أصبحوا حلفاء للإمبراطور شارلكان ، الذي اتخذهم أداة من ضمن أدواته لشل حركة الملاحة الإسلامية بين حوضي البحر المتوسط بعد أن تمركزوا في مالطة ذات الموقع الاستراتيجي ، فضلا عن وقوعها بالقرب من الساحل الأفريقي ودعمها إلي آخر المعاقل الاسبانية في حلق الوادي ووهران والمرسى الكبير.

وأمام كل هذه المتغيرات جمع السلطان سليمان مجلس الشورى في استانبول لأخذ رأيهم في التهديدات التي تتعرض لها الدولة ، فأشار عليه المجلس بفتح جزيرة مالطة أولا وقبل كل شئ ، لأن فرسان القديس يوحنا الذين تمركزوا فيها هم أساس كل الاضطرابات[٤٧].

وكان دارغوث باشا قد أدرك جيدا حساسية موقع جزيرة مالطة وخطرها على الملاحة الإسلامية وسلامة الولايات العثمانية في الشمال الأفريقي ، لكنه مع هذا قد وقف موقفا معارضا هو والقائد قلج على باشا اللذان ألحا على توجيه الحملة إلي قلعة حلق الوادي ووهران ، باعتبارهما امتداد للرقعة العثمانية الإسلامية وأن خطرهما أشد تأثيرا ، هذا خلافا لمالطة التي تعتبر أحد القلاح المحصنة المسيحية ، والبعيدة عن الأراضي العثمانية. مع هذا فان الرؤية العامة للإستراتيجية العسكرية والبحرية العثمانية حولت اهتمامها الي مالطة بادئ الأمر[٤٨].

هكذا كلف السلطان سليمان أمراء طرابلس الغرب والجزائر بمحاصرة مالطة ، وقد لبى هؤلاء الدعوة وأعدوا ما لديهم من قوة . وفي عام ١٥٦٥م وصل الصدر الأعظم مصطفى باشا قائدا للجيش وبيالي باشا آمرا على الأسطول ، واتجه الاثنين إلي مالطة ثم لحق بهم أمراء الشمال الأفريقي[٤٩] دارغوث باشا وحسن باشا والي الجزائر وقلج على باشا من الإسكندرية ، وعلى الفور باشروا بحصارها .

لقد كانت المقاومة المالطية مدهشة ورائعة ، لقد تصدوا بكل بسالة وعنف إلي الهجمات العثمانية الموزعة ، لم يفسحوا المجال للعثمانيين بالاستيلاء على أهم حصونهم . ولقد استمر الحصار العثماني أكثر من أربعة أشهر ، استنفذ فيها الجيش كل نخيرته الحربية ومعداته وثوريته ، وكان استهلاك كل هذا الوقت في الحصار ضد إستراتيجية الأسطول

العثماني التي تقضي دوما تبني أسلوب المفاجأة وسرعة التحرك وإنهاء المعارك. ولقد حتم كل هذا عدم نجاح العثمانيين في الاستيلاء على قلاع الجزيرة ؛ هذا فضلا عن إصابة دارغوث باشا بشظية في رأسه أردته قتيلا ، في نفس اليوم الذى نجح فيه العثمانيون في اقتحام حصن (سان المو) والاستيلاء عليه مع هذا فان الوضع لم يتغير لصالح العثمانيين الذين فقدوا أحد القادة اللامعين ، وأحد الشخصيات البارزة للقرن السادس عشر على الإطلاق وهو دارغوث باشا(٥٠).

وكان لفشل العثمانيين في الاستيلاء على جزيرة مالطة عدة نتائج أهمها ، بداية الاتجاه الأوروبي بتكتيل القوى المسيحية للعمل المشترك للقضاء على العثمانيين ، وهذا ما سوف يؤدي إلي الحلف المقدس الذي تزعمه البابا. وقد كان انتصار فرسان القديس يوحنا دافعا لهم على استرجاع طرابلس الغرب التي عهد بولايتها الي قلج على باشا بعد استشهاد الريس دارغوث. وقد أدى هذا الانتصار أيضا إلي تعزيز معنويات الأسبان وعملهم على زيادة تحصينات قلاعهم في الشمال الأفريقي وزيادة حركتها البحرية وتركيزها على البحر المتوسط(٥١).

ولن يكون انتصار مالطة منفصلا عن الانتصارات الصليبية التي تبعته على العثمانيين مثل انتصار معركة ليبانتو البحرية عام ١٥٧١م ، وسيكون له أيضا تأثير قوى على زيادة التحرك العثماني في مياه المتوسط خاصة الغربية لتدارك النتائج السلبية لهذه المعركة على الصعيد المتوسطي والشمال أفريقي.

ثورة المورسكيين ومعركة ليبانتو البحرية :

بعد استشهاد دارغوث باشا في حصار مالطة عام ١٥٦٥م ، تولى مكانه في إمارة طرابلس القائد قلج على باشا الذي ما لبث أن صدر

فرمانا سلطانيا عام ١٥٦٨م بترقيته ونقله إلي إمارة الجزائر[٥٢] ، ولقد أثبت قلج على باشا أنه كان من أعظم من تولوا إمارة الجزائر وجاهد في الشمال الأفريقي.

وتصر المراجع الأوروبية على أن قلج على كان مسيحيا في بداية حياته ، كما أصرت على جعل معظم أبطال الجهاد من المسيحيين ، بينما تقرر المراجع التركية أنه كان عثمانيا إسلامي المولد ، ولم يكن مسيحيا قط[٥٣].

كان من أعظم الأهداف التي يرمي إليها قلج على باشا ، هو إعادة الحكم الإسلامي إلي الأندلس ، بالإضافة إلي إنهاء الحكم الاسباني والموالين له في الشمال الإفريقي ، خاصة في تونس التي تفصل إقليمي طرابلس والجزائر عن بعضهما البعض . وقد رمى قلج على لإعادة الحكم الإسلامي إلي الأندلس أولا ، وهذا مما سيؤدي تلقائيا إلى انكماش الحكم الاسباني وسهولة القضاء عليه في الشمال الإفريقي.

وفي ذلك الوقت عانى المسلمون في الأندلس من أساليب الضغط والتصفية ، التي مارسها ضدهم الأسبان لعدة أسباب أهمها ، أن المجتمع الموريسكي المسلم يشكل وحدة اجتماعية متماسكة ، كانت مسيطرة تماما على الاقتصاد بفضل نشاطها وذكائها وخبرتها ، وهذا ما أثار عليها الطبقات الصناعية والمالية الجديدة ، يضاف إلي هذا العامل الديني الحضاري الذي عمق الخلافات وجعل التعايش بين الفريقين مستحيلا.

وعلى أثر هذا ازدادت الإجراءات التعسفية ضد المسلمين في الأندلس منذ أوائل القرن السادس عشر ، خاصة لكل ما يتصل بالإجراءات التجريدية الكاملة عن الهوية والقومية والدين. وعلى ضوء

ذلك استحال على الموريسكيين السكوت ، وهذا مـــا يبـــرره انتفاضـــاتهم الإقليمية المتكررة ، واستغاثاتهم العديدة الموجهة لحكام المسلمين(٥٤).

وقامت في هذه المرة الثورة الموريسكية عام ١٥٦٨م ، خاصة بعد ما وجدوه من مساندة ومؤازرة من قلج علي باشا ، الذي عمل كـل مـا يستطيع لمساعدتهم ، فقد خصص لهم سفن تنقل لهم حاجتهم من الســلاح ومدهم ببعض القادة ، وطلب من استانبول وباســترحام شـديد مســاعدة الأندلسيين ، وأيد الرسائل التي أرسلوها إلي السلطان العثماني. على أثر هذا صدر أمرين من الديوان الهمايوني بتاريخ ٩٧٧هـ/١٥٦٩م يطلــب من قلج علي باشا تقديم السلاح وإرسال الجنود لأهــل الأنـدلس بقــدر المستطاع ذلك لأن الديوان الهمايوني قد قرر في ذلك الوقــت مهاجمــة جزيرة قبرص لما تشكله من خطر على المراكب الإسلامية في شــرقي البحر المتوسط.

طلب قلج باشا من الأندلسيين توحيد جهودهم والعمل يدا واحــدة ضد الأسبان ، وبغية تشتيت جهود الأسبان وارباك قوتهم ، قرر مهاجمة وهران ثم من بعدها يتحرك إلي السواحل الاسبانية ، وبالفعل أرسل جيشا يتألف من أربعة آلاف جندي مسلحين بالبنادق وستين ألف جندي محلــي مع أعداد كبيرة من المدفعية والبارود ، كما أمر أربعين قادرغة بالرســو أمام السواحل الاسبانية بالقرب مــن المريــة وكلفهــا بحمايــة الثــوار ومساعدتهم. لكن أحد رؤساء الثوار وقع بخطأ أدى إلي كشــف أمــاكن الأسلحة قبل إعلان الثورة بيوم واحد ، وتمكن الأسبان على أثر ذلك من كشف مخازن الأسلحة الواحد بعد الآخر ، كما ألقوا القبض على بعــض الثوار مما أدى الي فشل الثورة(٥٥).

سنة وكانت التصفية هذه المرة رهيبة ، حيث انتقم الأسبان من الأقليات الإسلامية أبشع انتقام ومثلوا بهم ولاحقوهم في كل مكان. وقد اجتاحت الجيوش الاسبانية منطقة الثائرين وأحرقت كل شيء ، القرى والديار والبشر والمحاصيل ، ولم يبقى أي شئ ، فقد استمرت الملاحقة العسكرية حتى عام ١٥٧٠م ، وقد أدى ذلك إلي التجاء آلاف الموروسكيين إلي الجزائر والمغرب وباقي أنحاء الإمبراطورية العثمانية ، وقد نشطت نتيجة لذلك حركة التصدي للأسبان حيث ساعد المورسكيون القيادات العثمانية بفضل معرفتهم اللغة القشتالية وأماكن الطرق البحرية ، لهذا فان سياسة فيليب الثاني ملك اسبانيا أصبحت على اهتمام كبير بالساحل المغربي. هذا إلي جانب أن الثورة الموريسكية قد أعطت بعدا جديدا لتحرك الأسبان فكان عليهم القيام بنشاطات جديدة ضد العثمانيين لإنهاء نفوذهم نهائيا ، وكانت كل هذه الأحداث وراء تزعم اسبانيا والبابا الحلف المقدس الذي سيؤدي إلي هزيمة العثمانيين هزيمة كبيرة ومؤثرة في معركة ليبانتو عام ١٥٧١م.

ويعد المؤرخون معركة ليبانتو عام ١٥٧١م من أهم الأحداث خلال القرن السادس عشر على الاطلاق(٥٦) ، فقد ترتب عليها الكثير بالنسبة للنزاعات السياسية والعسكرية في البحر المتوسط شرقه وغربه ، ولم تكن معركة ليبانتو البحرية عام ١٥٧١م حدثا سياسيا طارئا على الموقف الدولي ، وإنما كان حدثا تراكميا بسبب الأحداث المتتابعة والنزاعات المستمرة بين العثمانيين من جهة والدول الأوروبية من جهة أخرى.

ولقد أدت هذه النزاعات المستمرة بين الفريقين ، إلي تكوين تكتل صليبي اشتمل حتى على فرنسا التي كانت لها صلات قوية بالإمبراطورية

العثمانية على الصعيد التجاري والعسكري بل وعلى الصعيد الدبلوماسي خلال القرن السادس عشر. ولكن الحدث الأبرز الذي أدى إلي ذلك التحالف الصليبي الذي أعده البابا واشتركت فيه معظم الدول الصليبية ، كان استيلاء العثمانيين على جزيرة قبرص التابعة حينئذ لجمهورية البندقية.

لقد كانت سياسة الدولة العثمانية في ذلك الوقت تهدف إلي إتمام السيطرة على الطرق الملاحية في البحر المتوسط وأحكام السيطرة على شرقي هذا البحر مما يؤمن حرية التجارة الإسلامية وسلامتها إلي جانب تأمين طريق الحج الرئيسي بشكل كامل ، وبالطبع لن يتسنى لهم السيطرة على هذا الجزء الاستراتيجي الهام سوى بإتمام السيطرة على الجزر الهامة ذات الموقع المتوسط بين استانبول العاصمة العثمانية وبين باقي سواحل البحر المتوسط الشرقية والجنوبية حيث أهم الموانئ العثمانية في الشام ومصر ، هذا إلي جانب الحد من نشاط سفن بحارة جمهورية البندقية وقراصنتها الذين انتهكوا أكثر من مرة حدود الدولة العثمانية[٥٧].

وقد أرسل الباب العالي عام ١٥٧٠م مبعوثا إلي البندقية ، طالبا ترضية لكل الانتهاكات الترابية بتسليم قبرص إلي الباب العالي ، على أن يكون ذلك ثمن السلم الذي كانت البندقية تطالب بعقده مع الباب العالي ، إلا أن مجلس الشيوخ البندقي رفض هذا الإنذار ، وهذا ما أدى على الفور إلي توتر عام في العلاقات العثمانية – البندقية لتشعل فيما بعد جبهة الحلف المقدس الأوروبية ضد العثمانيين. وقد سارع العثمانيون بإنزال جيوشهم في الجزيرة والاستيلاء على نيقوسيا وكل تراب الجزيرة ماعدا قلعة فماقسوتا ، ولم تلق قواتهم على العموم أي مقاومة تذكر ، أما البنادقة

فقد سلموا في الحال كل سفنهم وقاموا بهجوم سياسي لإثـارة المسـيحية المهددة(٥٨).

وبعد استيلاء العثمانيين على قبرص عام ١٥٧٠م ، نقل إليها عدد كبير من أتراك الأناضول الذين لا يزال أحفادهم مقيمين في الجزيرة حتى الآن. ورغم ترحيب القبارصة الأرثوذكس بالحكم العثماني الذي أنقـذهم من الاضطهاد الكاثوليكي الذي مارسته البندقيـة لعـدة قـرون ، إلا أن احتلال العثمانيين للجزيرة أثار الدول الكاثوليكية التي أعدت حملة صليبية كان الهدف منها ليس فقط استرجاع قبرص بل استعادة كـل الأراضـي المسيحية التي سبق للعثمانيين الاستيلاء عليها(٥٩).

أما عن راعي و منشئ هذا الحلف المقدس فهو البابا بي الخامس الذي كان يؤمن أن المسيحية لها عدوان اثنان ، أحدهما : المـروق عـن الدين وثانيهما : خطر العثمانيين المسـلمين . وكـان يـرى أن الـدول الأوروبية منفردة لا يمكنها البتة القيام بـأى حركـة موفقـة لمواجهـة العثمانيين إلا أنهم باتحادهم يستطيعون ذلك بسهولة ، وهكذا فقد وفق هذا البابا في خلال أسابيع أن يجعل جميع الأطراف تتفق على مبادئ واضحة وقاعدة مشتركة للعمل الأوروبي ضد العثمانيين ، وكان أهـم القـرارات التي اتخذت هو تعيين دون جوان دتريتش أخي الملك الاسـباني الغيـر الشرعي كقائدا عاما للأسطول المسيحي ، خاصة بعد نجاحه في تصـفية الثورة المورسكية عام ١٥٦٨م(٦٠).

ولقد اتفق المؤرخون على أن الباب العالي كان على علم جيد بكل خلفية هذا التحالف منذ البداية ، وبفضل شبكة جاسوسية واعيـة ، كـان الصدر الأعظم صوقللي باشا قد أدرك نوعية المفاوضات بين الأطراف. وقد سعى الباب العالي لكن متأخرا إلي محاولة إبرام الصلح مع البندقية ،

وأن يستجلب فرنسا إليه في محاولة منه لتفتيت الحلف المقدس من الداخل غير أنه لم يوفق في ذلك وكان عليه أن يجابه أكبر تجمع بحري مسيحي في شرق البحر الأبيض المتوسط(٦١).

وهكذا بدأ الباب العالي في تجميع الأسطول العثماني الذي قال عنه المؤرخون أنه كان يتراوح ما بين ١٨٠ ، ٢٠٠ سفينة ، وقد انطلق هذا الأسطول من ميناء استانبول عام ١٥٧١م حيث بدأ يجوب السواحل الشرقية ، واستمر الأمر كذلك عدة شهور استنفذ فيها الجيش كل طاقته . وقد تحرك الأسطول الأوروبي البالغ حوالي ٢٠٨ سفينة من ميناء ميسينا بايطاليا متأخرا ، وقد تحول الأسطول الأوروبي نحو خليج ليبانتو بقيادة دون جوان ليفاجئ الأسطول العثماني فيه ، وكانت خطة الأوروبيين هي ضرب الحصار البحري على العثمانيين داخل الخليج وتقسيم الأسطول إلي ثلاثة جهات كما فعل العثمانيون الذين عهدوا لقلج على باشا بقيادة الجناح الأيسر لأهميته الإستراتيجية ، مع ذلك فقد تمكن الجانب الأوروبي من إلحاق أكبر هزيمة بحرية بالعثمانيين على الإطلاق في عرض البحر المتوسط ، ولم ينج من الوحدات العثمانية كلها إلا الثلاثون سفينة التي عهدت لقلج على باشا(٦٢).

كانت لهذه الهزيمة القاسية التي منى بها العثمانيون في البحر المتوسط العديد من النتائج على صعيد السياسة الدولية خاصة على الجانب الأوروبي الذي عد هذا الانتصار انتصارا كبيرا للمسيحية ، واعتبره انطلاقة جديدة للصليبية الأوروبية في معاودة استرجاع الأراضي المسلوبة وإنهاء النفوذ العثماني في البحر المتوسط.

ولقد أدى نجاح الحلف المقدس في حربه ضد العثمانيين إلي جذب الأنظار والاهتمام الأوروبي عامة ، واهتمام فيليب الثاني الملك الاسباني

خاصة ، والذي رأى أن الظروف سانحة لشن حرب صليبية واسعة النطاق تشمل أهم المراكز والقلاع والمدن الساحلية في الشمال الأفريقي ، وبالفعل فان أعادة احتلال تونس سيكون أول رد فعل عسكري واضح قام به الأسبان خصوصا والأوروبيون عموما على البلاد التونسية . ولقد كان رأي المسئولين الأسبان منقسما بين احتلال الجزائر وإعادة احتلال تونس ولقد وقع الاختيار على تونس لسهولتها ، إلي جانب أن السلطان الحفصي كان يطالب الأسبان مرارا بالقيام بحركة عسكرية لطرد العثمانيين واسترجاع تونس.

وفي عام ١٥٧٣م تحرك دون جوان متجها نحو حلق الوادي حيث تمكن من دخول البلاد دون مقاومة تنكر ، ولقد أباح دون جوان لنفسه البلاد ، واستولى الجيش على الدور ، وعبث حتى بمحتويات جامع الزيتونة ، وبعد ذلك غادر البلاد متجها إلي ايطاليا بعد أن ترك بها حامية ضخمة من ثمانية آلاف رجل ، وبعد أن عين محمدا الحفصي أميرا على البلاد ، والذي تعهد بتقديم المساعدة لمحاربة العثمانيين الذين مازالوا يسيطرون على البلاد من الداخل ، حيث لم تتجاوز السيطرة الاسبانية ضواحي تونس والمنطقة الشمالية فقط[٦٣].

أصبح الوضع العثماني صعبا في المنطقة ، فقد تحطم معظم الأسطول العثماني في معركة ليبانتو ، وكان على قلج على الذي تولى قيادة الأسطول بعد بطولته في المعركة أن يعيد بناءه من جديد وبسرعة بالغة حتى يستطيع أن يتصدى للأطماع الصليبية المتنامية في الشمال الأفريقي. وكان عليه أيضا العمل من أجل استرجاع تونس من يد الأسبان وتصفية الوجود الحفصي الموالي لهم.

إعادة الفتح العثماني لتونس :

كان لخبرة قلج على وسنان باشا الفضل الأول لإرجاع قوة الأسطول العثماني لسابق عهدها في وقت قياسي بعد تحطمه شبه كاملا عام ١٥٧١م ، وكان الدليل الأكبر على ذلك هو تحرك الباب العالي بمنتهى السهولة في كل أرجاء الإمبراطورية بعد أقل من سنتين من معركة ليبانتو ، فها هو سنان باشا يستطيع إخماد قوة اليمن عام ١٥٧٣م ، وهى التي تبعد كل البعد عن مركز الأسطول باستانبول.

هكذا قرر السلطان العثماني سليم الثاني بن السلطان سليمان القانوني تسخير كل الجهود لفتح تونس من جديد وإنهاء الحكم الاسباني والموالين له إلي الأبد ، خاصة في حلق الوادي الذي أدى الوجود الاسباني بها إلي الكثير من المشاكل للوجود العثماني في الشمال الإفريقي ولم يكن قرار السلطان سليم منفردا بل لاقى الإجماع من مستشاريه إلي جانب رؤساء البحر الذين علموا جيدا مدى الضرر الذي لحق بالبحرية العثمانية والنفوذ العثمانى من جراء تواجد الأسبان بقلعة حلق الوادي .

وهكذا قام الباب العالي بإرسال فرمانات إلي الحكام العثمانيين في مدن البحر المتوسط ، مخبرا إياهم بقرار الحملة الرسمية إلي تونس ، وناشدهم بتقديم المساعدة مهما كان نوعها . وقد أحاط السلطان سليم الثاني حيدر باشا بهذا القرار(٦٤) عن طريق خطاب أوضح فيه مدى الإمكانات الهائلة التي أعدها لهذه الحملة ، والتي توضح مدى الإصرار الشديد من السلطة العثمانية في فتح هذا الإقليم والذي بفتحه سيستقر الحكم العثماني في الشمال الأفريقي ، بل لن تشوبه شائبة.

أما عن موقف اسبانيا في ذلك الوقت فقد علمت بأمر هذه الحملة ، ولقد سعت في الحال للعمل على القيام برد فعل سريع للمحافظة على

تونس ، لكنها كانت تعاني من وضع اقتصادي سئ للغاية بالإضافة إلي فقدان توازن أسطولها ، هذا إلي جانب عامل الوقت الذي لم يكن في صالحهم فقد كانت الإدارة العثمانية حاسمة وسريعة جدا في هذا الشأن ، وعليه فقد أصبح المجال مفتوحا للأسطول العثماني الذي وصل إلي تونس بتاريخ ١٥٧٤/٧/١١م ، وقد ركز العثمانيون كل قواهم على الضفاف الجنوبية والشمالية لقلعة حلق الوادي.

كانت القيادة البرية الحقيقية لقلج على باشا ، حيث كانت خطته تقضي بادئ الأمر القضاء نهائيا على قلعة حلق الوادي الخطيرة. وبعد حرب ضروس دامت أكثر من ستة أسابيع دافع فيها الجانبان عن القلعة ، واستعمل العثمانيون بالتعاون مع الأهالي كل الوسائل للقضاء على القلعة التي سقطت بتاريخ ١٥٧٤/٨/٢٥م ، وقضي على الطابع التحصيني الاسباني بها وخربت تماما(٦٥).

واضطر الأسبان والأمير الحفصي الموالي لهم إلي الهرب والالتجاء للحصون ، فلحق بهم الجيش العثماني ، وتمكن سنان باشا من تضييق الخناق على الحاميات الاسبانية حتى استسلمت للجيش العثماني ، وقبض على آخر الأمراء الحفصيين وأرسل إلي القسطنطينية ، وانطوت بذلك صفحة الحكم الحفصي في تونس نهائيا ، بعد أن حكموا هذه البلاد ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين عاما(٦٦).

وهكذا استطاع العثمانيون إعادة فتح تونس ، والقضاء نهائيا على الحكم الاسباني والحفصي بها. ولما أتم سنان باشا فتح تونس أخذ ينظم شئونها فألحقها في البداية بولاية الجزائر ، ولقد استقر الحكم العثماني في تونس حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر عندما احتلت من قبل فرنسا. والجدير بالذكر أن تونس أصبحت في العهد العثماني أكبر مأوى

للأندلسيين الفارين من الحكم الاسباني ، فقد استقر بها الآلاف من الموركسيين الذين أقاموا عدة مدن كبيرة واستقروا بها ، والتي أدت بعد ذلك إلي الارتقاء بمجتمع الشمال الأفريقي خاصة إقليم تونس.

ولقد ارتبطت إمارات الشمال الإفريقي بإمارة الجزائر ، لكن لم يستمر ذلك طويلا حيث انفصلت إمارتي طرابلس وتونس بعد ذلك ، وأصبحتا تدار بشكل مستقل كل واحدة عن الأخرى ، وعين على كل منها أمير أمراء ربط باستانبول مباشرة وكان ذلك عام ١٥٧٧م .

ولقد حاول العثمانيون منذ سيطرتهم على الجزائر في النصف الأول من القرن السادس عشر أن يمدوا نفوذهم إلي إقليم المغرب الأقصى والذي كان تابعا لأمراء بني وطاس الضعفاء ، ولكن ما لبث هذا الإقليم أن شهد تغيرات سياسية بعد سيطرة البرتغاليين على معظم ثغوره الساحلية ، حيث ظهرت حركة مقاومة حاولت السيطرة على البلاد ، وقد لاقت هذه الحركة تأييدا شعبيا كبيرا لنسبها الشريف أولا ، ثم لما بذلته من جهاد ضد النفوذ البرتغالي حتى قضت على أجزاء كبيرة منه ، وفي الفصل القادم تفصيلا لأوضاع المغرب الأقصى السياسية والتى أدت به في النهاية إلي مناهضة العثمانيين والاستقلال عن نفوذهم في الشمال الأفريقي.

هوامش الفصل الرابع

١- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص٧٦ : ٧٨.

٢- المرجع السابق ، ص٧٨ ، ٧٩.

٣- المرجع السابق ، ص٨٠ ، ٨١.

٤- المرجع السابق ، ص٨٢ : ٨٤.

٥- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية الخ ، ص٩١٣.

٦- المرجع السابق ، ص٩١٤.

٧- أندريا دوريا : ولد عام ١٤٩٨ م.في مدينة جنوة الايطالية ، تعلم فن الحرب والمغامرة البحرية ، عندما بلغ سن الأربعين التحق بالبحرية وأظهر براعة فائقة ، أصبح قائدا للأسطول الجنوي عام ١٥١٣م ، ثم قرر الالتحاق بالأسطول الفرنسي ، بعدها عاد مرة أخرى إلي ايطاليا وعمل أميرالا بالبحرية ، مارس أندريا دوريا القرصنة لحسابه الشخصي وجمع أمولا كثيرة من جراء ذلك ، قاد الأسطول الاسباني في عدة مواجهات مع الأساطيل العثمانية ، يعتبره المؤرخون من أفضل القادة البحريين وأمهرهم في العالم المسيحي. (انظر: الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ، ص٩٤ هامش(١)

٨- المرجع السابق ، أحمد فؤاد متولي ، تاريخ الدولة العثمانية الخ ، ص٢٥٦.

٩- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص١٠٣.

١٠- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية الخ ، ص٩١٥ ، ٩١٦.

١١- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص١١١.

١٢- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، نقلا عن محمد فارس ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني الي الاحتلال الفرنسي ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٩م ، ص٣٤.

١٣- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص١١٢.

١٤- المرجع السابق ، ص١١٦.

١٥- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية الخ ، ص٦١٧.

١٦- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص١١٨.

١٧- المرجع السابق ، على الصلابي ، الدولة العثمانية الخ ، ص٢٢١.

١٨- حسن أغا : هو خادم الريس خير الدين الذي أسره في إحدى غزواته على سواحل سردينيا ، وعند توزيع الغنائم كان الطفل من نصيب خير الدين ، قام خير الدين برباروسا بتبنيه حيث علمه وأدبه كأحد أولاده ، كان حسن أغا ذكيا وعاقلا ، فلم يقم بعمل إلا وأتمه على أحسن وجه ، لهذا عينه خير الدين وكيلا على الجزائر لاعتقاده الأكبر بأنه سيدير البلاد إدارة جيدة ، وفعلا لم يخيب رجاءه فيه ، فقد كان حسن أغا من خير من تولى إدارة الجزائر.

١٩- المرجع السابق ، على الصلابي ، الدولة العثمانية الخ ، ص٢٢١.

٢٠- عبد الجليل التميمي ، رسالة من مسلمي غرناطة الى السلطان سليمان القانوني ، مقال في المجلة التاريخية المغربية عدد ٣ ، يناير ١٩٧٥م ، ص٤٠.

٢١- المرجع السابق ، ص٤٠ ، ٤١.

٢٢- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية الخ ، ص٩١٨ ، ٩١٩.

٢٣- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص١٦٠ : ١٦٩.

٢٤- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، ص ٩١٩ ، ٩٢٠ ، نقلا عن عبد الجليل التميمي ، رسالة من مسلمي غرناطة.

٢٥- المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب الكبير الخ ، ص٨٨ ، ٨٩.

٢٦- دارغوث باشا : للريس دارغوث مكانة كبيرة في تاريخ طرابلس الغرب خاصة والشمال الأفريقي عامة ، ولد على الأرجح عام ٨٩٠ للهجرة اشتغل دارغوث منذ الصبى مساعدا ومرشدا ومدفعيا ، ولما بلغ عام ٩١٠ العشرين من العمر أصبح بحارا ذا خبرة وتجارب ، ويظهر من هذا التاريخ أن دارغوث زاول الملاحة والقرصنة قبل الأخوان عروج وخير الدين ، عمل دارغوث مساعدا للأخوان بربروسا وزوج ابنته لحسن نجل خير الدين ، استشهد أثناء الحصار العثماني لجزيرة مالطة عام ١٥٦٥م.

٢٧- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية الخ ، ص٩٢٢.

٢٨- المرجع السابق ، ممدوح حسين ، الحروب الصليبية في الشمال الافريقي وأثرها الحضاري ، ص١٨.

٢٩- المرجع السابق ، ص١٨.

٣٠- المرجع السابق ، ص٥٠٢.

٣١- عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية – المغربية في القرن ١٦ ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية – تونس العدد ٢٩ – ٣٠ يوليو ١٩٨٣م ص٧٤.

٣٢- عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، الجزء الأول في طرابلس الغرب ، دار الفرجاني ، القاهرة – طرابلس – لندن ، ص٢٢.

٣٣- رودس : هي جزيرة صغيرة ، تقع بالقرب من شاطئ آسيا الصغرى في جنوب شرق بحر ايجه وهو الجزء الشرقي من البحر المتوسط ، وتعتبر ذات موقع استراتيجي هام.

٣٤- المرجع السابق ، عايض بن حازم الروقي ، جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة الي الحرمين الشريفين ، ص٥٥٠ ، ٥٥٣.

٣٥- المرجع السابق ، ص٥٥٥.

٣٦- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص٧٥.

٣٧- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، الجزء الأول ، ص٣٧ ، ٣٨.

٣٨- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص٧٦.

٣٩- المرجع السابق ، ص٧٦.

٤٠- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الــخ ، الجــزء الأول ، ص ٤٥ ، ٤٦.

٤١- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص٧٧.

٤٢- قلج على باشا : من القيادات البحرية المتفــردة ، لا يقــل كفــاءة ومهارة عن الريس خير الدين ودارغوث باشا ، تصــر المراجــع الأوروبية على أنه كان مسيحيا في بداية حياته ومن جنوب أطاليا ، بينما تقرر المراجع التركية أنه كان عثمانيــا إســلامي المولــد ، والتحق بخدمة الأسطول وتدرج في مناصبه ، اشترك مع دارغوث باشا في صد حملة الإمبراطور شارل الخامس على جزيرة جربــة في تونس ، ثم رقى إلي منصب بكلر بك طرابلس ثم بكلــر بــك الجزائر ، اشترك في معركة ليبانتو البحرية حيث كان قائدا للجناح الأيسر للأسطول العثماني ، ورقى بعدها إلي منصب قبودان باشــا تقديرا لبطولته في المعركة ، ظل يشغل هذا المنصب طيلة خمســة عشر عاما ، توفى فجأة في مسجده الذي بناه في ضواحي استانبول عام ١٥٨٧م. (انظر : عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ص٩٢٣ ، ٩٢٤)

٤٣- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمــي ، رؤيــة منهجيــة الــخ ، ص٨٠ ، ٨١.

٤٤- المرجع السابق ، ص٨١ ، ٨٢.

٤٥- المرجع السابق ، ص٨٣.

٤٦- المرجع السابق ، ص٨٤ ، ٨٥.

٤٧- المرجع السابق ، عايض الروقي ، جهود الدولة العثمانيــة الــخ ، ص٥٥٦.

٤٨- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص٨٧.

٤٩- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص٥١٨.

٥٠- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص٨٨ ، ٨٩.

٥١- المرجع السابق ، ص٨٩ ، ٩٠.

٥٢- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص٢٢٣.

٥٣- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية الخ ، ص٩٢٣.

٥٤- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص٩١.

٥٥- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص٢٢٦.

٥٦- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص٩٦.

٥٧- المرجع السابق ، ص٩٧.

٥٨- المرجع السابق ، ص٩٧.

٥٩- المرجع السابق ، أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، ص١٤٧.

٦٠- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص٩٧.

٦١- المرجع السابق ، ص٩٨.

٦٢- المرجع السابق ، ص٩٩.

٦٣- المرجع السابق ، ص١٠٣ ، ١٠٤.

٦٤- حيث قال في رسالته : (لقد جهزنا لفتح حلق الوادي اللعينة التي سببت الاحتكاك والفساد في الولاية والتابعة حاليا لاسبانيا ، جهزنا

لتسخيرها ٣٠٠ من المراكب ، شبيهة بالكواكب ، وعددا وافرا من مماليك بابي وغيرهم من الزعماء وأرباب التجار وعددا وافرا من الجنود وسيتوجهون في أوائل محرم من السنة المقبلة وحالما يصلكم أسطولي المنصور ، تكون ورمضان باشا الذي هو أميـــر أمـــراء جزائر الغرب ومصطفى باشا أمير طرابلس وأحمد عرب باشا أمير أمراء جزائر الغرب سابقا وأنت على قلب واتجاه واحد فترجعـــون وتنظرون ايها انسب ، محاصرة حلق الوادي أو حصار البستيون). (انظر : المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص١٠٥).

٦٥- المرجع السابق ، ص١٠٥.

٦٦- المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب الكبيـــر الـــخ ، ص١٠٨.

الفصل الخامس
العلاقات العثمانية المغربية
خلال القرن السادس عشر

- تمهيد.
- الوجود البرتغالي في المغرب وظهور الأشراف السعديين.
- الدور العثماني فى الصراع بين بني وطاس والسعديين.
- النزاع على السلطة في المغرب ودور العثماني في معركة وادي المخازن.
- المغرب الأقصى فى عهد أحمد المنصور الذهبي.

الفصل الخامس

العلاقات العثمانية المغربية خلال القرن ١٦

تمهيد :

لعبت العلاقات المغربية العثمانية دورا هاما في مطلع التاريخ الحديث ، وبناء على هذه العلاقات التي استمرت منذ دخول العثمانيين الشمال الأفريقي تشكلت علاقات أخرى متشعبة بين دول المنطقتين الأوروبية والأفريقية مثل اسبانيا والبرتغال على الجانب الأوروبي ، وبعض ممالك غرب أفريقيا مثل غانا والسودان الغربي على الجانب الآخر، وقد تأسست تلك العلاقات بين الدولة العثمانية والمغرب منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي مع بدء حركة المقاومة في الشمال الأفريقي ضد الأسبان والبرتغاليين.

إن علاقات المغرب بالدولة العثمانية تكتسي أهمية خاصة ، باعتبار أن المغرب ظل البلد الوحيد من بلدان العالم العربي الذي أفلت من الخضوع للإمبراطورية العثمانية ، كما أن المغرب كان يمثل مسرحا للصراع بين المسيحية ممثلة في الدول الأوروبية والإسلام ممثلا في دولة الخلافة العثمانية[١].

ولعل هذا الصراع الذي ظل قائما بين البلدين كان صراعا على النفوذ وأحقية هذا النفوذ في المقام الأول ، وهذا ما لم يحدث بين الدولة العثمانية وأي بلد آخر من بلدان العالم العربي سوى المغرب التي نازعت دولة الخلافة في السلطة الروحية التي دانت لها كافة أقطار العالم الإسلامي السني.

فمنذ تولى الأشراف السعديين السلطة في المغرب وجدوا أنهم أحق بخلافة المسلمين وبالفعل أتخذ بعض الحكام السعديين لقب الخليفة ،

وكان هذا استنادا لنسبهم الشريف الذي يجعلهم أحق بالخلافة من الترك العجم ولذلك لم يعترفوا بالخلافة العثمانية ولم يدينوا لها ، وعلى النقيض من ذلك أحس العثمانيون أنهم أولى وأحق بشرف خلافة المسلمين فقد اعترف بهم شريف مكة نفسه وأعطاهم مفاتيح الكعبة وتلقب السلطان العثماني بخادم الحرمين الشريفين ، إلي جانب أن الدولة العثمانية كانت في ذلك الزمان أقوى الدول الإسلامية قاطبة بل أصبحت إمبراطورية ضمت بين جنباتها معظم أراضي الدولة الإسلامية الأولى بل وألحقت بها أقطار جديدة نشرت فيها الدين الإسلامي مثل شرق أوروبا ، هذا إلي جانب أنها تحمل على عاتقها الدفاع عن الإسلام والمسلمين في جميع أنحاء العالم.

وانطلاقا من هذا التناقض قام الصراع بين الطرفين العثماني والمغربي الذي كان في بعض الأحيان صراعا عسكريا مباشرا وفي البعض الآخر صراعا متخفيا خلف قناع المهادنة.

لقد كان حلم العثمانيين بعد إخضاعهم شمال أفريقيا لحكمهم في عهد السلطان سليمان القانوني هو إخضاع المغرب الأقصى أو عقد تحالف إسلامي من شأنه أن يعينهم على حربهم ضد الصليبيين وليتسنى لهم طرد الصليبيين نهائيا من أراضي المغرب بل وإعادة الأندلس لحظيرة المسلمين ، ولكن رغم ذلك باءت كل المجهودات في ضم المغرب بالفشل نتيجة لعقد الحكام المغاربة التحالف مع القوى الصليبية التي لها مصالح في المغرب مثل اسبانيا والبرتغال لضمان بقائم بمنأى عن التدخل العثماني هذا إلي جانب انشغال الدولة العثمانية في كثير من الأحيان بحروبها الأخرى المتعددة.

الوجود البرتغالي في المغرب وظهور الأشراف السعديين :

كانت السلطة الحاكمة في المغرب الأقصى مع بداية التدخل العثماني الواسع النطاق في الشمال الأفريقي في القرن السادس عشر هي سلطة بني وطاس البقية الباقية من بني مرين والتي قد آلت إلي درجة من كبيرة من الضعف ، فكانت بذلك من الأسباب المباشرة لنجاح الغزو البرتغالي للمغرب الأقصى في القرن الخامس عشر وبدايات السادس عشر.

لقد مهد جيان الثاني الذي حكم البرتغال بين عامي (١٤٨١-١٤٩١م) لبسط النفوذ البرتغالي على مينائى آسفى وأزمور ، فقد عقد مع شيوخ القبائل في المناطق المحيطة بالمينائين معاهدات كفلت بعض الامتيازات للبرتغاليين حتى استطاع البرتغاليون في عهد الملك عمنوائيل الأول الذي اعتلى العرش عام ١٤٩١م من بسط نفوذهم على كل من آسفى وأزمور الواقعتين تحت الحكم الوطاسي الضعيف بواسطة الدسائس والاتفاقيات مع مشايخ القبائل في هاتين المنطقتين . ولقد عانى المواطنون خاصة في آسفى من تدخل النفوذ الأجنبي حيث أذاقهم البرتغاليون العذاب ألوانا ، وأهانوا المعابد الدينية وجعلوا المسجد الكبير محلا للقاذورات وعبثوا بالمحارم واستباحوا التجارة في الأحرام فباعوا أهلها جهارا وسفكوا الدماء ونهبوا الأموال وهدموا الدور[٢].

ولقد تم لهم السيطرة الكاملة على مدينة آسفى عام ١٥٠٨م وأزمور عام ١٥١٣م ، وبعد سيطرتهم الكاملة على المدينتين وبعض المدن الساحلية الأخرى الهامة مثل ماسة ومازكان ومو داكور تطلعوا للسيطرة على مدينة مراكش نفسها ولكن حملتهم باءت بالفشل ، كما باءت

بالفشل أيضا حملتهم لاحتلال موقع المعمورة المنفذ البحرى لمدينة فـــاس في نفس السنة.

كما كانت أنظار البرتغاليون متجهه الي مدينة أكادير ، فقد كـــان لهذا الميناء أهمية خاصة باعتباره المنفـذ لحاصــلات منطقــة الســوس ومنتجاتها الوفيرة . وقد أدرك البرتغاليون هذه الأهميــة منــذ الســنوات الأولى للكشوف الجغرافية فعمدوا منذ عام ١٤٤٧م لربط شيوخ القبائل في المناطق المجاورة باتفاقيات ، ومنذ أوائل القرن السادس عشر اســتطاع المغامر البرتغالي جو لوبيز (joao lopes sequira) عقـد اتفاقيــات تخول له وضع يديه على منطقة أو أكثر من الســاحل المغربــي علـــى المحيط الأطلسي ولكنه تنازل للحكومة البرتغالية عن كافة حقوقــه عــام ١٥١٣م حيث حلت الحكومة محله وأصبحت المنطقة تحت اشرافها[٣].

أما عن مدينة ماسة فقد أشارت الوثائق البرتغاليــة عــن كيفيــة سيطرة البرتغال على هذه المنطقة ، حيث أعلن ثلاثة شيوخ قبائــل فــي ماسة ولاءهم للملك البرتغالي وتعهدوا بتيسير بناء قلعــة برتغاليــة فــي المكان الذي تراه البرتغال مناسبا . ومن الوثائق يتضح لنا أنه حتى عــام ١٥١٠م لم تكن سلطة البرتغال الرسمية قد بسطت على هذه المنطقة لكن البرتغال كانت تعتمد على ارتباطها ببعض شيوخ القبائل ، لكن منذ عــام ١٥١٣م قد حلت الحكومة البرتغالية في إدارة هذه المنطقة مكان المغامر البرتغالي سالف الذكر[٤].

حاولت الحكومة البرتغالية بعد ذلك بسط نفوذها على العاصــمة مراكش ولكنهم فشلوا في ذلك واضطروا للانسحاب ، وكان لهذا الانتصار دورا كبيرا في تراجع النفوذ البرتغالي في المغرب بعد ذلك ، وقد شــجع هذا الانتصار المغاربة على معاودة الهجوم على القوات البرتغاليــة فــي

الثغور المغربية الأخرى ، وقد تضاعف فشل البرتغاليين في الوصول إلي مراكش بعد عجزهم عن توسيع نفوذهم في حوض نهر سبو بهدف فتح الطريق نحو فاس ، وبالرغم ما كانت تعانيه الدولة الوطاسية من ضعف في أيامها الأخيرة إلا أنها استطاعت بمعاونة الآلاف من الشباب المغربي المتحمس الدفاع عن مركز من أهم مراكز حضارته . ويعتبر جمهرة الكتاب البرتغاليين أن هذه الأحداث كانت نذيرا بانحسار موجة التوسع البرتغالي في المغرب وينظرون لعصر عمانوئيل الأول على أنه قمة ما وصل اليه النفوذ البرتغالي في المغرب ، بينما يعتبرون عصر جيان الثالث (١٥٢١- ١٥٥٧م) عصر تصفية هذا النفوذ(٥).

كان ضعف السلطة الوطاسية في فاس سببا مباشرا في ظهور الأشراف السعديين(٦) كمجاهدين لهم شعبية جارفة في المغرب بسبب نشاطهم الملحوظ ضد الاستعمار البرتغالي للساحل المغربي على المحيط الأطلسي ، وكانت هذه القوة الجديدة قوة برية على عكس قوة رؤساء البحر التي سيطرت على الجزائر ، ولقد نجح السعديون في تخليص كثير من الموانئ المغربية من أيدي الأجانب ، حيث ظهروا في بادئ الأمر في إقليم السوس وهو الإقليم الذي حاولت كل من البرتغال واسبانيا احتلال مخارجه على المحيط الأطلسي.

ولقد تحولت هذه القيادة الجديدة إلي دولة ثابتة مدعمة التف حولها الأهالي لكى تقوم بمهمتها تجاه الاستعمار ، وقد تمكنت هذه الدولة الناشئة من أن توحد الأهالي في جنوب المغرب وتحارب بهم قوات الاستعمار واستطاعت مد سلطتها على القبائل المحيطة ، وأصبحت أمل المغرب الأقصى في الاحتفاظ باستقلاله والوصول الي وحدته(٧).

وإذا كان الأشراف السعديون قد وصلوا إلى الحكم في أول الأمر كمحررين للمغرب الأقصى من الأخطار المحدقة به من الاستعمار ، فما لبثوا أن تحولوا بسرعة إلي قيادة اقطاعية ، تعتز بحسبه ونسيبها وتعتمد على الطبقات والحقوق والامتيازات ، وكان هذا نتيجة لنمو القيادة من ناحية ، وطبيعة تكوينها من ناحية أخرى ، وطبيعة القوى الجاورة لها وعلاقتها بها ، وتهديدها لامتيازاتها أو ترابط مصالحها معها[٨].

ومع نمو سلطة قيادة الأشراف السعديين واتجاهها صوب الخارج اضطرت إلي أن تصطدم هناك بقوة الأجانب الموجودة في الموانئ ولكنها وصلت في نفس الوقت إلي سواحل كان أبناؤها يشاركون أخوانهم في الجزائر في عملية الجهاد البحري ضد المسيحيين ، وشعرت القيادة السعدية أن هذا التكامل بين رجال البحر من مغاربة وجزائريين يمثل خطرا عليها ، وكان ذلك سببا أساسيا في اصطدامات وقعت بين الأشراف السعديين وبين كل من رجال البحر المغاربة والجزائريين ، وقد ظهرت هذه الاصطدامات في شكل محاولات متتالية لإخضاع الموانئ المغربية لسلطة الدولة السعدية ومحاولات أخرى لإبعاد نفوذ الجزائريين والعثمانيين عن شمال أفريقيا[٩].

الدور العثماني في الصراع بين بني وطاس والسعديين :

على صعيد آخر استطاع الأتراك العثمانيون عام ١٥٤٨م القضاء على سلطة بني زيان نهائيا في عاصمتهم تلمسان حيث أمسكوا بزمام الأمور بقوة وأقاموا على أمارتها الأمير حسن ووضعوا بها حامية من مائتي تركي[١٠].

وهكذا أصبح العثمانيون على أعتاب المغرب الأقصى وبدأوا في التطلع إلي إخضاع سلطنة فاس الوطاسية تمهيدا لإخضاع باقي المغرب

والشمال الأفريقي تحت حكمهم، وقد تابع العثمانيون من منتصف القـرن السادس عشر زحفهم غربي تلمسان وضموا إليهـا وجـدة فـي شـرقي المغرب وذهبت أساطيلهم ترسوا على السواحل المغربية الشمالية وجددوا من تدخلاتهم السياسية والعسكرية في أحداث فاس ومراكش(١١).

ولقد تولى قيادة السعديين في بادئ الأمر رجل من الأشراف لقب بمحمد القائم بأمر الله وكان ذلك عام ١٥٠٩م وبعد وفاته سـنة ١٥١٧م انتقلت السلطة الي ولديه محمد الشيخ وأحمد الأعرج ، ولقد نجحا هـذان الأميران من تحرير آسفي وأزمـور فـي نهايـة الثلاثينيـات وبدايـة الأربعينيات من القرن السادس عشر .

ولقد عرض الوطاسيين على محمد الشيخ المهـدي تـولي أمـر مراكش باسمهم وهم يحكمون فاس ولكنه رفض هذا العرض اذ أنه كـان يطمع في توحيد كل المغرب تحت سلطته ودخل بذلك في نزاع مع أخيـه أحمد الأعرج ومع الوطاسيين في نفس الوقت وانتهى هذا الصراع بدخوله مدينة فاس عام ١٥٤٩م وأصبح بذلك المؤسس الفعلي للدولة السعدية في المغرب(١٢).

والجدير بالذكر أنه قبل دخول السعديين إلي مدين فاس وانتهـاء حكم الوطاسيين بها ، لم يجد الوطاسيين بدا من التزلف للأتراك والاحتماء بهم بالدعاء للخليفة العثماني على المنابر وضرب السكة باسـمه ، لكـن السعديين لم يمهلوهم واقتحم عليهم محمد الشيخ مدينة فاس وقبض علـى الوطاسيين باستثناء ابي حسون الذي استطاع الفرار إلي الجزائر وحاكمها يومئذ حسن باشا بن خير الدين بربروسا(١٣).

وجد الأتراك العثمانيون أنفسهم أمام أحد خيارين ، إما أن يعيدوا الحكم الوطاسي إلي المغرب لضمان عودة نفوذهم على هـذه المنـاطق

والذي سيمهد لهم الطريق لإخضاع باقي المغــرب ، وإمـــا أن يرضـــوا بالأمر الواقع ويبدأوا في التعامل مع سلطة السعديين الجديدة وفــي هـــذه الحالة سيكون تدخلهم أصعب من ذي قبل خاصة مع الشعبية التي يتمتـــع بها الأشراف السعديين لوقوفهم أمام الاحتلال البرتغالي . وهكـــذا قـــرر العثمانيون الاستعداد للدخول إلي المغرب وإعادة أبو حسون الي عرشه ، وقد أقضت هذه الأخبار مضجع محمد الشيخ فصرف نظره عمـــا كـــان بصدده من تمهيد الشمال.

وبدأت القوات العثمانية في التحرك تجاه المغرب لإعـــادة أبـــي حسون ، فحدثت صدامات كبيرة بين قوات محمد الشيخ والقوات العثمانية قرب حجر باديس ولحقت الهزيمة بالقوات السعدية ، فواصل العثمـــانيون زحفهم نحو الداخل واستطاعوا دخول مدينة تازة بعد معارك متواصلة مع السعديين ، وبعد ذلك استطاع العثمانيون دخول فاس ومعهم أبو حســـون في عام ١٥٥٤م(١٤) ، وخطب على منابرها للسلطان العثماني من جديـــد وهكذا ظهر وكأن المغرب قد توحدت مع باقي ولايات الشمال الأفريقـــي تحت الراية العثمانية .

فزعت اسبانيا والبرتغال لرؤية بداية السيطرة العثمانية على بعض الموانئ المغربية خصوصا القريبة من مراكزهم الاستعمارية ، مما سيمهد بلا شك لمحاولاتهم لاسترداد الأندلس ، وقد بعث الملك البرتغالي جيـــان الثالث إلي الإمبراطور شارلكان رسالة يحثه فيها على التـــدخل الســـريع لمواجهة العثمانيين قبل توطيد حكمهم في المغرب ، مما سيكون له عظيم الأثر على كل من النفوذين الاسباني والبرتغالي(١٥).

لم يمكث العثمانيون أكثر من أربعة أشهر ضمنوا فيها اســـتتباب الأمر لأبى حسون ، الذي حاول بعد خروج العثمـــانيين الوصـــول إلـــي

مراكش للقضاء على محمد الشيخ وتوحيد باقي المغرب تحت السيادة العثمانية ، واستطاع في بادئ الأمر أن ينزل بالسعديين هزيمة كبيرة ، إلا أن محمد الشيخ استطاع بحيلة ماكرة أن يقتل أبا حسون(١٦).

هكذا مات أبو حسون بعد تسعة أشهر تقريبا من عودته إلي فاس ، وضاعت بموته فرصة كبيرة للعثمانيين لإعلان السيادة على المغرب وتوحيده مع بقية الإمارات العثمانية في الشمال الأفريقي.

هكذا انتهت سلطة بني وطاس إلي الأبد واستطاع السعديون إتمام السيطرة على المغرب الأقصى بالقوة ، مما سيؤدي بعد ذلك إلي التنافر بين القوة السعدية الناشئة وبين العثمانيين الذين أملوا في تكوين اتحاد إسلامي كبير ومجاهد يواجه الأخطار الخارجية ويحاول إعادة الأندلس للمسلمين ، ولكن محمد الشيخ رفض عروض العثمانيين بل ورفض الاعتراف بالخلافة العثمانية ، وزاد على ذلك تقربه للأسبان بغية التحالف معهم ضد العثمانيين ، وهذا ما أدهش الأسبان الذين توقعوا ذلك التحالف الإسلامي الجهادي ضدهم وضد الوجود البرتغالي في البلاد .

النزاع على السلطة في المغرب ودور العثمانيين في معركة وادي المخازن :

بعد استتباب السلطة لمحمد الشيخ في المغرب الأقصى و بعد قضائه نهائيا على سلطة الوطاسيين كما سبق الذكر حاول السلطان سليمان القانوني إقناعه بعقد تحالف عثماني مغربي من شانه أن يقف أمام الأخطار الخارجية ولكن محمد الشيخ رفض تماما بل لم يعترف بالخلافة العثمانية العجمية واعتز بحسبه ونسبه وبأنه أمير المؤمنين وأنه لا يمكن لأحد أن يقدم عليه سلطانا تركيا أو أعجميا ، ولم يقف الأمر إلي هذا الحد بل إن محمد الشيخ المهدي حاول أن يزيد من سلطته في المغرب الكبير حتى إقليم وجدة ، وحتى مدينة تلمسان التي كانت همزة الوصل بين

المغرب الأقصى والجزائر ، وكانت عاملا مهما فى توطيد الحكم السعدى في المغرب والحد من التدخل العثماني.

وفعلا استطاع محمد الشيخ احتلال تلمسان وضمها إلي المغرب وكان من المنتظر أن تستأنف الحملة رحلتها نحو مزيد من التوسع ، وقد تسبب سقوط تلمسان في أيدي محمد الشيخ المهدي في إزعاج باشا الجزائر الذي سارع إلي جمع قواته حيث دارت عدة معارك فاصلة في تلمسان ذاتها بين العثمانيين والسعديين انتهت بهزيمة السعديين هزيمة ساحقة وقد تتبع الأتراك فلول السعديين حتى نهر ملوية(١٧).

وبعد الهزيمة القاسية التي مني بها المغاربة أدرك السلطان العثماني سليمان القانوني ما ستخلفه مثل هذه التدخلات من أثر قي نفوس المغاربة ، فقد كان باستطاعته بعد هذه الهزيمة القاسية أن يأمر الجيش من إتمام عمله بإخضاع المغرب كاملا ولكنه أدرك أن جهاده في الشمال الأفريقي كان وسيظل ضد الصليبيين الذين أرادوا إخضاع هذه البلاد وليس ضد إخوانه من المسلمين المجاهدين .

وهكذا نجده يبعث برسالة إلي السلطان محمد الشيخ يخبره فيها بعزل حسن باشا الذي لم يحسن الجوار ويحيطه علما بأنه عين صالح باشا واليا على الجزائر والذي يتمنى أن تكون علاقته به حسنة ، ولم يكتف السلطان سليمان ببعث الرسائل ولكنه تبع ذلك بإرسال سفارة هامة إلي مراكش برئاسة العلامة الصالح أبي عبد الله محمد بن على الخروبي الطرابلسي القارقاريشي نزيل الجزائر يقصد المهادنة بين السلطانين ، وتذكر بعض المصادر المغربية أن السفير جاء ليقترح على العاهل المغربي عقد سلام بين البلدين ولكنه طلب من ملك المغرب أن يعترف بالسيادة العثمانية وأن ينقش اسم السلطان العثماني على قطع العملة

المغربية على نحو ما كان في أواخر العهد الوطاسي ، وتروي المصادر المغربية أن محمد الشيخ قال للخروبي : (سلم على سلطانك أمير القوارب وقل له أن سلطان المغرب لابد أن ينازلك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه ان شاء الله)(١٨).

وكان نتيجة هذا الفشل في المساعي التركية للتوصل إلي الصلح والمهادنة مع محمد الشيخ شريطة أن يعترف بالخلافة العثمانية أن ازداد التقارب بين الأشراف السعديين والأسبان ، فقد كان الأسبان يترقبون التعاون التام بين محمد الشيخ السعدي والأتراك العثمانيون ويهيئون أنفسهم لهذا الظرف الجديد خاصة أنهم يعلمون أن هذا التقارب سيكون له تأثير كبير على القضيتين الأساسيتين : الثغور المحتلة والقضية الموريسكية(١٩).

لكن محمد الشيخ أبدى في علاقته مع العثمانيين ثم تقاربه مع الأسبان ما لم يكن في الحسبان ، فقد سعى محمد الشيخ للتقرب من الأسبان بل وطلب مساعدتهم لمواجهة العثمانيين.

وقد أرسل حاكم وهران فعلا إلي فاس وفدا يتكون من ثلاثة أشخاص جاؤوا للاتفاق مع محمد الشيخ حول تهيئ حملة مشتركة اسبانية مغربية ضد الأتراك ، وقام العثمانيون بأول رد فعلا نتيجة التقارب السعدي الأسباني ، فشددوا الحصار على وهران باعتبار أن حاكمها الاسباني كان أداة الاتصال بين فاس ومدريد ، إلا أن جميع الجهود فشلت نتيجة النجدات المتواصلة التي كانت تبعثها اسبانيا للمدينة المحاصرة(٢٠).

وعلى أثر كل هذا قرر العثمانيون التخلص من محمد الشيخ بأية وسيلة فقد تجاوزت خيانته في وجهة نظرهم الحد الذي يمكن السكوت عنه فدبروا مؤامرة للتخلص منه فأرسل السلطان العثماني جماعة من الجند

(اثنى عشر جنديا) دخلوا في خدمة محمد الشيخ بحجة أنهم هاربون من الجيش التركي حتى اطمأن إليهم وانتهى الأمر بقتله في عام ٩٦٤هـ/١٥٥٧م .

وبعد ذلك اتجه حسن باشا إلي الأسبان الذين أعدوا العدة لمهاجمة مستغانم حيث انتهت المعركة بهزيمة الأسبان هزيمة ساحقة[٢١].

وبعد مقتل محمد الشيخ بويع ابنه محمد عبد الله الغالب بالله بالسلطة في فاس ثم وانته بيعة مراكش ، وكان عليه أن يواجه أطماع العثمانيين بالإضافة إلي قتال المستعمرين البرتغال ، وفي عام ١٥٥٧م تحرك حسن بن خير الدين باشا من الجزائر في جيش كثيف وصل إلي قرب عمالة فارس حيث التقى بجيش عبد الله الغالب وانتهت المعركة بهزيمة العثمانيين وفرار حسن باشا إلي باديس ، وعلى أثر هذا ازداد تقارب المغاربة مع الأسبان بل و من دول أوروبية أخرى.

لقد انتهج عبد الله نفس سياسة والده حيث التجأ إلي الأسبان تحت ضغط التهديد العثماني للمغرب ، إذ كانت علاقته مع الأسبان تشكل عامل توازن فقد كان يريد الحفاظ على كيان مستقل للمغرب بأقل قدر ممكن من الخسارة : إما التنازل عن نقاط معينة للأسبان وغيرهم أو احتواء المغرب بأكمله من طرف الأتراك[٢٢] ، ولقد قامت عدة ثورات في المغرب مناهضة لحكم عبد الله الغالب ، ولكنه استطاع القضاء عليها تماما حتى انه قتل ثلاثة من إخوته لرفضهم البيعة بولاية العهد لابنه المتوكل ، مما جعل عميه عبد الملك وأحمد المنصور يفران خوفا من القتل.

ولما توفى عبد الله الغالب بالله عام ٩٨١هـ/١٥٧٤م فبويع ابنه السلطان أبو عبد الله المتوكل على الله ، لكن لم تدم مدة حكمه طويلا فقد نجح عمه أبو مروان عبد الملك بمعاونة الأتراك في أن ينتزع منه الحكم.

أما عن الظروف التي انتقل فيها الحكم من المتوكل إلي عمه أبي مروان عبد الملك لها أهميتها فيما يتعلق بتاريخ المغرب الأقصى وعلاقاته سواء مع الأتراك العثمانيين أو مع المستعمرين البرتغال والأسبان فقد لجأ عبد الملك وأخوه أحمد المنصور إلي تلمسان حيث أقاما عند واليها حسن باشا خشية بطش المتوكل بهما فقد عرف عنه ميله إلي سفك الدماء ، وكانا على صلة بأتباعهما بالمغرب الناقمين على المتوكل سلوكه ليهيئوا له الجو المناسب.

وقصد عبد الملك واحمد النصور بعد ذلك الجزائر ومنها إلي القسطنطينية للاستنجاد بالسلطان العثماني ليعينهما على الاستحواذ على السلطة بالمغرب[٢٣].

ولم تكن هذه أولى علاقات عبد الملك مع العثمانيين فقد كان له معهم علاقات خاصة منذ لجوئه وأمه وإخوته إليهم من جراء طغيان عبد الله الغالب وانخراطه بين صفوف المحاربين العثمانيين إلي اشتراكه في معركة حلق الوادي بين العثمانيين والأسبان التي بمقتضاها دخلت تونس نهائيا في الإمبراطورية العثمانية[٢٤].

وقد انتهز العثمانيون تلك الفرصة الذهبية لفرض سيطرتهم على المغرب الأقصى ولو بشكل اسمي في البداية كما حدث من قبل في أواخر عهد الوطاسيين وليس من المستبعد كما يرى البعض بعد دخول عبد الملك فاس في صحبة القوات التركية ، أن تكون هذه الحاضرة قد كررت ما سبق وأن شهدته أيام دخول بوحسون الوطاسي عام ١٥٥٤م من ترديد الدعاء للسلطان العثماني وأن مساجد مراكش أيضا قد شهدت شيئا من هذا القبيل ، وقد كشفت الوثائق الأسبانية عن وجود حربي كبير للأتراك في

كثير من واقع المغرب في هذه المرحلة يمكن أن يساند النفوذ السياسي العثماني ويعلن عن مظاهر هذا النفوذ بما يخدم الغزو المرحلي[٢٥].

ولقد أمد السلطان العثماني عبد الملك كما تقول المصادر بقوة كبيرة بلغت نحوا من خمسة آلاف أو ستة آلاف فارس عربي وعشرين مدفعا[٢٦] سار بها عبد الملك وأخوه المنصور حتى أحواز فاس والتقيا بجيش ابن أخيهم المتوكل وانتصرا عليه حيث لاذ المتوكل بالفرار ودخل عبد الملك فاس عام ٩٨٣هـ/١٥٧٦م وبايعه أهلها ودخل مراكش في نفس السنة وبايعه أهلها أيضا وبقى هو في مراكش واستخلف أخاه أحمد المنصور على فاس وأعمالها[٢٧].

أما عبد الله المتوكل فقد أعاد الكرة على مراكش حيث وقعت معركة خندق الريحان عام ١٥٧٦م ، وفي هذه المعركة التي دارت رحاها مدة ثلاثة أيام واجه عبد الملك تجمعا كبيرا من أنصار المتوكل حيث انتصر انتصاره الساحق بقوة محدودة ولكن لها خبرات وأساليب التنظيم العسكري العثماني والتي بفضلها لم يفقد عبد الملك في المعركة غير القليل من رجاله[٢٨].

وبعد هذه الواقعة فر المتوكل إلي طنجة ومنها إلي ملك الأسبان فاستنجد به ضد عمه عبد الملك فلم ينجده فتوجه إلي البرتغال ليستنجد بملكها دون سبستيان[٢٩].

ولقد انتهز دون سبستيان ملك البرتغال الشاب هذه الفرصة لإعادة نفوذه من جديد على الموانئ الغربية للمغرب إلي جانب الحد من ازدياد نفوذ الأتراك الذي يستشري في المغرب ويكاد أن يسيطر عليه ، فقد اعتقد دون خوان سفير اسبانيا في لشبونة أن مجئ الأتراك بقوة كبيرة في صحبة عبد الملك إلي المغرب ليس من قبيل مساعدة عبد الملك فحسب

ولكن من أجل الحصول لأنفسهم على ملكية بالموانئ الغربية واتجه بظنه في ذات الوقت الي أن عبد الملك لم يمنحهم وعدا بـذلك ولكـن ربمـا عرضوا عليه مساعدته في تحرير طنجة في مقابل أن يمتلكوا موانئ مثل ميناء العرائش تسمح برسو الأسطول التركي في مياهها بالشتاء ، ومـن منطلق هذا الاعتقاد طلب ملك البرتغال من فيليب الثـاني ملـك اسـبانيا مساعدته على تفادي هذا الخطر بالاستيلاء على العرائش لما فـي هـذه الخطوة من مزايا تكفل مصالح المملكتين معا[٣٠].

لكن لم تشارك اسبانيا رسميا في هذه الحملة وان كان ملك اسبانيا قد وعد سبستيان بإمداده بسبعة آلاف جندي من الأسبان والايطاليين ومن الفاتيكان والألمان ، وحين بلغ عبد الملك أخبار استعدادات الملك البرتغالي لهذه المعركة أرسل له يثنيه عنها ويبصره بعواقبها ، وفي نفس الوقـت كان أحمد المنصور يعبئ الجيش فجمع تحت رايته نحو مائة ألف مقاتـل بينما قدر عدد الجنود البرتغاليين بنحو ١٢٥ ألف ، كمـا اشـترك فـي المعركة عدد كبير من السفن الحربية .

وفي عام ١٥٧٨م توجه الجيش البرتغالي من لشبونة إلي طنجة ثم وضعوا أيديهم على أصيلا بمعاونة المتوكل على الله الخائن لبلاده ، وتابع جيش سبستيان سيره حتى وصل إلي الضفة اليسرى لـوادي المخـازن ووصل الجيش المغربي قبالة الجيش الغازي في هذا المكان حيث وقعـت الواقعة الحاسمة بين الجيشين في عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م ، هزم فيها جيش عبد الملك جيش سبستيان وحليفه المتوكل هزيمة ساحقة وكان مـن بـين القتلى ملك البرتغال والمتوكل على الله ، وأيضا حدث والمعركة في أشدها أن توفى عبد الملك لكن خليفته المنصور كتم خبر وفاته حتى لا يؤثر ذلك على نفسية الجيش المغربي ولذا سميت هذه المعركـة بمعركـة الملـوك

الثلاثة ، وبويع أبو العباس أحمد المنصور بالخلافة بعد موت عبد الملك ، أما المتوكل فقد أخذت جثته وسلخت وملئت تبنا وأمر أحمد المنصور بأن يطاف بها في المدن والقرى ليكون عبرة ولقب منذ ذلك الوقت بالمسلوخ(٣١) .

المغرب الأقصى في عهد أحمد المنصور الذهبي :

كانت لمعركة وادي المخازن نتائج هامة على الصعيد الدولي والمحلي ، فقد ثبتت أقدام السعديين بشكل كبير في حكم المغرب ، بل أن نظرة الدول الأوروبية قد تغيرت كلية للمغرب ، وفتحت هذه المعركة صفحة جديدة للعلاقات بين المغرب وأوروبا ، هذا فضلا عن الضعف الشديد الذي حل بالبرتغال بعد مقتل ملكهم سبستيان حتى وصل الأمر إلي انهيارها تماما في الربع الأخير من القرن السادس عشر ودخولها تحت الحكم الاسباني عام ١٥٨٠م.

وعلى الصعيد العثماني اقترح السلطان مراد الثالث عقد تحالف مغربي عثماني ضد الأسبان بعد احتوائهم للبرتغال ، وعرض على سلطان المغرب إمداده بأسطول عظيم يستعين به في إعادة فتح الأندلس ، لكن لم يتضح موقف أحمد المنصور تجاه العرض العثماني . وكان القائد العثماني قلج على في ذلك الوقت يتحين الفرص لتحقيق حلمه القديم كما ذكرنا آنفا في إعادة الحكم الإسلامي للأندلس ، خاصة بعد ثبات أقدام الدولة العثمانية في تونس ، وعدم وضوح موقف السلطان أحمد المنصور من التحالف العثماني ضد الأسبان.

هكذا صدرت الأوامر إلي قلج على باشا بالتوجه إلي المغرب والسيطرة عليه لبدء العمل في استرداد الأندلس فوصل قلج على إلي الجزائر عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م بينما كان المنصور يرابط بقواته عند نهر

تانسيفت مستعدا لمواجهة العثمانيين ، حيث تقدم المنصور تجاه الحـــدود سادا مداخل البلاد وثغورها ، وما لبث بعد ذلك أن وجه المنصور سفارة إلي استانبول مخبرا السلطان العثماني بوصوله إلي شبه اتفاقا عسكريا مع الملك الاسباني لمؤازرته ضد العثمانيين في مقابل تنازلـــه عـــن مدينـــة العرائش وبعض الامتيازات الأخرى . وأمام تطور الأحـــداث لـــم يجـــد السلطان العثماني بدا من قبول الأمـــر الواقـــع والتراجـــع عـــن غـــزو المغرب(٣٢).

أما على صعيد العلاقات الودية بين المغرب والدولة العثمانية فقد صفا الجو بين البلدين على أثر قبول السلطان مراد بالأمر الواقع وميلـــه إلي سياسة المهادنة بينه وبين سلطان المغرب ، إذ أن الســـلطان أحمـــد المنصور لم ينس للسلطان مراد العثماني نجدته له ولأخيه أبـــي مـــروان عبد الملك ضد المتوكل على الله ، لذا لم ينس المنصور اثر بيعتـــه فـــي وادي المخازن أن يكتب للسلطان مراد العثماني بما أحرزه من نصر على جيوش البرتغال وقد وفدت له رســـل الســـلطان مـــراد ومعهـــم الهـــدايا لتهنئته(٣٣).

وقد جاءت الرسائل السعدية إلي العثمانيين دليلا على صفاء جـــو العلاقات المغربية – التركية في عهد المنصور الذهبي ، وفي بعض هذه الرسائل أدلة على استئناف الجهاد في المغرب ، مما قـــد يفهـــم منـــه أن المشاورات بين السعديين والعثمانيين كانت جاريـــة لاســـترداد الأنـــدلس وتخليص المسلمين المعذبين فيها(٣٤).

فبعد موت السلطان مراد الثالث بعث أحمد المنصور برسالة إلي الصدر الأعظم سنان باشا ، يعزيه في موت السلطان ، ويهنئه بتولية أبنه محمد الثالث(٣٥).

وقد ثار ابن القاضي أمير كوكو ببلاد القبائل ، مناهضا العثمانيين كاسلافه ومادا يديه للأسبان محتلي وهران ليساعدوه على خصومه حكام الجزائر ، فبعث هؤلاء للمنصور بكتاب مع الكخية يوسف ، يشكون إليه ذلك الأمير الخائن ويخبرونه باحتمال هجوم الأسطول الأسباني عليهم ، فرد عليه المنصور برسالة مطولة جاء فيها : (إن آنستم من جانب الكفرة - دمرهم الله- عمارة تنشئ أو أسطولا يؤم ناحيتكم ، واحتجتم إلينا فنحن بحمد الله بأنفسنا وأموالنا وأجنادنا موجودون لنصرتكم على أتم أهبة واستعداد ، واحتفال لا يزال لنكاية الكفر بحول الله بالمرصاد ،وآذاننا صاغية لداعيكم ، وهبوب صوت مناديكم . ومتى ناديتم وافيناكم – بحول الله- بعساكرنا المظفرة بالله خيلا ونارا ، وأسودا للجهاد تزأر في ذات الله نهارا)[٣٦].

وقد كانت مثل هذه المراسلات التي استمرت أغلب سنوات حكم المنصور دليلا أكيدا على مثل هذه العلاقات الودية بين البلدين.

ولقد استمرت هذه العلاقات الودية بين البلدين في عهد المنصور الذهبي مما أسفر عنه المزيد من التقدم والازدهار للمغرب في عهده وعدم مصادمة العثمانيين عند حدوده بل توجه بعد ذلك للتوسع تلقاء السودان الغربي وإخضاع بعض ممالك الغرب الأفريقي ، فاحتل توات وتيكورارين ، ثم الممالك السودانية ومن أهمها مملكة لاسيقيين ، وكان هذا ما بين عامي ١٥٨٨- ١٥٩١م ، وذلك بفضل جيوشه المسلحة بالأسلحة النارية ، والمزودة بالمدافع.

وقد أثرى توسع السعديين إلي السودان خزائن المنصور بالذهب والغنائم الكثيرة ، مما مكنه من انجاز مشاريعه العمرانية كقصر البديع والعسكرية والاقتصادية وغير ذلك والإنفاق عليها بسخاء[٣٧] ، فقويت

المغرب في عهده وأصبحت إمبراطورية مرهوبة الجانب متينة الاقتصاد وقد لقب أحمد المنصور بالذهبي لبلوغ المغرب في عهده عصرها الذهبي من التوسع والرخاء الاقتصادي والاجتماعي.

لكن ما لبث المغرب أن تفكك من جديد بعد وفاة أحمد المنصور وأدى ذلك إلي سقوط دولتهم في الفترة ما بين ١٦٠٣- ١٦٥٩م ، نتيجة التناحر على السلطة بين أبناء المنصور مما أدى إلي انقسام المغرب في تلك الفترة إلي مملكة شمالية ومملكة جنوبية ، مما هيأ الفرصة للأسبان من جديد لغزو موانئ المغرب وثغورها ، واستطاعوا بالفعل احتلال ميناء العرائش بالتواطؤ مع محمد الشيخ عام ١٦١٠م ، ثم ميناء المعمورة عام ١٦١٤م ، وكان للانجليز والهولنديين أطماع في احتلال مواقع أخرى ، ولم يتدخل العثمانيون في الشئون المغربية بشكل كبير بعد ذلك ، فقد كانت حروبهم المستمرة في القارة الأوروبية من جهة وبين الشيعة في إيران من جهة أخرى تعيقهم عن أي تفكير للسيطرة على المغرب الأقصى أو مناهضة حكامه.

هوامش الفصل الخامس

١- خاليد فؤاد طحطح ، العلاقات المغربية العثمانية خلال القرن ١٦م ، مقال بمجلة الفسطاط التاريخية على الموقع الالكتروني www.fustat.com ، ص١.

٢- شوقي عطا الله الجمل ، المغرب الكبير في العصر الحديث ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٧م ، ص٥٣ ، نقلا عن أبو عبد الله بن محمد بن احمد الكانوشى العبدى ، آسفى وما عليها قديما وحديثا ، ص٨٢.

٣- المرجع السابق ، ص٥٥ ، ٥٦.

٤- المرجع السابق ، ص٥٨.

٥- المرجع السابق ، ص٦٢ ، ٦٣.

٦- السعديون : هم من أسرة عربية الأصل كما هو مؤكد لدى من أرخ لهم ، انتقلوا من ينبع بالحجاز إلى درعة بجنوب المغرب ، استوطنوا قرية (تاكمادرت) وذلك في المائة السادسة من الهجرة ، وكان الاعتقاد السائد لدى المغاربة أنهم من الأشراف ، لكن خصومهم من بقايا الوطاسيين والمرنيين وأنصارهم كانوا يطعنون في صحة نسبهم الشريف ، معتمدين في ذلك على البتر الذي لوحظ في عمود نسبهم كما ذكر ابن القاضي . وقد ظل السعديون حتى مطلع القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادي يحيون في المغرب حياة بسيطة دينية وعلمية ، ولم يبرزوا على المسرح السياسي إلا حين اشتدت وطأة البرتغاليين على سكان الجنوب الغربي ، ولم يتدخل الوطاسيين لحمايتهم ، ومن هنا ظهروا كقادة لحركة تحرير ، لهذا التف حولهم الناس وبايعتهم القبائل. (انظر

إبراهيم شحاتة حسن ، أطـوار العلاقـات المغربيـة العثمانيـة ، الإسكندرية ١٩٨١م).

٧- جلال يحيى ، المغرب العربي والاستعمار ، المكتبة الثافية رقم١٦٤ الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١ نوفمبر ١٩٦٦ ، ص١٦.

٨- المرجع السابق ، ص١٨.

٩- المرجع السابق ، جلال يحيى ، تاريخ المغرب الكبير ، ص٣٥.

١٠- المرجع السابق ، إبراهيم شحاتة حسن ، وقعة وادي المخازن الخ ص٧١.

١١- المرجع السابق ، ص٧٦.

١٢- المرجع السـابق ، جـلال يحيـى ، تـاريخ المغـرب الكبيـر ، ص٣٢ ، ٣٣.

١٣- محمد مجى ، جولات تاريخية ، الجزء الثاني ، الجمعية المغربيـة للتأليف والترجمة والنشر ، دار الغـرب الإسـلامي – بيـروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م ، ص٥٢٥.

١٤- عبد الكريم كريم ، المغرب فى عهد الدولة السعدية ، الدار البيضاء ١٩٧٧م ، ص٨٠ ، ٨١.

١٥- المرجع السابق ، ص٨١.

١٦- المرجع السابق ، ص٢٠ ، ٢١.

١٧- المرجع السابق ، إبراهيم شحاتة حسن ، وقعة وادي المخازن الخ ، ص٩٩ : ص١٠١.

١٨- عبد الهادى التازى ، التاريخ الدبلوماسي للمغرب منذ أقدم العصور المجلد الثامن ، الرباط ١٩٨٧ م ، ص١٧ : ٢١.

١٩- محمد رزوق ، دراسات فى تاريخ المغـــرب ، أفريقيـــا الشـــرق ، ص٨٩.

٢٠- المرجع السابق ، ص٩١.

٢١- المرجع السابق ، شوقى عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص١٠٠.

٢٢- المرجع السابق ، محمد رزوق ، دراسات فى تـــاريخ المغـــرب ، ص٩٤.

٢٣- المرجع السابق ، شوقى عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص١٧٤ ، ١٧٥.

٢٤- المرجع السابق ، إبراهيم شحاتة حسن ، وقعـــة وادي المخـــازن ، ص١٧٢.

٢٥- المرجع السابق ، ص١٧٥ ، ١٧٦.

٢٦- المرجع السابق ، ص١٧٢.

٢٧- المرجع السابق ، شوقى عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص١٧٥.

٢٨- المرجع السابق ، إبراهيم شحاتة حسن ، وقعـــة وادي المخـــازن ، ص١٧٦.

٢٩- المرجع السابق ، شوقى عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبيـــر ، ص١٧٦.

٣٠- المرجع السابق ، إبراهيم شحاتة حسن ، وقعـــة وادي المخـــازن ، ص١٨٤ ، ١٨٥.

٣١- المرجع السابق ، شوقى عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص١٧٥ : ١٨٥.

٣٢- المرجع السابق ، عبد الكريم كريم ، المغرب في عهد الدولة السعدية ، ص١١٢.

٣٣- المرجع السابق ، شوقى عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص١٨٤.

٣٤- المرجع السابق ، محمد مجى ، جولات تاريخية ، ص٥٣٢.

٣٥- انظر نص الرسالة في المرجع السابق ، ص٥٣٢.

٣٦- المرجع السابق ، ص٥٣٢.

٣٧- إبراهيم شحاته حسن ، أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، الإسكندرية ، ١٩٨١م.

الخاتمـــــة

لقد استتب الأمر للعثمانيين في ولايات المغرب العربي منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر. ومنذ بدايات القرن السابع عشر أصبحت ولايات الشمال الأفريقي ذات أهمية كبيرة ، خاصة غربي المتوسط ممـــا أضفى عليها المجاهدون من سمعة بحرية كبيرة ، عن طريق غـــزواتهم المستمرة على سفن النصارى وسواحلهم الأوروبية . ففي سنة ١٦١٥م – ١٦١٦م تضاعفت قيمة الغنائم ، واعتبارا من ١٦١٣م حتى عام ١٦٢١م بلغ عدد السفن التي أسرت أكثر من تسعمائة وســـت وثلاثـــين ســـفينة ، وكانت هذه السفن من مختلف الدول الأوروبية.

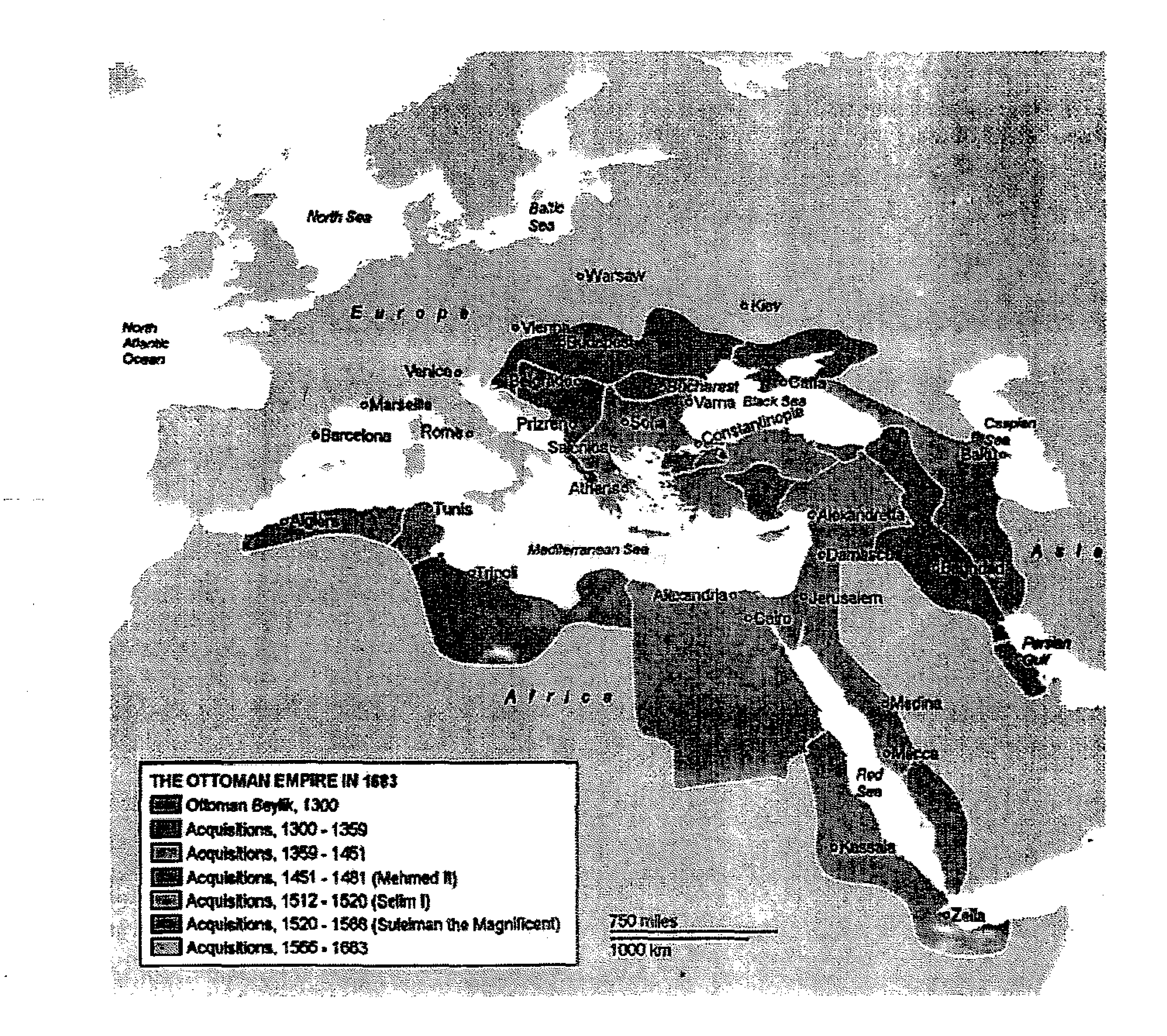
ولقد كانت جرأة رؤساء البحر تزداد يوما بعد يـــوم حتـــى أنهـــم هاجموا السفن في وسط المحيطات وتوصلوا إلي بحر المانش الانجليزي وتوغلوا في ايرلندا وضربوا سواحلها وسواحل بريطانيا العظمى ، ولـــم ينج من هجماتهم أي طرف من الأطراف ، خاصة دول غربي المتوسط ، حتى أن الإعمال البحرية للعثمانيين قد وصلت حتى أمريكـــا الشـــمالية ، فهناك العديد من المصادر تشير إلي ذهابهم إلي جزيرة نيوفوندلاند الواقعة في أمريكا الشمالية (إحدى الجزر الكندية حاليا) وقد غنموا من هناك أموالا كثيرة إلي جانب بعض السفن الاسبانية التي كانت تتجه إلي فرجينيا.

لقد أدى كل ذلك إلي ازدهار مدن الشمال الأفريقي فـــي القـــرن السابع عشر ، خاصة مدينة الجزائر التي قال عنها بردان (بلغ عدد سكان مدينة الجزائر سنة ١٦٣٤م أكثر من مائة ألف نسمة ، وخمسة عشر ألف منزل ومائة سبيل للماء ، وكانت المدينة مزدانة بالحدائق الجميلة الرائعة التي تحيط بالمدينة إحاطة كاملة).

ولقد استمرت العمليات البحرية العثمانية تزرع الرعب في قلوب الأوروبيين من قبل المجاهدين الإسلاميين في الشمال الأفريقي حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، عندما احتلت الجزائر من قبـل فرنسـا ، فانقضت بذلك صفحة من صفحات التاريخ الإسلامي المجيد ، خاصة بعد تنامي القوة البحرية البخارية للدول العظمى آنذاك خاصة بريطانيا وفرنسا فسيطرتا بذلك على الملاحة في البحر الأبيض المتوسط.

هكذا وفي نهاية هذا البحث نستخلص أن الدولة العثمانية لم تكـن دولة استعمارية معادية لدول المشرق والمغرب العربي ، بل كانت دولـة إسلامية عملت على حماية العالم العربي والإسلامي من خطر الهجمـات الصليبية والاستعمار الحديث ، الـذي أراد استئصـال شـأفة الإسـلام والمسلمين من المنطقة بأسرها ، كما فعل بالمسلمين في شـبه الجزيـرة الأيبيرية التي انتهى منها الإسلام نهائيا بعد بقائه فيها أكثر مـن ثمانيـة قرون على يد الأسبان والبرتغاليين ، ألد أعداء المسلمين في تلك الفترة ، لكن الله بفضله ومنته قد قيض لهم الدولة العثمانية التي وحدت المشـرق والمغرب الإسلامي للوقوف أمامهم وإحباط مخططاتهم ، بل زادت علـى ذلك نشرها للإسلام في بقاع لم يصلها من قبل في أوروبا وآسيا ، وكانت بذلك من أكثر الدول الإسلامية تأثيرا وأطولها بقاء ، وبسقوطها تشـرذم العالم العربي إلي شراذم لا نستطيع لم شملها حتى الآن.

اللوحات والخرائط



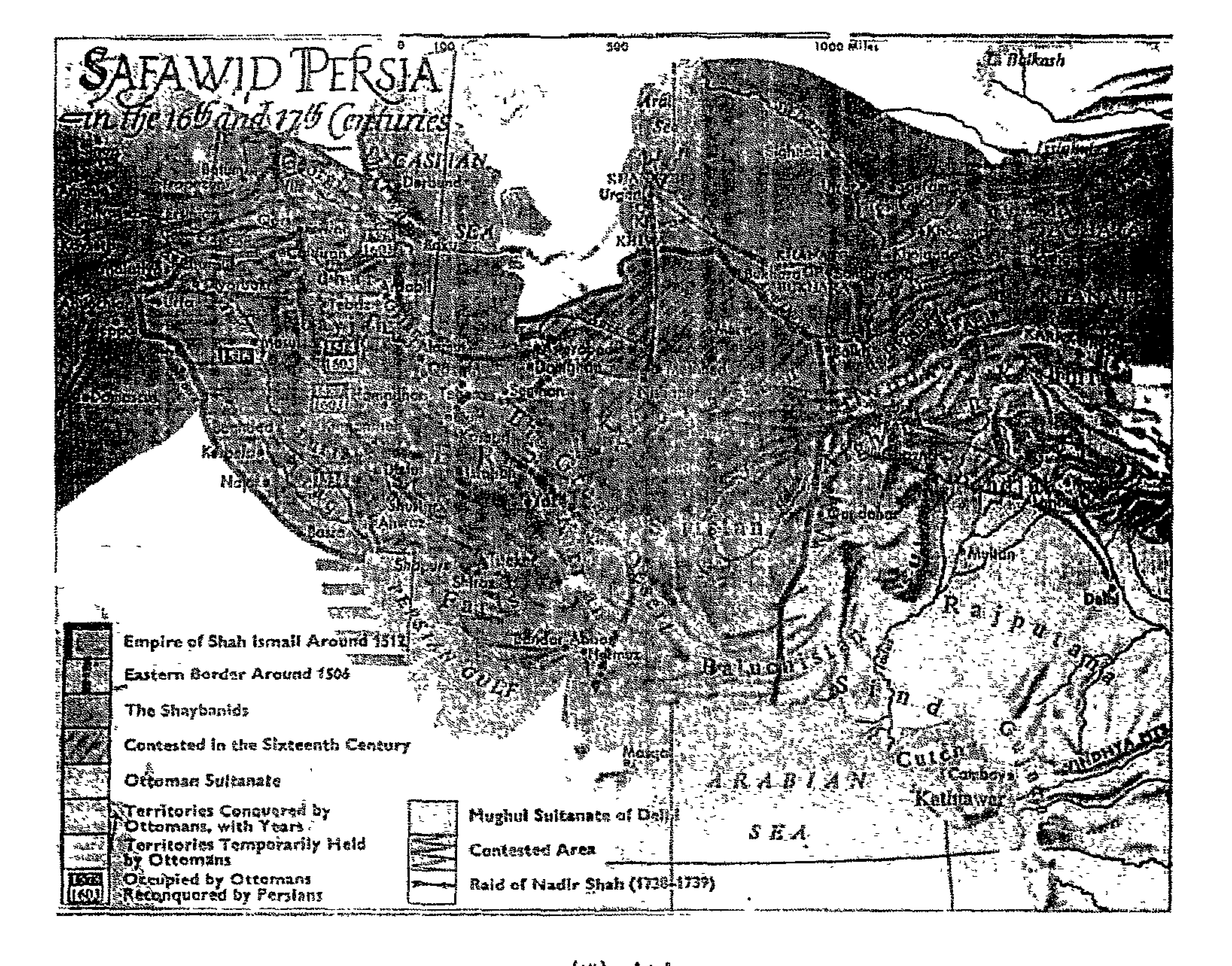
شكل (١)

خريطة توضح مراحل التوسع العثماني منذ عام ١٣٠٠م حتى عام ١٦٨٣م

The GROWTH of the OTTOMAN EMPIRE
From the Early 14th Century Till 1512

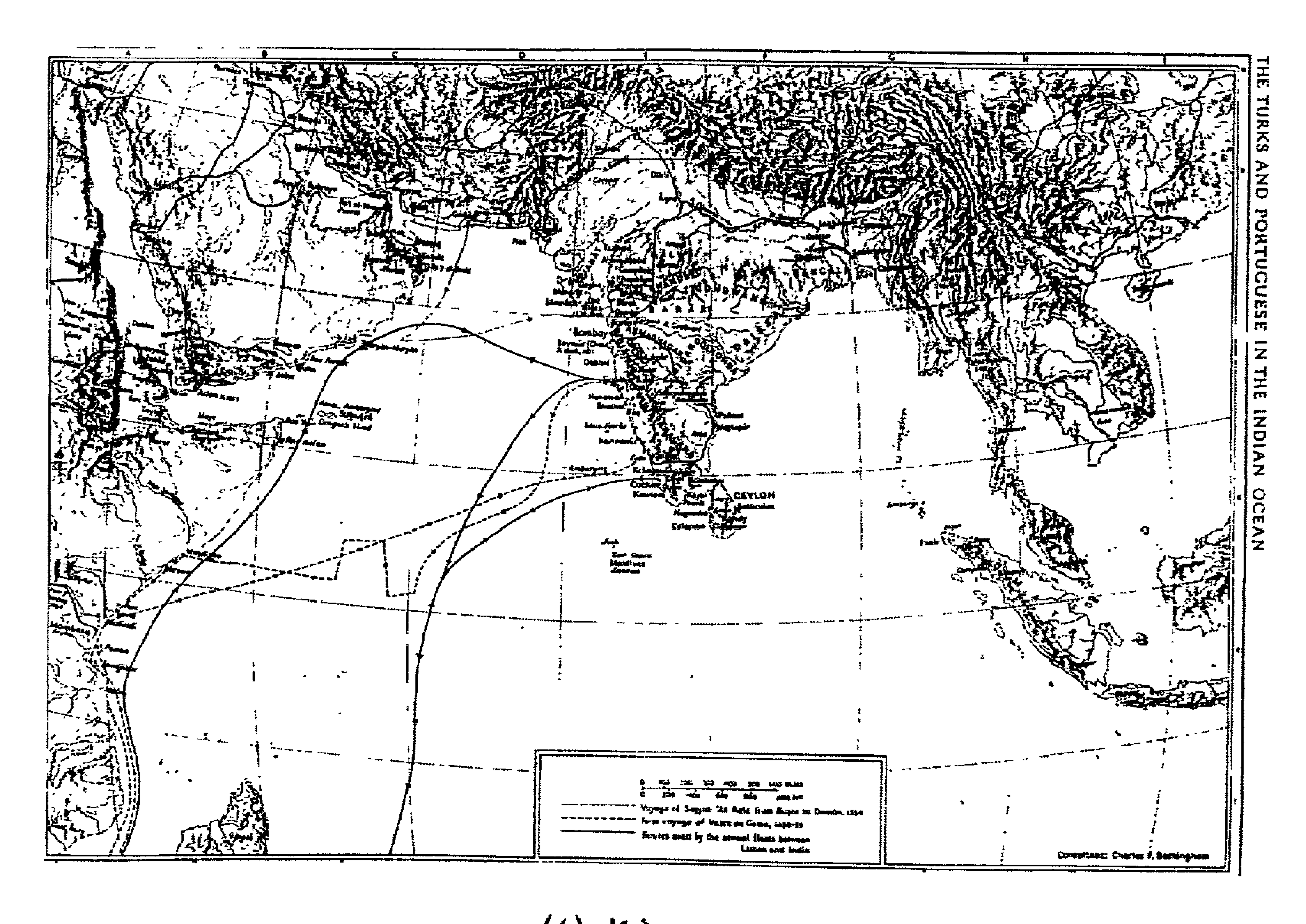
KHANATE OF ASTRAKHAN
HUNGARY
TRANSYLVANIA
BLACK SEA
SEA OF AZOV
MEDITERRANEAN SEA

شكل (٢)
خريطة توضح التوسع العثماني في أوروبا وآسيا في القرنين ١٤ و١٥ م



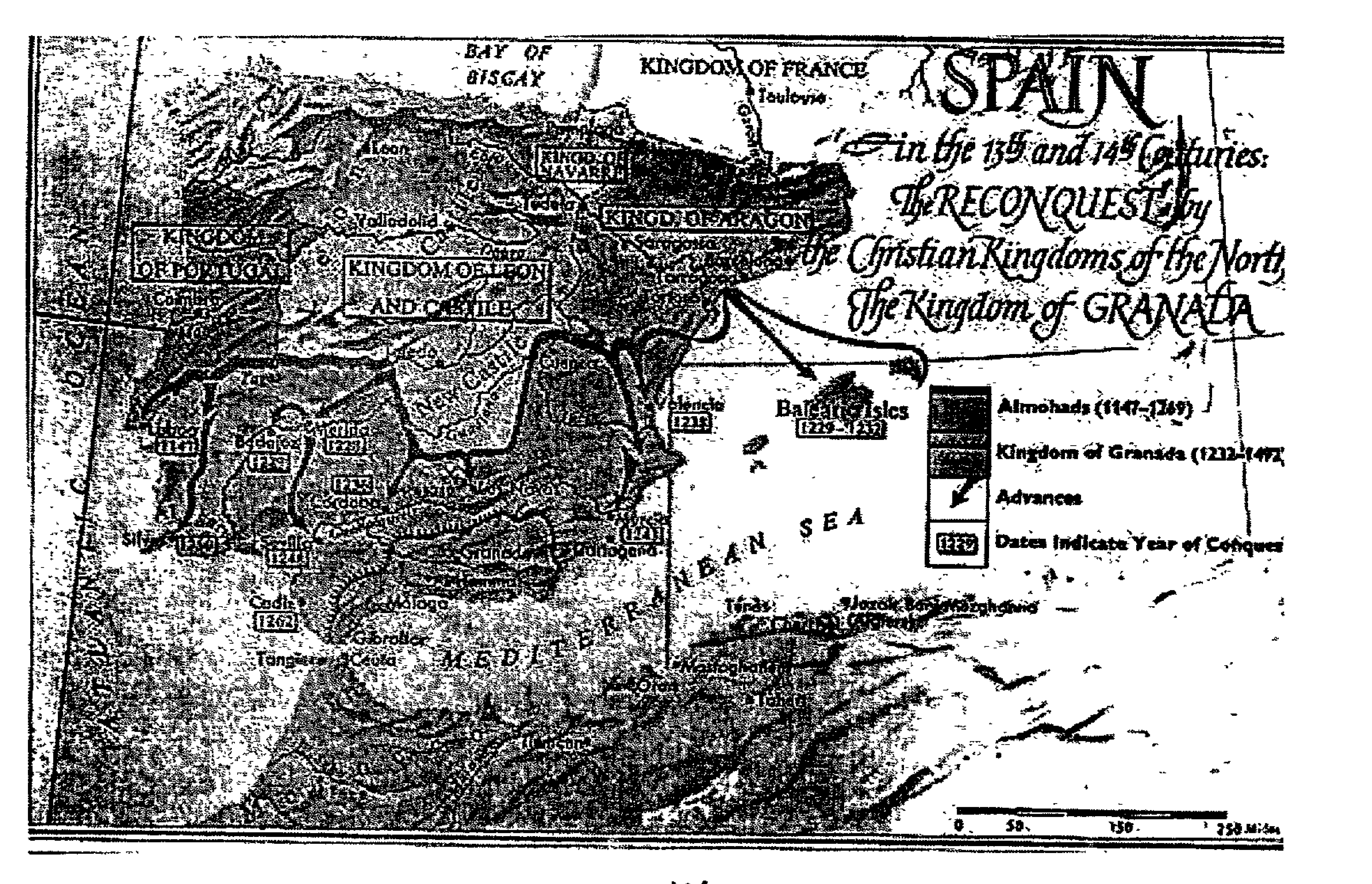
شكل (٣)

خريطة توضح حدود الدولة الصفوية في القرن ١٦م



شكل (٤)

خريطة توضح التحركات العثمانية والبرتغالية في المحيط الهندي في القرن ١٦م

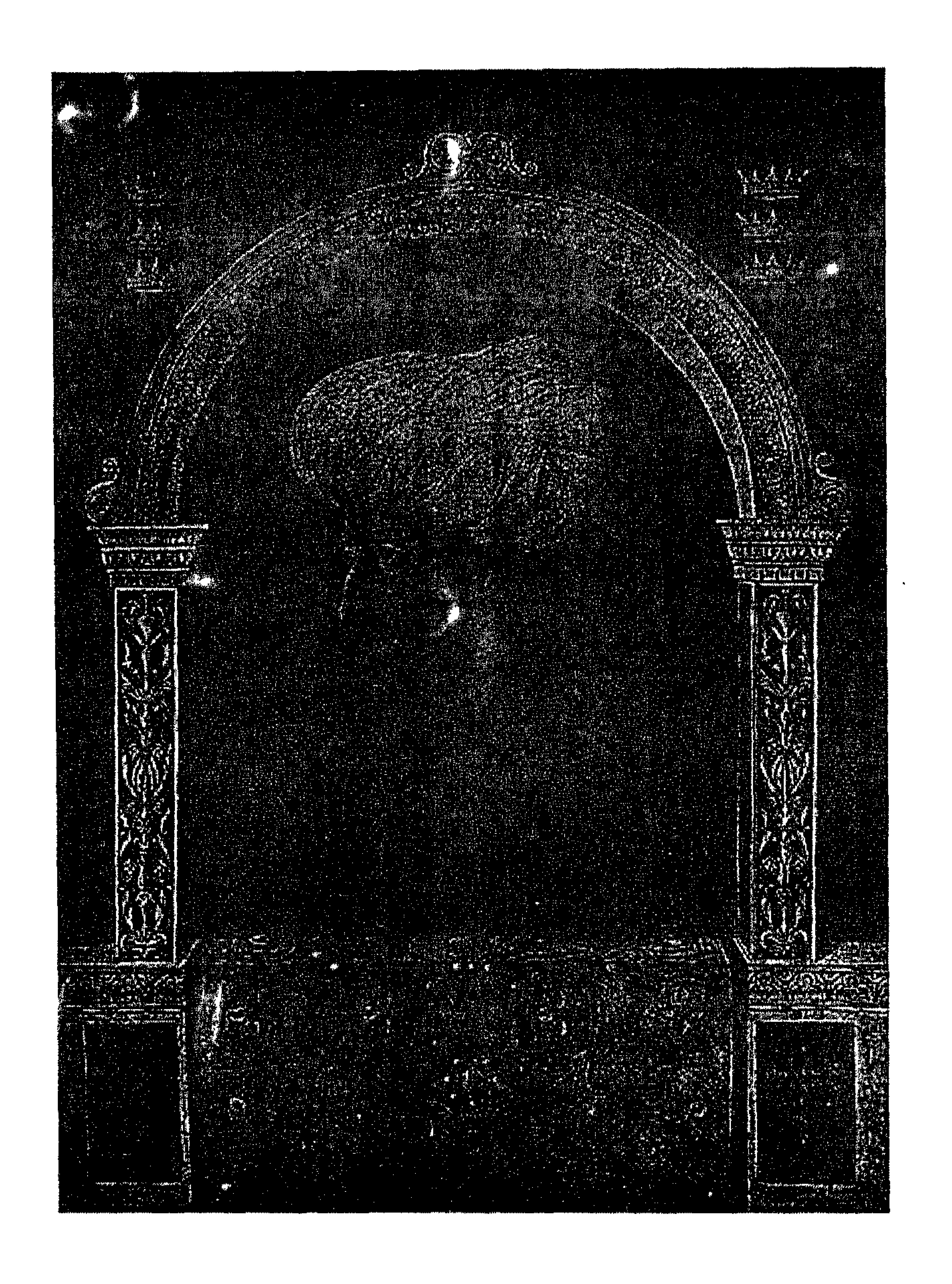


شكل (٥)

خريطة توضح الاسترداد المسيحي لاسبانيا منذ القرن ١٣م

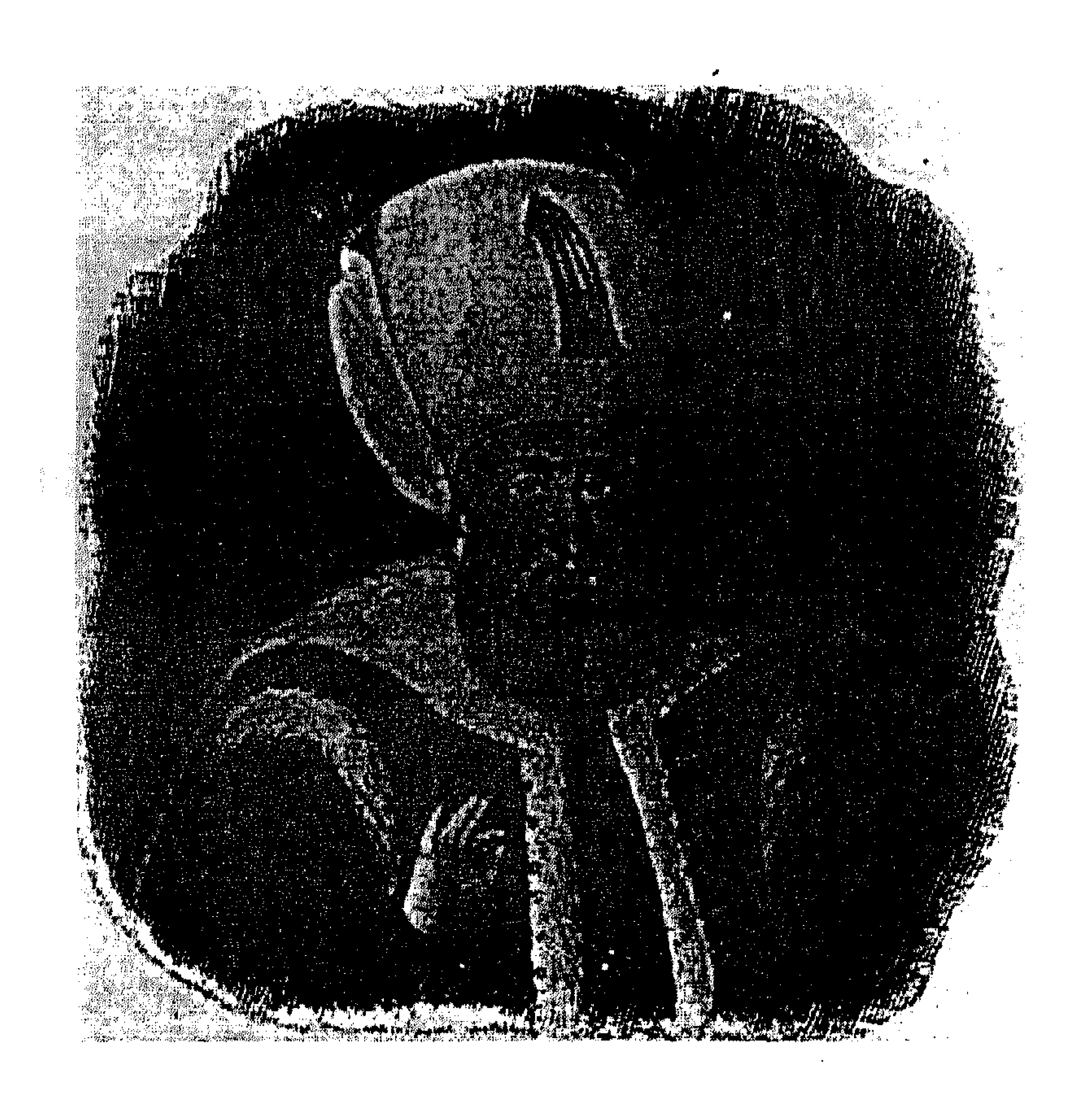
شكل (٦)

خريطة توضح بلدان المغرب العربي تحت السيطرة العثمانية



شكل (٧)

السلطان محمد الفاتح



شكل (٨)

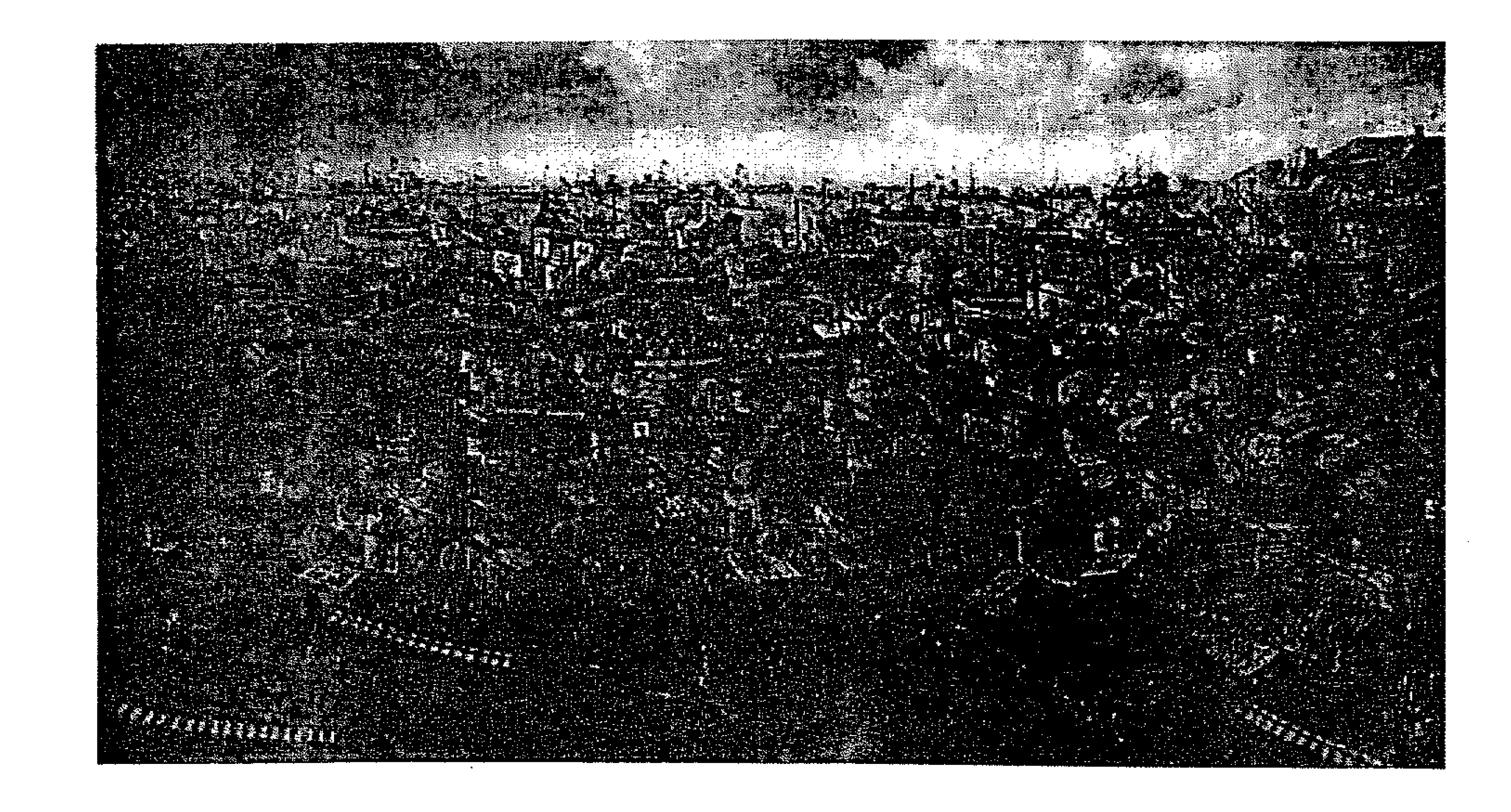
السلطان سليمان القانوني





شكل (٩)

يوضح الأخوان عروج من علي اليمين وأخيه خير الدين برباروسا



شكل (١٠)

لوحة تمثل معركة ليبانتو البحرية عام ١٥٧١م

المصادر والمراجع

المصـــادر والمراجـــع

أولا : المصادر العربية :

١- ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، طبعة مطبعة الشعب عام ١٩٦٠م.

٢- ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصـــر والقـــاهرة ، ١٢ جزء ، طبعة دار الكتب المصرية.

٣- ابن خلدون ، المقدمة لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيـــام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبـــر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٦م.

٤- إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عـــن دول البحـــار ، المطبعـــة الأميرية ببولاق ، القاهرة عام ١٣٤١للهجرة.

٥- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ، تحقيق وتعليقي : جعفر الناصري ومحمد الناصـــري ، دار الكتاب – الدار البيضاء عام ١٩٥٥م.

٦- عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار فـــي التـــراجم والأخبـــار ، المطبعة العامرة الشرفية بمصر عام ١٣٢٢ للهجرة.

ثانيا : المراجع العربية :

١- أحمد فؤاد متولي ، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها وحتى نهايـــة العصر الذهبي ، ايتراك للنشر والتوزيع ، عام ٢٠٠٥م.

٢- إسماعيل أحمد ياغي ، العالم العربي في التاريخ الحديث ، مكتبـــة العبيكان ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٧م.

٣- أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإســـلامية ، مكتبة النهضة العربية ، الطبعة السابعة عام ١٩٨٦م.

٤- أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التـاريخ العثمـاني ، دار الشروق ، الطبعة الثانية ، عام ٢٠٠٣م.

٥- إبراهيم شحاتة حسن ، وقعة وادي المخازن في تاريخ المغـرب ، قراءة مغربية عبر علاقات المغرب الدولية في القرن السادس عشر دار الثقافة – الدار البيضاء ، الطبعة الأولى عام ١٩٧٦م .

٦- إبراهيم شحاتة حسن ، أطـوار العلاقـات المغربيـة العثمانيـة ، الإسكندرية ، ١٩٨١م.

٧- إبراهيم على طرخان ، البرتغاليون في غرب أفريقيا ، مقال بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد ٢٥/الجزء الأول ، مايو عـام ١٩٦٣م.

٨- إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، دار الرشـاد الحديثـة – الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ١٩٧٨م.

٩- أحمد مختار العبادى ، دراسات في تاريخ المغـرب والأنـدلس ، الإسكندرية ، ١٩٨٥م .

١٠- أحمد مختار العبادى / السيد عبد العزيز سالم ، تـاريخ البحريـة الإسلامية في المغرب والأندلس ، الإسكندرية ، ١٩٨٥ م.

١١- السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، الجزء الثانى ، العصـر الإسلامي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦.

١٢- حسن صبحى ، دراسات في تاريخ شمال أفريقيا الحديث والمعاصر مؤسسة شباب الجامعة – الإسكندرية ١٩٧٥م.

١٣- حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، الهيئة المصـرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٤م.

١٤- جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير في العالم العربي ، المكتبة الثقافية رقم ١٢٣، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٥ ديسمبر عام ١٩٦٤م.

١٥- جلال يحيى ، تاريخ المغرب الكبير من أقدمَ العصور حتى الوقت الحاضر ، الجزء الثالث ، الدار القومية للطباعة والنشر عام ١٩٦٦م.

١٦- جلال يحيى ، المغرب العربي والاستعمار ، المكتبة الثقافية رقم ١٦٤ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١ نوفمبر ١٩٦٦م.

١٧- جلال يحيى ، البحر الأحمر والاستعمار ، المكتبة الثقافية رقم٧٥ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٥ ديسمبر ١٩٦٢م.

١٨- خاليد فؤاد طحطح ،العلاقات المغربية العثمانية فى القرن ١٦م ، مقال بمجلة الفسطاط ، على الموقع الالكتروني www.fustat.com.

١٩- سعيد عبد الفتاح عاشور ، أضواء جديدة على الحروب الصليبية ، المكتبة الثقافية رقم ١١٨ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١ أكتوبر ١٩٦٤م.

٢٠- شوقي عطا الله الجمل ، المغرب الكبير في العصر الحديث ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى عام ١٩٧٧م.

٢١- عبد الكريم كريم ، المغرب فى عهد الدولة السعْدية ، الدار البيضاء ١٩٧٧.

٢٢- فاروق عثمان أباظة ، أثر تجول التجارة العالمية إلي رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر دار المعارف ، الطبعة الثانية.

٢٣- فاروق عثمان أباظة ، دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر ، دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٩٥م.

٢٤- فؤاد محمد شبل ، حضارة الإسلام في دراسة توينبي للتاريخ ، المكتبة الثقافية رقم ٢١١ ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر - القاهرة.

٢٥- عمر عبد العزيز ، تاريخ المشرق العربي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية عام ١٩٩٨م.

٢٦- عمر عبد العزيز ، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٠م.

٢٧- عمر عبد العزيز ، جوانب من تاريخ المغرب العربي في العصر الحديث ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٩م.

٢٨- عبد العزيز الطنطاوي القرموطي ، العلاقات المصرية العثمانية ، الزهراء للعلام العربي ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٥م.

٢٩- عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ثلاثة أجزاء ، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ، الطبعة الثانية عام ١٩٨٦م.

٣٠- على الصلابي ، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، الطبعة الثانية عام ٢٠٠٤م.

٣١- عايض بن جحازم الروقي ، جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلي الحرمين الشريفين ، مقال بالمجلة التاريخية المصرية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد ٤٢ ، عام ٢٠٠٤م.

٣٢- عبد العظيم رمضان ، تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث ، ثلاثة أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، عام ١٩٩٧م.

٣٣- عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، موسوعة المغرب العربي ، مكتبة مدبولي القاهرة.

٣٤- عبد الجليل التميمي ، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلي السلطان سليم الأول عام ١٥١٩م ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية تونس ، العدد ٦ ، يوليو ١٩٧٦م.

٣٥- عبد الجليل التميمي ، رسالة من مسلمي غرناطة إلي السلطان سليمان القانوني ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية ، العدد ٣ ، يناير ١٩٧٥م.

٣٦- عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية المغربية في القرن ١٦ ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية – تونس ، العدد ٢٩ – ٣٠ ، يوليو ١٩٨٣م .

٣٧- عبد الجليل التميمى ، الخلفية الدينية للصراع الاسباني العثماني على الايالات المغربية فى القرن ١٦ ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية- تونس ، العدد ١٠- ١١ ، يناير ١٩٧٨م.

٣٨- محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم إلي المغرب ، أفريقيا الشرق عام ١٩٩٨م.

٣٩- محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام فى الأندلس ، ثمانية أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠١م.

٤٠- محمد فريد المحامى ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، دار النفائس ، بيروت عام ١٩٨١م.

٤١-محمد العروسي المطوى ، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب دار الغرب الإسلامي ١٩٨٢م.

٤٢-محمد مجى ، جولات تاريخية ،الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، دار الغرب الإسلامي – بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٤٣-ممدوح حسين / شاكر مصطفى ، الحروب الصليبية في شمال أفريقيا وأثرها الحضاري ، دار عمار بالأردن ، الطبعة الأولى ، عام ١٩٩٨م.

٤٤-ياسر أحمد حسن ، تركيا البحث عن المستقبل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٦م.

ثالثا : المراجع الأجنبية المترجمة :

١- أحمد آق كوندز ، الدولة العثمانية المجهولة ، وقف البحوث العثمانية ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٨م.

٢- أندريا ريمون ، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ، ترجمة : لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، عام ١٩٩١م.

٣- اليكس جورافسكي ، الإسلام والمسيحية ، ترجمة : خلف محمد الجراد ، سلسلة عالم المعرفة رقم ٢١٥ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت ، نوفمبر عام ١٩٩٦م.

٤- روبير مانتران ، تاريخ الدولة العثمانية ، ثلاثة أجزاء ، ترجمة : بشير السباعي ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٣م.

٥- شارل أندرى جوليان ، تاريخ أفريقيا الشمالية ، تعريب : محمد غزالي والبشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر عام ١٩٨٥م.

٦- عزيز سامح ألتر ، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ، ترجمة : د.محمود على عامر ، ، دار النهضة العربية – بيروت ، الطبعة الأولى عام ١٩٨٩م.

٧- عزيز سامح ألتر ، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ، الجزء الأول في طرابلس ، دار الفرجاني – القاهرة.

٨- كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين – بيروت ، الطبعة الخامسة.

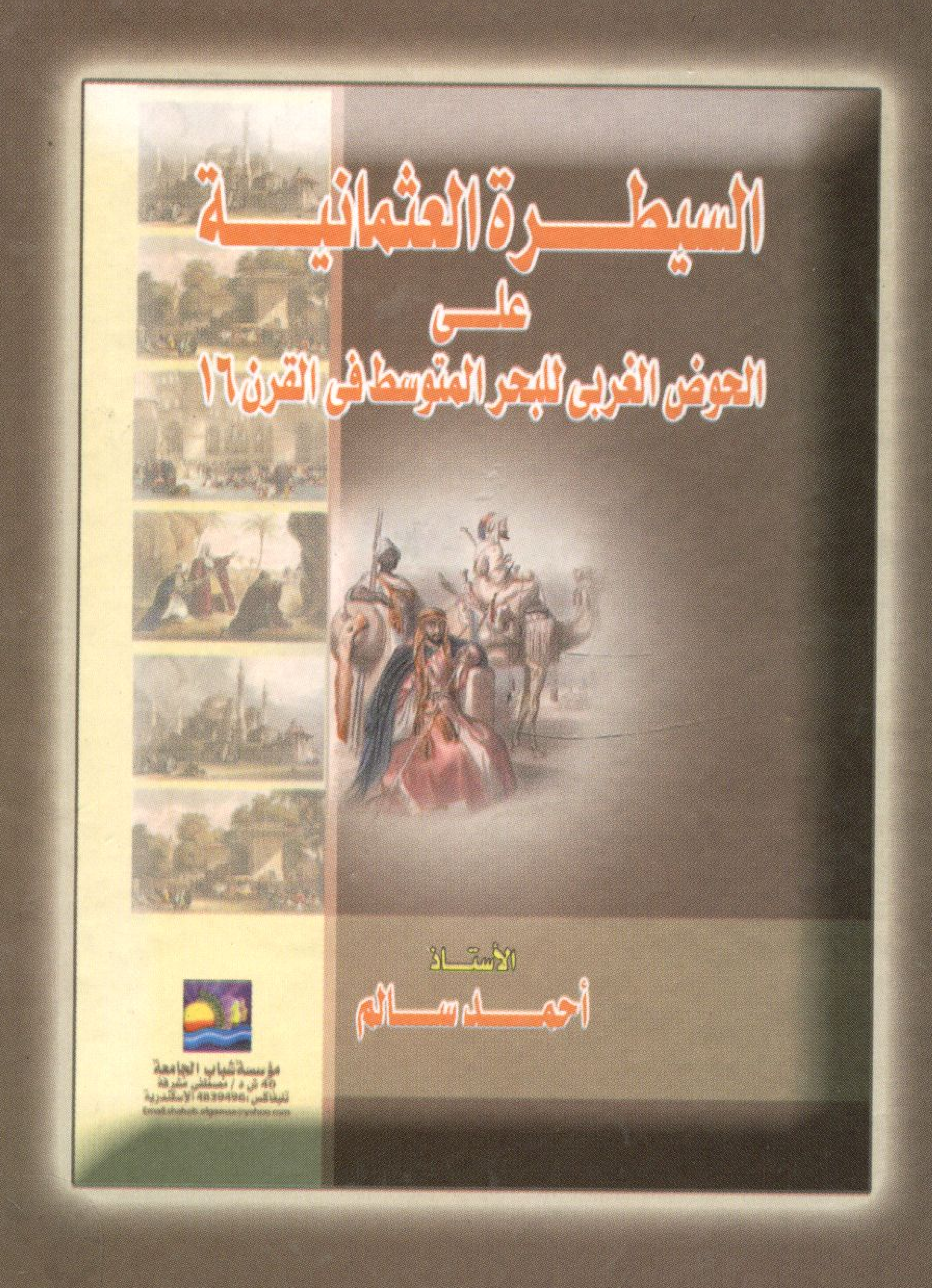
٩- مرثيديس غارثيا أرينال ، الموريسكيون الأندلسيون ، ترجمة وتقديم : جمال عبد الرحيم ، المشروع القومى للترجمة رقم ٤٥٨، المجلس الأعلى للثقافة ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٣م.

١٠- محمد فؤاد كوبرلي ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة : د. محمد السعيد سليمان ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر عام ١٩٦٧م.

الفهـــــرس

Inv: 1229

Date: 19/5/2011


السيطرة العثمانية
على
الحوض الغربى للبحر المتوسط فى القرن ١٦
الأستاذ
أحمد سالم
مؤسسة شباب الجامعة


Bibliotheca Alexandrina
09445240